

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط المغرب الاقصى



العدد السادس
السنة السادسة
شوال 1382
مارس 1963
ثمن العدد 50 ر ا درهم

مجلة تصدرها
وزارة
عموم الأوقاف

دعوة الحق

العدد السادس
السنة السادسة
شوال 1382
مارس 1963
ثمن العدد 50، درهم

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف. الرباط - المغرب

صورة الغلاف



قصر العدالة بمدينة الدار البيضاء

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط.

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 10-308 ـ 03-327 ـ الرباط

دراسات إسلامية

رأي في تحديد النسل والعدوى

للدكتور : تقي الدين الهلالي

(※) طالما هممت ان اكتب مقالا وافيا في هذه المسالة ، وقد سئلت عنها كثيرا في العراق وفي المغرب وفي المانيا قبل ذلك ، فلم تزل كثرة الاشغال المتراكمة تدافعني حتى جاءني السؤال المتقدم ذكره من تلميذي العزيز المذكور . فها انا ذا اكتب هذه الفتوى بعد الاطلاع على احوال العصر واهله في اوربا وآسيا وافريقيا وارجو ان يوفقني الله الى اصابة شاكلة الصواب . وسابدا اولا بنقل كلام المتقدمين ، ثم أعود عليه بالنخل والتحليل والتصفية حتى يظهر الحق من بين اختلافهم عسلا صافيا خالصا من الشمع ولبنا سائغا للشاربين . وما ذلك بعزيز على من لايخيب السائلين .

قال الامام الشوكاني في نيل الاوطار ، ممزوجا مع متنه من كتاب المنتقى (باب ما جاء في العزل ص 208 ج 6)

1) عن جابر قال : كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) والقرآن ينزل) متفق عليه . ولمسلم (كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) فبلغه ذلك فلم ينهنا)

2) ومن جابر : (ان رجلا اتى النبي (ص) فقال ان لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل وانا اطوف عليها واكره ان تحمل ، فقال : (اعزل عنها ان شئت فانه سيأتيها ما قدر لها) رواه احمد وابو داود ومسلم .

3) وعن ابي سعيد قال ، خرجنا مع رسول الله (ص) في غزوة بني المصطلق فاصبنا سبيا من العرب ، فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة واحببنا العزل ، فسالنا عن ذلك رسول الله (ص) فقال : (ما عليكم ان لا تفعلوا فان الله عزوجل لو اراد ان يخلق شيئا لم يستطع احد ان يصرفه) رواه احمد وابو داود .

4) وعن ابي سعيد قال : قال رسول الله (ص) : (في العزل انت تخلقه ، انت ترزقه ، ؟ اقره قراره فانما ذلك القدر) رواه احمد .

5) وعن اسامة ابن زيد ، ان رجلا جاء الى النبي (ص) فقال : اني اعزل عن امرأتي ، فقال له النبي (ص): (لم تفعل ذلك ؟ فقال الرجل : اشفق على ولدها ، او على اولادها ، فقال رسول الله (ص) لو كان ضارا ضر فارس والروم) رواه احمد ومسلم

6) وعن جدامة بنت وهب الاسدية قالت : حضرت رسول الله (ص) في اناس وهو يقول : (لقد هممت ان انهى عن الغيلة ، فنظرت في الروم وفارس فاذا هم يغيلون اولادهم ، فلا يضر اولادهم شيئا ، ثم سالوه عن العزل ، فقال رسول الله (ص) : ذلك الوأد الخفي ــ واذا الموؤدة سئلت) رواه احمد ومسلم

※) جاءني السؤال التالي من تلميذي حازم طه الموصلي الطالب في كلية اللغة العربية في الازهر ، وهذا نصه : استاذي العزيز ، اني اعلم كل العلم ان وقتك ضيق واشغالك كثيرة ، ولكني اجد نفسي مضطرا لاسالك واطلب ابداء رايك في موضوع حصل له ضجة كبيرة هذه الايام ، وكتب الصحفيون عنه كثيرا من غير فقه وهدى من الكتاب والسنة ، وهو تحديد النسل، فهل يجوز ام لا . وان كان جائزا فما هي الاسباب التي تجوزه . فارجو ان تطنب باجابتك على نمط مقالك العظيم الذي نشرته في مجلة الهدي النبوي بعنوان : الجهاد روح الدين .

7) وعن عمر بن الخطاب قال : (نهى رسول الله (ص) ان يعزل عن الحرة الا باذنها) رواه احمد وابن ماجه وليس اسناده بذلك .

حديث ابي سعيد الثاني ، اخرجه ايضا الترمذي والنسائي . قال الحافظ ، ورجاله ثقات . وقال في مجمع الزوائد ، رواه البزار وفيه موسى بن وردان وهو ثقة وقد ضعف ، وبقية رجاله ثقات . واخرج نحوه النسائي من حديث جابر وابي هريرة . وجزم الطحاوي بكونه منسوخا وعكسه ابن حزم . وحديث عمر بن الخطاب في اسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف ، ويشهد له ما اخرجه عبد الرزاق والبيهقي عن ابن عباس قال : (نهى عن عزل الحرة الا باذنها) وروى عنه ابن ابي شيبة انه كان يعزل عن امته . وروى البيهقي عن ابن عمر مثله . ومن احاديث هذا الباب عن انس عن البزار وابن حبان وصححه ، ان رجلا سال عن العزل ، فقال النبي (ص) لو ان الماء الذي يكون منه الولد اهرقته على صخرة لاخرج الله منها ولدا ، وله شاهدان في الكبير للطبراني عن ابن عباس ، وفي الاوسط له عن ابن مسعود (قوله كنا نعزل) ، العزل : النزع بعد الايلاج لينزل خارج الفرج . قوله (والقرآن ينزل) :فيه جواز الاستدلال بالتقرير من الله ورسوله على حكم من الاحكام ، لانه لو كان ذلك الشيء حراما لم يقررا عليه ولكن بشرط أن يعلمه النبي (ص) . وقد ذهب الاكثر من اهل الاصول على ما حكاه في الفتح الى ان الصحابي اذا اضاف الحكم الى زمن النبي (ص) كان له حكم الرفع ، قال ، لان الظاهر ان النبي (ص) اطلع على ذلك واقره لتوفر دواعيهم على سؤالهم اياه عن الاحكام ، قال ، وقد وردت عدة طرق تصرح باطلاعه على ذلك . واخرج مسلم من حديث جابر قال (كنا نعزل على عهد رسول الله (ص) ، فبلغ ذلك نبي الله فلم ينهنا) ووقع في حديث الباب المذكور الاذن له بالعزل ، فقال ، (اعزل عنها ان شئت) قوله ما عليكم ان لا تفعلوا ، وقع في رواية في البخاري وغيره (لا عليكم ان لا تفعلوا) قال ابن سيرين ، هذا اقرب الى النهي . وحكى ابن عون عن الحسن انه قال : والله لكان هذا زجرا . قال القرطبي ، كان هؤلاء فهموا من لا ، النهي عما سالوا عنه . فكانه قال ، لاتعزلوا وعليكم أن لا تفعلوا ويكون قوله (وعليكم) الى آخره تاكيدا للنهي . وتعقب بان الاصل عدم هذا التقرير وانما معناه ليس عليكم ان تتركوا وهو الذي يساوي ان لا تفعلوا ، وقال غيره ، معنى لا عليكم ان لا تفعلوا ، اي لا حرج عليكم ان لاتفعلوا ، ففيه نفي الحرج عن عدم الفعل . فافهم ثبوت الحرج في فعل العزل . ولو كان المراد نفي الحرج عن الفعل لقال ، لا عليكم ان تفعلوا ، الا ان يدعى ان لا زائده ، فيقال ، الاصل عدم ذلك .

وقد اختلف السلف في حكم العزل . فحكى في الفتح عن ابن عبد البر انه قال ، لاخلاف بين العلماء انه لا يعزل عن الزوجة الحرة الا باذنها ، لان الجماع من حقها ولها المطالبة به ، وليس الجماع المعروف الا ما لا يلحقه عزل . قال الحافظ ، ووافقه في نقل هذا الاجماع ابن هبيرة . قال ، وتعقب بان المعروف عند الشافعية انه لا حق للمرأة في الجماع ، وهو ايضا مذهب الهادوية فيجوز عندهم العزل عن الحرة بغير اذنها على مقتضى قولهم ، انه لا حق لها في الوطء ، ولكنه وقع التصريح في كتب الهادوية بانه لايجوز العزل عن الحرة الا برضاها ، ويدل على اعتبار الاذن من الحرة حديث عمر المذكور ، لكن فيه ما سلف . واما الامة فان كانت زوجة فحكمها حكم الحرة . واختلفوا هل يعتبر الاذن منها او من سيدها ، وان كانت سرية فقال في الفتح ، يجوز بلا خلاف عندهم ، الا في وجه حكاه الروياني في المنع مطلقا كمذهب ابن حزم ، وان كانت السرية مستولدة فالراجح الجواز فيها مطلقا ، لانها ليست راسخة في الفراش . وقيل حكمها حكم الامة المزوجة . (قوله كذبت يهود) فيه دليل على جواز العزل ، ومثله ما اخرجه الترمذي وصححه عن جابر قال (كانت لنا جوار وكنا نعزل ، فقالت اليهود ، ان تلك المؤودة الصغرى ، فسئل النبي (ص) عن ذلك فقال: (كذبت اليهود لو اراد الله خلقه لم يستطع احد رده) واخرج نحوه النسائي عن حديث ابي هريرة ، ولكنه يعارض ذلك ما في حديث جذامة المذكور من تصريحه صلى الله عليه وسلم بان ذلك الواد الخفي . فمن العلماء من جمع بين هذا الحديث وما قبله فحمل هذا على التنزيه ، وهذه طريقة البيهقي ومنهم من ضعف حديث جذامة هذا لمعارضته لما هو اكثر منه طرقا . قال الحافظ ، وهذا دفع للاحاديث الصحيحة بالتوهم . والحديث صحيح لاريب والجمع ممكن . ومنهم من ادعى انه منسوخ ، ورد بعدم معرفة التاريخ . وقال الطحاوي ، يحتمل أن يكون حديث جذامة على وفق ما كان عليه الامر اولا من موافقة اهل الكتاب فيما لم ينزل عليه ، ثم اعلمه الله بالحكم . فكذب اليهود فيما كانوا يقولونه . وتعقبه ابن رشد وابن العربي بان النبي (ص) لا يحرم شيئا تبعا لليهود ثم يصرح بتكذيبهم فيه . ومنهم من رجح حديث جذامة بثبوته في الصحيح وضعف مقابله بالاختلاف في اسناده والاضطراب . قال الحافظ ، ورد بانه يقدح في حديث ، لا فيما يقوي

بعضه بعضا فانه يعمل به وهو هنا كذلك والجمع ممكن . ورجح ابن حزم العمل بحديث جذامة بأن احاديث غيرها موافقة لاصل الاباحة ، وحديثها يدل على المنع . قال ، فمن ادعى انه ابيح بعد ان منع فعليه البيان . وتعقب بأن حديثها ليس بصريح فى المنع ، اذ لا يلزم من تسميته وادا خفيا على طريق التشبيه ان يكون حراما . وجمع ابن القيم فقال ، الذي كذب فيه صلى الله عليه وسلم اليهود هو زعمهم ان العزل لا يتصور معه الحمل اصلا وجعلوه بمنزلة قطع النسل بالواد فاكذبهم ، واخبر انه لا يمنع الحمل اذا شاء الله خلقه ، واذا لم يرد خلقه لم يكن وادا حقيقة . وانما سماه وادا خفيا فى حديث جذامة ، لان الرجل انما يعزل هربا من الحمل فاجرى قصده لذلك مجرى الواد . لكن الفرق بينهما ان الواد ظاهر بالمباشرة اجتمع فيه القصد والفعل . والعزل يتعلق بالقصد فقط . فلذلك وصفه بكونه خفيا ، وهذا الجمع قوي . وقد ضعف ايضا حديث جذامة ، اعني الزيادة التي فى آخره بانه تفرد بها سعيد بن ابي ايوب عن ابي الاسود. ورواه مالك ويحيى بن ايوب عن ابي الاسود فلم يذكراها ، وبمعارضتها لجميع احاديث الباب . وقد حذف هذه الزيادة اهل السنن الاربع . وقد احتج بحديث جذامة هذا من قال بالمنع من العزل كابن حبان. (قوله اشفق على ولدها) هذا احد الامور التي تحمل على العزل . ومنها الفرار من كثرة العيال والفرار من حصولهم من الاصل . ومنها خشية علوق الزوجة الامة لئلا يصير الولد رقيقا . وكل ذلك لايغني شيئا لاحتمال ان يقع الحمل بغير الاختيار . (قوله ان انهى عن الغيلة بكسر الغين المعجمة بعدها تحتية ساكنة ، ويقال لها الغيل بفتح الغين والياء . والغيال بكسر الغين المعجمة، والمراد بها ان يجامع امراته وهي مرضع . وقال ابن السكيت ، هي ان ترضع المراة وهي حامل ، وذلك لما يحصل على الرضيع من الضرر بالحمل حال ارضاعه ، فكان ذلك سبب نهيه صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لما راى النبي (ص) ان الغيلة لا تضر فارس والروم ترك النهي عنها .

بحث فيما تقدم وفيه مسائل

الاولى ، تعارضت الاحاديث فى النهي عن العزل ، وهو منع المني عند الجماع ان يصل الى رحم المراة خوفا من ان تحمل ، فترتب على ذلك اختلاف الصحابة فمن بعدهم . الثانية ، انقسم الناس فى هذه القضية ثلاثة اقسام ، قسم منعوه مطلقا ، ومن هذا القسم من قيد المنع بالحرائر واباحه فى الاماء السريات ، اي الموطوءات بملك اليمين . وقسم اباحوه . وقسم قالوا بكراهة التنزيه ، يعنون ان من تركه اثيب على تركه ، ومن فعله لم يأثم . واهل هذا القسم ارادوا الجمع بين الاحاديث ، فحملوا النهي على كراهة التنزيه ، وما ورد فى الاباحة اثبتوا به حكمها . ومن المانعين من ادعى نسخ احاديث الاباحة . ومن المبيحين من عكس فادعى نسخ ما ورد فى النهي . الحديث الاول عن جابر ، (كنا نعزل على عهد رسول الله والقرآن ينزل) متفق عليه . ولمسلم ، (كنا نعزل على عهد رسول الله فبلغه ذلك فلم ينهنا) . لا حجة فى هذا الحديث للقائلين بالاباحة لثبوت النهي عن النبي (ص) من وجه صحيح كما سيأتي . ومن سمع حجة على من لم يسمع متى بلغه ذلك .

الثاني عن جابر ايضا ، ان رجلا اتى النبي (ص) فقال ، ان لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا فى النخل وانا اطوف عليها واكره ان تحمل ، فقال ، (اعزل عنها ان شئت فانه سيأتيها ما قدر لها) هذا الحديث ايضا لا حجة فيه للقائلين بالاباحة المطلقة ، لان السائل اخبر النبي (ص) بان تلك الجارية كانت خادمة لهم فى البيت وفى النخل ، لانها كانت تسقيه لهم بدل البعير ، لان السانية هي الناقة التي يسقى عليها النخل والارض . فهذا الحديث انما يبيح العزل لسبب وحاجة يلحق الرجل ضرر كبير اذا فقدها ، فهذه المراة كانت تخدمهم فى بيتهم وتسقي لهم جنتهم من النخيل فمعيشتهم متوقفة عليها ، ولو حملت لتعطلت عن العمل وتتعطل بذلك معيشتهم . اضف الى ذلك انهم فقراء ، فربما احتاجوا الى بيعها ، ولو حملت لامتنع بيعها فتكون الخسارة اعظم .

الحديث الثالث ، عن ابي سعيد قال ، خرجنا مع رسول الله (ص) فى غزوة بني المصطلق ، فاصبنا سبيا من العرب ، فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة واحببنا العزل ، فسألنا عن ذلك رسول الله (ص) فقال، (ما عليكم ان لاتفعلوا فان الله عز وجل قد كتب ما هو خالق الى يوم القيامة) هذا من احاديث النهي ، الا انه ورد بصيغة مخففة ، زاده بيانا قول النبي (ص) فان الله قد كتب ما هو خالق الى يوم القيامة ، اي لاتفعلوا فان فعلكم لايرد مشيئة الله . وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم لابي هريرة حين استاذنه فى الاختصاء ، جف القلم بما انت لاق ، فاختص على ذلك او قذر .. وقريب منه قوله تعالى : (وما عليك ان لا يزكى) اي

ليس عليك زكاته ، اي طهارته من الشرك اذا عدمت فلا حرج عليك فيها فقد ابلغته وبرئت ذمتك ، فدعه واقبل على الاعمى الذي جاءك راغبا مسترشدا . ولا يمكن ان يفهم من هذه العبارة الجواز ابدا .

الحديث الرابع ، عن ابي سعيد قال ، قالت اليهود ، العزل المؤودة الصغرى ، فقال النبي (ص) (كذبت يهود ، ان الله عز وجل لو اراد ان يخلق شيئا لم يستطع احد ان يصرفه .
يجب تأويل هذا الحديث جمعا بينه وبين ما يأتي ، فأقول وبالله التوفيق : يحمل تكذيب النبي (ص) لليهود على انه لم يكن يعلم في ذلك الوقت ان العزل واد خفي ، ثم أعلمه الله بذلك ، او على ان تكذيبه لهم لزعمهم ان العزل يمنع ما اراده الله وقدره من الولد . ويدل على ذلك قوله : ان الله عز وجل لو اراد ان يخلقه لم يستطع احد ان يصرفه . فلا حجة فيه على اباحة السعي في منع الحمل بلا سبب مبيح لذلك .

الحديث الخامس ، وعن ابي سعيد قال ، قال رسول الله (ص) في العزل انت تخلقه ؟ انت ترزقه ؟ اقره قراره ، فانما ذلك القدر) من الاحاديث الدالة على المنع من العزل ، ولا سيما اذا كان العازل يقصد منع الحمل خوفا من الفقر وعدم القدرة على النفقة ، لان المتكفل بالرزق هو الله تعالى ، لا الاب ولا الام ولا ولاة الامور . وقوله عليه السلام ، اقره قراره ، اي دع المني يستقر في قراره الذي جعله الله له ، لان الله هو الخالق الرازق فلا تتدخل فيما لايعنيك ايها الانسان واعرف قدرك وعجزك عن رزق نفسك فكيف برزق غيرك ؟

الحديث السادس ، عن اسامة بن زيد ان رجلا جاء الى النبي (ص) فقال ، اني اعزل عن امراتي ، فقال له صلى الله عليه وسلم ، لم تفعل ذلك ، فقال له الرجل ، اشفق على ولدها او على اولادها ، فقال رسول الله (ص) ، لو كان ضارا ضر فارس والروم) . هذا الحديث ايضا من احاديث المنع من العزل مع ان الرجل السائل فعل ذلك لسبب وجيه في نظره ، وهو الغيل ، خاف ان تحمل امراته وهي ترضع فيضر ذلك ولدها الرضيع . وفيه فائدة زائدة ، وهي ان النبي (ص) كان يرد الامور التي لم ينزل عليه فيها وحي الى اهل العلم بالاختصاص . وفارس والروم في ذلك الزمان كان لهم علم بالطب واصول حفظ الصحة ، ولم يكن مثل ذلك العرب فتعين رد كل شيء الى اهل العلم به . ولا ينافي ذلك كمال النبي (ص) . يفسر ذلك ما ورد في صحيح مسلم ان النبي (ص) قدم المدينة ، فراى اهلها يلقحون النخل ، فقال ما هذا ؟ قالوا ، شيء نأخذه من ذكور النخل ونجعله في اناثها يصلح عليه التمر ، فقال ما اراه ينفع ، فتركوا التلقيح ، ففسد التمر وصار شيصا ، فاخبروا النبي (ص) بذلك فقال ، اذا حدثتكم عن الله فخذوا به ، فاني لا اكذب على الله ، وانتم اعلم بامور دنياكم .

الحديث السابع ، عن جدامة بنت وهب الاسدية قالت ، حضرت رسول الله (ص) في اناس وهو يقول ، لقد هممت أن انهى عن الغيلة ، فنظرت في الروم وفارس ، فاذا هم يغيلون اولادهم ، فلا يضر اولادهم شيئا ، ثم سألوه عن العزل ، فقال رسول الله (ص) ، ذلك الواد الخفي — واذا المؤودة سئلت .

هذا الحديث هو اقوى ادلة المنع واصرحها . والواد ان تدفن الطفلة وهي حية . وكانت العرب في جاهليتها تفعل ذلك كما حكاه الله عنهم في سورة النحل رقم 58 \ 59 . (واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون) اخبر سبحانه ان العرب في جاهليتهم اذا اخبر احدهم بان امراته وضعت انثى يحزن لذلك ويغتم اغتماما تظهر على وجهه بسببه غمامة سوداء من الكآبة ويبقى متحيرا لا يدري ما يصنع ، ايمسك تلك الطفلة ويبقى بسببها كئيبا حزينا مهينا ، أم يدفنها في التراب ويستريح من همه وغمه . فما أقبح حكمهم على تلك المولودة البريئة التي هي احق بالرحمة والعطف والاكرام . وقد شبه النبي (ص) العازل بلا سبب وجيه بدافن الطفلة وهي حية . وما احسن ما قاله ابن القيم في شرحه لهذا الحديث ، وانما سماه وادا خفيا في حديث جدامة ، لان الرجل انما يعزل هربا من الحمل فاجرى قصده لذلك مجرى الواد ، لكن الفرق بينهما ان الواد ظاهر بالمباشرة اجتمع فيه القصد والفعل ، والعزل يتعلق بالقصد فقط ، فلذلك وصفه بكونه خفيا

الحديث الثامن ، عن عمر بن الخطاب قال : نهى رسول الله (ص) ، أن يعزل عن الحرة الا باذنها .

هذا الحديث ، دليل قوي على المنع من العزل عن الزوجة الحرة الا باذنها ، فهو منع مقيد . ونحن في هذا الزمان لا يهمنا امر الجارية الموطوءة بملك اليمين . او بالتزوج ، لان الرق لا وجود له في هذا الزمان ، وانما نتكلم في حكم العزل عن الزوجة .

وقال ابن قدامة في المغني ، ج 7 ص 23 ، فصل (والعزل مكروه) ومعناه ان ينزع اذا قرب الانـزال فينزل خارجا من الفرج ، رويت كراهته عن عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود ، وروي ذلك عن ابي بكر الصديق ايضا ، لان فيه تقليل النسل وقطع اللذة عن الموطوءة . وقد حث النبي (ص) على تعاطي اسباب الولد ، فقال : تناكحوا تناسلوا تكثروا ـ وقال: سوداء ولود خير من حسناء عقيم . الا ان يكون لحاجة مثل أن يكون في دار الحرب فتدعو حاجته الى الوطء فيطا ويعزل . ذكر الخرقي هذه الصورة ، او تكون زوجته امة فيخشى الرق على ولده . او تكون له امة فيحتاج الى وطئها والى بيعها . وقد روي عن علي انه كان يعزل عن امائه ، فان عزل من غير حاجة كره ولم يحرم ، ورويت الرخصة فيه عن علي وسعد بن ابي وقاص وابي ايوب وزيد بن ثابت وجابر وابن عباس والحسن بن علي وخباب بن الارت وسعيد بن المسيب وطاووس وعطاء والنخعي ومالك والشافعي واصحاب الراي .

قوله ، ولا يحرم فيه نظر ، فان الكراهة في اصطلاح السلف ، هي في الغالب للتحريم وخصوصا اذا كانت مبنية على نهي جاء في كتاب الله او سنة رسول الله ، واخص من ذلك اذا كان ذلك النهي مصحوبا بالوعيد ، فلا يجوز ابدا ان تحمل كراهة من ذكر من الصحابة على التنزيه . وقال الامام ابن القيم في زاد المعاد ج 4 / ص 16 / ثبت في الصحيحين عن ابي سعيد قال ، اصبنا سبيا فكنا نعزل ، فسالنا رسول الله (ص) فقال ، وانكم لتفعلون ، قالها ثلاثا ، ما من نسمة كائنة الى يوم القيامة الا وهي كائنة .

هذا الحديث ، يعزز احاديث النهي ويزيدها قوة ووضوحا ، لان قوله صلى الله عليه وسلم ، وانكم لتفعلون ثلاث مرات استفهام انكاري ، والتكرار فيه مبالغة في الانكار ، وما بعده يزيده وضوحا . ثم قال ، وفي مسند احمد وسنن ابن ماجه من حديث عمر ابن الخطاب قال ، نهى رسول الله (ص) ان يعزل عن الحرة الا باذنها . ثم ذكر مثله من رواية ابن داود عن ابي هريرة عن النبي (ص) . قال تقي الدين الهلالي حديث عمر قد تقدم ولم اتم التعليق عليه ، والآن اتمه ، فاقول: في هذا الحديث تقييد النهي عن العزل عن الحرة ، فهو منع مقيد بشرط ، فمتى اذنت الحرة جاز العزل ، ومتى لم تاذن حرم . ومن نظر في قواعد الاسلام واصوله وفيما جاء عن النبي (ص) وعن اصحابه في هذه المسالة لانجد بدا من القول بتحريم العزل الا لسبب . وهذا السبب قد يكون مبيحا للعزل ، وقد يكون موجبا له ، فان علم الرجل والمراة ان الحمل تترتب عليه مفسدة وضرر لاحد الزوجين او لهما جميعا ، او لاولادهما ، وجب عليهما العزل . وان علما انه لا ضرر في الحمل الا ان فيه مشقة كبيرة لايستطيعان تحملها جاز لهما العزل . ويجدر بي هنا ان اذكر بعض الاسباب التي تبيح العزل او توجبه .

فمما يوجبه ، ان يكون الوطء محرما او شبهة ، ففي هذه الحال يجب العزل ، لان الحمل يغلظ الجريمة ويكون سببا في ولادة ابن زنى . ولا يخفى ما في ذلك من الجناية على ذلك المولود والفضيحة لوالديه ولاقاربهما ، وقد يقتلانه بعد الولادة او يقتله احدهما ، فتضاف الى جريمة الزنى جريمة هي اعظم منها ، وهي قتل النفس التي حرم الله . ومن ذلك مرض خطير معد يكون الرجل مصابا به او المراة ، كداء السل ، فمما لاشك فيه ان الغالب متى كان احدهما مسلولا انتقل المرض الى الآخر فسبب له الموت الزؤام بعد مقاساة اعظم الآلام ، فمتى جامع وهو مسلول عالم بالعدوى فقد ارتكب كبيرة من الكبائر ، وان كان جماعه في الشرع حلالا لما يترتب على ذلك من الكارثة التي تحل بالشخص الآخر . وان كانا مصابين بمرض واحد معد كالسل والجذام وما اشبههما وجب عليهما العزل عند الجماع لئلا يجرا شرا على المولود الذي يرث ذلك المرض من والديه . ومن الامراض ما يوجب العزل ، كداء الربو الشديد اذا اصيبت به المراة فان الحمل يزيدها ضيقا في التنفس ، واما ولادتها فيكون فيها خطر الاختناق لشدة ضعفها وضعف قلبها ورئتها عن تحمل آلام الطلق . فان قلت لا نسلم ان كل انسان يخالط شخصا آخر مسلولا يصاب بالسل ، فقد شاهدنا من تزوج بمسلولة وبقي معها مدة طويلة حتى ماتت ولم يصب هو بأذى . فالجواب ان ذلك نادر والنادر لاحكم له . قال ابن الخطيب السلماني في رسالته مقنعة السائل عن المرض الهائل بعد ما وصف المعركة التي تقع بين جراثيم المرض المعدي وبين قوات الدفاع التي اودعها الله جسم الانسان وغيره من الحيوان ، قال ابن الخطيب ، ان قيل ما معنى الاستعداد الذي تكرر لفظه في هذا الغرض ووقف عليه كثير من مفهوم العدوى . قلنا ، الاستعداد تهيء شيء لقبول شيء بمناسبته ومشاكلته له حتى يلبس صورته على مسامحة في هذا التعريف . فاذا اتفق أن يكون المزاج الشخصي قريبا في عرضه من مزاج الوارد سمي مستعدا لقبوله قبله ومال اليه من غير مدافعة ولا ممانعة كما يثب الزئبق على الذهب لشبهه بنسخه ومناسبته اياه فيغوص فيه ويتحد به ويسري في

الامشاج والرطوبات بسريان الروح فيفسدها افساد السموم ، وان اتفق ان يكون بعيدا منه فى عرض مزاجه قاومه مقاومة الضدية ومانعه وتعاصى عليه قبوله . فعلى بعد ما بينهما فى عرض المضادة تكون الممانعة والموافقة . وقد يكون هذا البعد خلقة للمزاج او يحصل بالعلاج ، ولذلك ما حرص الاطباء عند تعرفهم بالحدس طبيعة هذا المرض على الميل بالتدبير الى طرف من مضادته يخرج عن سبيل الاستعداد ، وهو جواب دعوى من رد العدوى والانتقال بكون كثير من المباشرين للمرضى سلموا من مضرته مع الملازمة والقرب من العدد الكثير منهم وهلاك آخرين ممن لم يباشروا او باشروا مباشرة يسيرة ، اذ لم يعلم الجمهور ان علة السلامة او العطب بقدرة الله ، انما هي الاستعداد او عدمه . وان الناس فى الاقتراب من نار تلك السمية بمنزلة الفتل التي تقرب من النار المشتعلة فى السراج ، وان ما كان قريب عهد بالايقاد والحرارة والدخانية اسرع به تعلق النار لحينه .

هذا مثال المستعد الوافر الاستعداد ، وما كان جاف غير قريب العهد بالنار قبل الايقاد بعد انفصال فى زمن اطول من الاول ، وهو مثال الشارع فى الاستعداد . وما كان من الفتل بليلا مشربا مائية اشتعل بعد طول مصابرة وتنشيش ومعاناة ، وبعد زمان تجف فيه مائيته ، فاما أن يتم اشتعاله بطول الزمان ، او ربما غلب الفاعل لضعفه عنه او خمد الفاعل قبل مصابرته . وهذا مثال البعيد عن الاستعداد ، ومحله من المخاطرة ما علمت . والجهل بهذا المعنى غلط الناس وعدد مصارعهم . ولله در القائل :

ما يبلغ الاعداء من جاهل
ما يبلغ الجاهل من نفسه

فان قيل كيف نسلم دعوى العدوى ، وقد ورد الشرع بنفي ذلك ؟ . قلنا ، وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة . وهذه مواد البرهان . وغير خفي عمن نظر فى هذا الامر او ادركه هلاك من يباشر هذا المرض غالبا وسلامة من لايباشره . كذلك وقوع المرض فى الدار والمحلة لثوب او آنية حتى ان القرط (وهي الحلقة التي تتحلى بها المراة فى اذنيها) اتلف من علق باذنه واباد البيت باسره . ووقوعه فى المدينة فى الدار الواحدة لم اشتعاله منها فى افذاذ المباشرين ثم جيرانهم واقاربهم وزوارهم خاصة ، حتى يتسع الخرق ، وفى مدن السواحل المستصحبة حال السلامة الى ان يحل بها فى البحر من عدوى اخرى قد شاع عنها خبر الوباء رجل موف ، فيكون تاريخ ظهور المرض مقارنا لحلوله ، وسلامة الكثير ممن انما فى التوحش ، كالزاهد بن ابي مدين بمدينة سلا ، وكان من القائلين بالعدوى . وقد تزود لمدة ، وبنى باب منزله على اهله وهم كثيرون . وفنيت المدينة . ولم يرزأ نسمة واحدة لطول تلك المدة ، وتواترت الاخبار بسلامة اماكن لاتطاها الطرق ، وهي منقطعة عن الناس . ولا اعجب لهذا من سجن الاسرى من المسلمين ، انقذهم الله بدار صنعة اشبيلية . وهم الوف ولم يصبهم الطاعون . وقد كاد يستاصل المدينة . وصح النقل بسلامة اهل العمود والرحالين فى الغرب بافريقية وغيرها ، لعدم انحصار الهواء وقلة تمكن الفساد منه . والعناد فى هذا الباب وارتكاب اللجاج فيه الحم فى الناس سيف الطاعون ، وسلط الله عليهم من بعض المفتين من اعترضوا بالفتيا اعتراض الازارقة من الخوارج للناس بالسيوف ، فسالت عن شبا اقلامهم من النفوس والمهج ما لا يعلمه الا من كتب عليهم الفناء بسببه . وان كان بريء القصد من المضرة وقوفا مع ظاهر لفظ الحديث . ومن الاصول التي لا تجهل ان الدليل السمعي اذا عارضه الحس والمشاهدة لزم تاويله . والحق فى هذا تاويله بما ذهب اليه طائفة ممن اثبت القول بالعدوى . وفى الشرع مؤنسات عديدة ، كقوله (يعني النبي (ص) لا يورد ممرض على مصح . وقول الصاحب (وهو عمر بن الخطاب (رض) افر من قدر الله الى قدره . وليس هذا موضع الاطناب فى هذا الغرض . والكلام فى القول بالعدوى او بعدمها شرعا ليس من وظائف هذا الفن ، انما جرى مجرى الجمل المعترضة والمثل ، وله تحقيق فى محله . وبالجملة فالتصام عن مثل هذا الاستدلال زعارة وتصاقر على الله (اي جراة عليه واستخفاف بارواح خلقه) واسترخاص لنفوس المسلمين ، وقد وقف قوم من اهل الورع بالعدوى الى الناس مستقيلين مشهدين على انفسهم بالرجوع عن الفتوى بذلك تحرجا من تسويغ الالقاء باليد الى التهلكة . عصمنا الله من الخطل ، ووفقنا فى القول والعمل . انتهى كلام ابن الخطيب . واظن أن كثيرا من القراء يجد غموضا فى بعض كلام ابن الخطيب . ولذلك رايت من المناسب ان اشرح العبارات التي يعسر فهمها على بعض القراء ، فاقول وبالله التوفيق :

قوله ، الاستعداد ، تهيء شيء لقبول شيء الخ . معناه ، ان الجسم الضعيف المقاومة المستعد لقبول العدوى ينتقل اليه المرض بمخالطة المريض ، ولله در الشاعر اذ يقول :

لا تربط الجرباء حول صحيحة
حذارا على تلك الصحيحة تجرب

قوله ، على مسامحة فى هذا التعريف . من المعلوم ان ابن الخطيب نابغة فى الطب والادب والفلسفة، فهو يحافظ على ما يضعه من التعريفات والحدود محافظة دقيقة ، فلذلك نبه على ان هذا التعريف ، انما هو تقريبي لتسهيل الفهم على القاريء . قوله ، فاذا اتفق ان يكون المزاج الشخصي الخ . يعني ان طبيعة الشخص السليم اذا كانت قريبة من طبيعة الوارد السمي ، وهو مكروب المرض بعبارة العصر الحاضر ، فان الجسم يقبل مكروب المرض الهاجم عليه من غير مقاومة ولا مدافعة ، لعدم وجود التضاد بين قوات المرض المغيرة وقوات الجسم الضعيف المغار عليه . ثم شبه ابن الخطيب قبول الجسم الضعيف لكاريب المرض الهاجم بالزئبق مع الذهب اذا قرب الزئبق الى الذهب انجذب اليه ، لان اصليهما متشابهان . قوله ، فيغوص فيه ويتحد به الخ . يعني ان المرض ينتقل من المريض الى جسم الصحيح ويتحد معه . قوله ، ويسري فى الامشاج الخ . يعني ان القوى السمية على حد تعبير ابن الخطيب ، او الجراثيم المرضية على حد تعبير هذا العصر ، تسري فى الاخلاط والرطوبات بسريان الروح ، أي الهواء كما تسري السموم فى الاجسام فتفسدها .

قوله ، وان اتفق ان يكون بعيدا منه فى عرض مزاجه الخ . هذا مثال للجسم السليم الذي لاتزال قواه الدفاعية قادرة على المقاومة مضادة للقوى الهاجمة غير خاضعة لها ، فحينئذ تنبري لقوة العدو وتهجم عليها هجوما مضادا دفاعيا كما يدافع الرجال المخلصون عن اوطانهم اذا اغار عليه عدوهم . ولا يفكرون فى التسليم ابدا ما بقي فيهم رمق . فعلى قدر ما بين الجيشين المغير والمدافع من التضاد والتباعد ، هذا يريد افناء الجسم وهذا يريد سلامته ، يشتد القتال أو يضعف ، والنصر بيد الله . قوله ، وقد يكون هذا البعد خلقة للمزاج الخ . يعني ان بعض الناس قد رزقهم الله اجساما صحيحة قوية قادرة على مقاومة الامراض المعدية من تلقاء نفسها ، وبعض الاجسام ليست من القوة والمنعة بذلك المكان ، فهذه تحتاج الى الاستعانة بالعلاج بالادوية والهواء الطيب والماء والشمس ، فيعوض عليها ذلك ما فقدته من القوة فى خلقتها . قوله ، يخرج عن سبيل الاستعداد الخ . لنا فى هذا الزمان امثلة توضح ذلك ، وهي معروفة عند الخاص والعام ، فمنها ، المصول الواقية من السل ووباء الكولرا والجدري وغيرها ، فذلك التدبير الاتي من علاج الاطباء يخرج الاجسام الملقحة بالمصل المضاد من الاستعداد لقبول المرض . ومن هذا القبيل ، الدواء الذي يشربه من تعتريه نوبات الصرع فلا يصرع ما دام يشرب ذلك الدواء ، الا أن هذا ليس فيه قوات مهاجمة وقوات مدافعة ، وانما هو مرض عصبي غير معد . قوله ، وهو جواب من رد العدوى الخ . يعني ان ما تقدم جواب لمن رد العدوى وزعم انه لا يوجد مرض معد اعتمادا على ان بعض المباشرين للمرضى المصابين بمرض معد ، لايصابون بذلك المرض . ولم يعلم هؤلاء ان الاصابة تكون على حسب الاستعداد ، فمن كان كثير الاستعداد اصيب لادنى مباشرة للمريض . ومن كان متوسط الاستعداد أصيب بعد طول المباشرة ، ومن كانت عنده مناعة ، وليس عنده شيء من الاستعداد طالت سلامته مع المباشرة ، فقد تستمر حتى يفترق مع المريض بموت المريض او غيره ، وقد يصاب بطول الزمان ، الا ان هذا الشخص الذي ليس عنده استعداد لقبول المرض يجب عليه ايضا ان لايخالط ذوي الامراض المعدية ، لان الامر كما يقال ، ليس فى كل مرة تسلم الجرة . ومن اكل السم مرة فلم يضره لا ينبغي له ان يخاطر بنفسه وياكله مرة اخرى . ومن صاول الاسد فتمكن من قتله لا ينبغي له ان يصاول الاسد مرة اخرى . ثم ضرب ابن الخطيب مثلا لذلك اجاد فيه كل الاجادة . وذلك انه شبه المخالطين للمرضى بالطاعون بالفتائل وجعلها على ثلاثة اقسام ، قسم قريب العهد بالاشتعال انطفأ منذ لحظة ولا تزال حرارة النار ودخانها فى رؤسه ، فهذا القسم يشتعل بادنى ملامسة للنار . وهو مثال لكثير الاستعداد . والقسم الثاني من الفتائل يابس ليس فيه بلل ، ولكنه ليس قريب عهد بالاشتعال ولا فيه حرارة ولا دخان ، فهذا القسم يبطيء اشتعاله شيئا ما ، ولكنه لا يلبث ان يشتعل . وهذا مثال للمخالطين للمرضى الذين عندهم شيء من المقاومة واستعدادهم لقبول المرض قليل . والقسم الثالث ، الفتائل المبتلة ، فهذا القسم يبطيء فى الاشتعال ويستعصي عليه ، ولكن بطول المعالجة وادناء النار منه يسمع له نشيش ، وهو صوت الفتيلة المبلولة اذا قربتها من النار ، ومع ذلك اذا طال اقترابها من النار يذهب بللها ثم تشتعل بعد حين ، وهذا مثال للمخالطين للمرضى العديمي الاستعداد الذين عندهم صحة قوية ومنعة وكثرة مقاومة ، الا انه لا يؤمن عليهم اذا طالت مخالطتهم للمرضى ان تضعف مقاومة اجسامهم فيصابون . وكم من مريض اعتمد على الادوية المقاومة المطهرة المبيدة للمكروب فتغلب المكروب على ادويته وسقط صريعا بمرض السل او غيره .

قوله ؛ حتى ان القرط الخ . يعني ان القرط ، وهو ما يعلق في شحمة الاذن للزينة من حلقة وغيرها نزع من امراة ماتت بالطاعون وعلق في اذن امراة سليمة فماتت هذه ايضا واعدت اهل بيتها فماتوا جميعا . قوله ؛ الى ان يحل بها في البحر من عدوى اخرى الخ . يعني انه كثيرا ما يكون اهل مدينة على شاطيء البحر سالمين من الوباء حتى يحل بتلك المدينة مسافر جاء في سفينة من بلد قد انتشر فيه الوباء ، فيعدي ذلك المسافر اهل تلك المدينة وينتشر فيهم الوباء انتشار النار في الهشيم . قوله ، ممن اغيا في التوحش كالزاهد بن ابي مدين الخ . معنى اغيا بلغ الغاية في التوحش اي الاستيحاش ، وهو البعد من الناس . وقد افادنا ابن الخطيب بذكر هذه الحكاية فوائد متعددة ، احداها صحية ، والثانية شرعية ، والثالثة تاريخية . فاما الصحية ، فهي ان هذا الرجل المغربي الذي كان يسمى الزاهد بن ابي مدين كان من العلماء ، وقد اختلف علماء المغاربة في العدوى في ذلك الزمان ، وهو اواسط القرن الثامن الهجري حين وقع الطاعون الذي افنى سبعة اعشار سكان الارض كما قال ابن الخطيب ، وكان الزاهد من العلماء الذين يفتون بالعدوى . وهو من سكان مدينة سلا ، مرسى على شاطيء البحر المحيط الاطلنطيقي بقرب الرباط . فلما خالفه بعض المفتين وافتوا الناس بعدم العدوى احضر من الطعام والمؤونة ما يكفيه مع اهل بيته وكان عددهم كثيرا ، لزمان طويل ، ثم بنى باب بيته وسد منافذه حتى لا يخالطه احد من سكان المدينة ، وبقي كذلك في سجنه الاختياري حتى ايقن ان الوباء قد ذهب . فلما فتح باب بيته وجد اهل المدينة قد افناهم الطاعون . اما هو واهل بيته فقد سلموا جميعا . واما الفائدة الشرعية والتاريخية فادراكهما من الحكاية سهل . قوله ، ولا اعجب لهذا من سجن الاسرى الخ . اشار الى ما جاء في التاريخ ان اربعة الاف من الاسرى المغاربة كانوا في يد الاسبانيين في اشبيلية بعد ما استردوها من ايدي المسلمين ، وكان المغاربة في ذلك الزمان اهل علم بالصناعات ، والاسبانيون جهالا لا يعلمون منها شيئا (انظر كتاب مدنية العرب في الاندلس لجوزف ما كيب وترجمته بالعربية لكاتب هذا المقال) ، فاستغل الاسبانيون الاسرى المغاربة وجعلوا سجنهم معملا صناعيا . ولا ولا يزال اسم مصنع الاسلحة باللغة الاسبانية والفرنسية والانكليزية (ارسنل) وهو تحريف لدار الصنعة . ومثال ذلك في هذا الزمان ، ان كوبا اسرت عددا كبيرا من الغزاة الذين تهم الولايات المتحدة حمايتهم فشرطت على الولايات المتحدة ان تدفع فداء لهم ما يساوي ملايين من نقد الدولار من الادوية والمصنوعات الامريكية التي تعجز كوبا عن صنعها . اخبر ابن الخطيب ، ان الاسرى المسلمين الذين كانوا مسجونين في دار الصنعة باشبيلية لا يخالطون الناس فلم يصبهم الطاعون ، مع ان اكثر سكان اشبيلية ماتوا به . قوله ، اهل العمود والرحالين في الغرب بافريقية الخ . اهل العمود ، هم البدو ، سكان الخيام ، والرحالون اعم منهم ، لان منهم من يبني اخصاصا من القصب في كل مكان يرحل اليه . والمراد بالغرب ، المغرب ، وافريقية ، هي تونس وما جاورها بشرقي الجزائر . قوله ، اعتراض الازارقة من الخوارج الخ . الازارقة ، فرقة من الخوارج يعتقدون ، ان كل من خالف عقيدتهم يجب قتله . شبه ابن الخطيب العلماء الدينيين الذين يفتون بعدم العدوى بالازارقة الذين يعملون سيوفهم فيمن يخالفهم . وهؤلاء الفقهاء يفتون الناس بعدم العدوى فلا يتحرزون من الامراض المعدية فيموتون ، فصارت فتاوى الفقهاء كسيوف الازارقة . واقبح من هؤلاء واكثر جرما من يشير على الناس بنقل المرضى الى الاضرحة التي يسمى المقبورون فيها بالاولياء ، فيتخذون مدافن الاموات مستشفيات ويطلبون الحياة من الموتى ، وكفى بذلك جهلا وكفرا وعمى بصائر . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . ولقد اخبرني احد تلامذتي في كلية الاداب ببغداد . ولا يزال حيا يرزق ، وهو من انجب تلامذتي ، اخبرني انه اصيب برمد فاخذه والداه الى الدكتور الهاشمي ، وهو من اشهر اطباء العيون في بغداد . فلما فحص عينيه ، قال لوالديه يجب ان تاتي به فورا الى المستشفى والا ذهب بصره . قال فرجع بي الى البيت ، فزارنا سيد ، والسيد في العراق هو المنتسب الى آل البيت ، فان كان شيعيا يلبس عمامة سوداء ، وان كان سنيا يلبس عمامة خضراء . وكثير من آل البيت في هذا الزمان لا يهتمون بذلك الزي ، لكن الذين يتعيشون بالانتساب الى آل النبي يلتزمونه ويتخذونه حبالة لابتزاز اموال الناس ، فيسيئون الى انفسهم والى آل البيت الذين رفع الله قدرهم عن تلك المهنة الخسيسة . قال الطالب ، فذكر والداي للسيد ما حل بي من الرمد وانهما يريدان ان يدخلاني مستشفى الدكتور الهاشمي ، فقال لهم السيد ، لا حاجة الى ذلك تاخذه الى مشهد الرضا ، وهو ضريح احد آل البيت من الاضرحة المقصودة . قال فاخذني والداي وصحبهما السيد الى المشهد المذكور ، وشد السيد عيني بخرقة ربط طرفيها في قفاي ربطا محكما ، وبقيت كذلك في

المشهد اربعين يوما . وبعد تمام الاربعين جاء السيد وقال لوالدي الآن ثريان البرهان . خاب وخسر من لا يصدق بكرامات آل محمد . وحل الرباط عن عيني وقال لي (تشوف) فاخذني الخوف ، وقلت : نعم ، فكبر وصاح صيحة عظيمة وقال ، انا ابن فاطمة ؟ قال، فحملوني ورجعنا الى بيتنا ، فلما ذهب السيد يحمل الهدية التي اعطاه والدي سالتني والدتي ، كيف تجد بصرك يا بني ؟ فقلت اعمى تماما لا اميز بين الليل والنهار ، فقالت ، ولم قلت فى المشهد انك تبصر ،فقلت خوفا من السيد . فاخذني والداي الى الدكتور الهاشمي فلما فحص عيني قال ، آه ، جئتم متاخرين . اما قلت لكما بادرا بالاتيان به الى المستشفى ؟ . والآن احسن الله عزاءكما فى بصره . ليس له علاج . فيا اسفي على هذا الشاب المسكين ، درس فى الجامعة سنتين مبصرا وسنتين كفيفا . ولا يزال كفيفا معلما فى ثانوية بمدينة كركوك فى شمال العراق .

قوله ، فسالت عن شيا اقلامهم من النفوس الخ . هو جمع شباه ، وهي راس السنان ، اي الرمح الذي يطعن به . قال الفرزدق فى قصته مع الذئب :

ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى
رماك بسهم او شباه سنان

معناه ايها الذئب جئتني زائرا فى الليل عند ما رايت ناري فقاسمتك عشائي واطعمتك لحما ، حملني على ذلك الكرم العربي . ولو نبهت غيري تطلب منه الضيافة لرماك بسهم من قوسه او براس رمحه فقتلك.

(يتبع)

مكناس : تقي الدين الهلالي



الأوقاف في العالم الإسلامي

للأستاذ : عبد العزيز بنعبد الله

تتسم الاوقاف فى المغرب باهمية كبرى نظرا للدور الاجتماعي الخطير الذي ينتظر منها القيام به علاوة على مهمتها الدينيــة .

وقد عرفت الاوقاف فى العالم الاسلامي ازدهارا خاصـا ، ولعبت فى مختلف العصور دورا اجتماعيـا واقتصاديا وثقافيـا كان له اثره فى تكييف الاجهزة المسؤولـة فى الدولة ، وتخفيف الوطأة الى حد بعيـد على الميزانيـة العموميـة .

ولن اتحـدث فى هذه العجالة عن ماهية الوقف وتعريفاته القانونيـة واطاره الشرعـي وما أثيـر حول ذلك من خلافات تنـد احيانا عـن روح الموضوع واهـداف المشروع التي هي اهـداف انسانيـة فى ذرائعهـــا وغاياتهـا . وانما اريد أن أرسم لوحة مصغـرة عن المظاهر التي اتسمت بها هذه المؤسســة فى مختلف الاعصـار والامصار الاسلاميـة .

لقد تذرع المغاربة منذ انبثاق فجر الاسلام بهذه البلاد ـ بشتى الوسـائل لتركيـز الفكـرة الاسلاميـة وتحقيق ازدهار للمسلمين فى آن واحد بواسطة «رباع» توقف على المؤسسـات الدينية والاجتماعية وقد ساهم الملوك والشعب فى هذه الحملة الدينية الاسعافية التي كانت تتخذ مختلف المظاهـر لتحقيـق غاياتهـا ، واذا راجعنا دفاتر الاحصاء الحبسية لاحظنا أن الاوقـاف كانت تتوفر فى جميع انحاء القطر على احسن الاراضي والعقارات وحتى على السوائم الحية فى الجبل عـلاوة على الغراسات الثرية وقد وقع تفويت جانب كبير من الاراضي الخصبـة الشاسعة والاملاك المختلفة فى ابـان الحماية ولا تـزال صكوك تحبيسهـا موجودة الى الآن

وقد تبلور الاتجاه الحبسي على الخصوص منـذ عهد المرينيين حيث اقام ابو يوسـف المارستانـات للغرباء والمجانين واجرى عليها النفقات وخصص لها الاطباء وبنى المدارس ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والعلم واجرى لهم المرتبات فى كل شهر وبنى الزوايا فى الفلوات واوقف لها الاوقاف الكثيرة لاطعام عابـري سبيل وذوي الحاجات « الذخيرة السنية ص 100 » ، وسار الملوك بعد ذلك على منوال حثيث فى هذه الطريق الجديدة حتى انشا ابو الحسن فى كـل بلـد من بلـد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسـط (الجزائـر) مدرسة فقامت مؤسسـاته الاجتماعية فى تازا ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وانفا (الدار البيضاء الحاليـة)

وازمور وآسفي وأغمات ومراكش والقصر الكبير وتلمسان وعاصمة الجزائر (المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق ص 35 مجلة هسبريس عام 1925) .

ولم تكن اية مدينة من المدن لتخلو من عائلات خصصت قسطا من املاكها للاسعاف الاجتماعي وهي الاوقاف المعينة على الخبز مثلا الذي كان يوزع اسبوعيا او يوميا حسب اهمية الارباع هذا علاوة على الاوقاف الخاصة بالمساجد والمرستانات ومعاهد التعليم التي كان يتعيش منها عدد كبير من المستخدمين زيادة على رواتب العلماء والطلبة .

واذا اعتبرنا ان كل مدينة مغربية كانت تتوفر في كل حي من احيائها على عدة مساجد باوقافها لمسنا ضخامة الثورة الحبسية في المغرب ويكفي ان نعلم ان في فاس وحدها احصى في زمن المنصور ومحمد الناصر الموحديين (❊) 785 مسجد او 42 دار للوضوء و80 سقاية عمومية و 43 حماما » (زهرة الآس ص 33) وكلها حبسية .

وكانت في المغرب اوقاف من نوع خاص (❊) كالتي تصرف على الزوجين الفقيرين بايوائهما مجانا في منزل مؤثث ابان الزفاف وكالتي تنفق في تجهيز العروس المعوزة واوقاف الاواني المكسرة وتعهد وتغذية الحيوانات والطيور (كدية البراطيل بفاس) وذلك بالاضافة الى تاسيس الاسوار والقناطر والقنوات والسهر عليها والشبه هنا ملحوظ بين المغرب والشام حيث توجد نفس الانواع من الاوقاف (❊)

ويمتاز المغرب ومصر بصندوق حبسي للقرض بدون فائدة وكان موجودا بفاس

واهم ما يسترعي نظرنا في هذا الهيكل المحكم ، هو ان الوقف لم يتخلف تقريبا في اقليم من الاقاليم التي غزاها الاسلام ، بمبادئه السامية ، وتشريعاته المثالية ، فحتى في اقصى بخارى والتركستان تفرعت الهيئات الحبسية ، وتضخمت مواردها طوال قرون الى ان انهزم التتر فاغتصب الروس هذه الاموال واستمرت الحال على هذا المنوال الى ان قرر الحزب الشيوعي عام 1921 تاميم الاوقاف باستثناء ما يمس المساجد وتسليم الاراضي الحبسية الى الفلاح المسلم وغير المسلم ، وتحظير كل وقف جديد

وفي الافغان امم الامير عبد الرحمن الذي توفي اوائل القرن الميلادي الحالي قسطا كبيرا من الاوقاف وادرجها في ميزانية الدولة ، وأصبح الائمة والمؤذنون يحتسبون اعمالهم لله بدون مقابل ، الا اكتتابات المصلين ، وتساهم الحكومة والبلديات في تعهد المساجد

اما في اندونيسيا فانها تمتاز بظاهرتين اثنتين : اولا : قلة الاوقاف العقارية نظرا لانعدام الملكية الفردية في معظم النواحي ، وشيوع ملكية الجماعة او القرية ، بحيث لا يملك الافراد حق التوقيف . ثانيا : لا توجد ادارة مركزية للاوقاف .

❊ وذكر ابو القاضي في الجذوة ان مساجد فاس كانت قبل اليوم 785 واما اليوم (عصر المنصور السعدي) فلا تحصى كثرة وعدد حماماتها قبل اليوم 93 واما اليوم فلا عدد لها (ص 28)

❊ وكانت هنالك احباس من نوع خاص في كل من المغرب والاندلس فقد ذكر صاحب نشر المثاني ان من احباس جامع الاندلس قراءة التفسير بالفخر الرازي (ج 1 ص 20) وان كراس العلم في التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسي والرسالة ونظم ابن زكري لها احباس (ج 1 ص 38) ومن احباس فاس استيفاء ابن حجر على الصحيح في التدريس (نيل الابتهاج ص 169) وكان بعض العلماء لا ياكلون من مال الاحباس مثل سيدي عبد القادر الفاسي (السلوة ج 1 ص 310)

❊ ذكر صاحب جذوة الاقتباس ان كثيرا من اوقاف المساجد ادخلها اهل فاس في منافعهم وحسبوها من اموالهم ايام ابن تاشفين فرفعت القضية الى القاضي عبد الحق بن معيشة الغرناطي فتوجه الطلب على النظراء والوكلاء في ذلك ومحاسبتهم فابرزت المحاسبة 80 000 دينار (ص 42) وورد ان الاحباس احتفظت بادارتها المستقلة الى عهد مولاي عبد الرحمن الذي قرر ضمها الى دوائر المخزن والغى النظار الخصوصيين للمساجد والاضرحة وعوضهم في كل مدينة بناظرين يعينهما السلطان ، وقد حاز مولاي حفيظ عند ما بويع بمراكش خمسين الف فرنك من احباس هذه المدينة .

وفى الباكستان تكثر الاوقاف خاصة فى القسم الشرقي الذي هو البنغال ، حيث يشرف رجال الافتاء على الاوقاف باعانة لجنة يشارك فيها مندوب عن الحكومة اذا كان الوقف مهما . ورجال الدين مستقلون عن السلطات العمومية ولا توجد اية هيئة مركزية تنسق المسائل الدينية والواقع ان دولة الباكستان الفتية ما زالت فى طور الاختمار والاصلاح فقد اصدر المجلس التشريعي فى البنجاب ، اوائل 1952 قانونا ينص على صرف ريع الاوقاف (لصالح التقدم والصحة وضمان انفاق موارد الاحباس فيما وضعت لاجله) .

وفى اليمن يرجع امر الوقف لبيت المال الذي يتحمل نفقات المؤسسات الدينية ، اما الاوقاف المعينة للاضرحة ، فان عليها نظارا خصوصيين يعينهم الامام ويسمون « نظار التراب »

وفى يوغوسلافيا كانت الاوقاف خاضعة منذ الاحتلال النمسوي اي عام 1884 الى ادارة تتركب من مسيرين عن الحكومة ، ولجان استشارية ، وكانت الموارد تنفق بالاخص على المعاهد الدينية . على ان انقلابات شتى طرات فى العقود الاخيرة الى ان صدر فى 5 نوفمبر 1936 – دستور الجامعة الاسلامية – بيوغوسلافيا الذي ضمن للجالية المسلمة فى البلاد استقلالا دينيا يكاد يكون تاما داخل البلاد وخارجها ، فاصبحت هذه الجامعة منذ ذاك تتصرف فى الاوقاف لها ميزانيتها المستقلة وادارتها الخاصة .

والى الاحتلال الالماني عام 1941 كان هنالك مجلسان اقليميان يتركبان من ممثلين جهويين ، ينتخبون لاربع سنوات من طرف جميع المسلمين الذكور البالغين ، ويجتمع هذان المجلسان مرتين فى السنة للمصادقة على الميزانية ، وعلى القرارات الخاصة بالاوقاف ، وينتخب كل مجلس لجنته التنفيذية والادارية وفى كل اقليم وكل قرية تسير شؤون الوقف مجالس ينتخب اعضاؤها لاربع سنوات . وريع الاوقاف هام فى يوغوسلافيا ، لان معظم المدارس الاسلامية تتعيش منه . وفى عهد تيتو سارت لجان شعبية خاصة تتعهد المساجد . ولجنة العاصمة هي التي قامت بترميم مسجد بلغراد الذي تضرر من الغارات الالمانية

وفى المملكة العربية السعودية لا توجد ادارة للوقف الا فى الحجاز حيث تشرف ادارة عامة على شؤون الوقف ، وتصرف ريعه على المساجد ، وعلى الائمة والمؤذنين الذين تعينهم الادارة المذكورة باقتراح من قاضي القضاة . وهذه الادارة التي لها فروع فى جدة والمدينة والطائف يوجد مركزها بمكة وتتمتع باستقلال مالي ويمنحها الملك اعانة خاصة عند الاحتياج . وهنالك نظار للاوقاف المعينة كما في المغرب . كما تتشابه فى البلدين مسطرة كراء الاملاك الحبسية حيث يوجب القانون المزاد العلني ويحصر المدة فى ثلاث سنوات على الاكثر – يمكن تجديد هذه المدة فى المغرب لست ثم تسع – .

وفى تركيا الغت الجمهورية الوقف المعين وفرضت مراقبة دقيقة على الوقف العمومي الذي ارتبط مصيره بالشؤون الدينية وفى عام 1924 صدر قانون انشئت بموجبه وزارة للشؤون الثقافية تابعة لرئاسة الحكومة يشرف المسؤول فيها على المساجد والمعاهد الدينية كما الغى نفس القانون وزارة الاوقاف واحدث ادارة عامة مهمتها تنظيم الاوقاف بصورة تتلاءم مع المصلحة الحقيقية للامة .

وفى مصر (※) كانت نظارات الاوقاف مبعثرة الى ان وحدها محمد علي تحت اشراف ادارة عامة ولكن الاصلاح لم ينجح الى ان اعاد الكرة الخديوي عباس الاول الذي قصر اختصاصات الادارة المذكورة على مراقبة سير النظار واستعزال القاضي لكل من ثبت عليه اهمال او رشوة منهم . وقد اسس الخديوي اسماعيل وزارة الاوقاف وعوضها الخديوي توفيق بادارة عامة تخضع للسلطان مباشرة وذلك مخافة تدخل انجليزي فى شؤون الوقف اذ ظل تابعا للحكومة

※) كانت ثلاثة ارباع الاراضي الزراعية فى تركيا العثمانية كلها فى ملك الاوقاف وتدل الاحصائيات المصرية لعام 1935 على ان سبع الفدادين المزروعة فى ملك الاحباس وبلغت المحبسات الجديدة ما بين سنتي 1930 و 1935 نحو الخمسمائة و 8 000 هكتار من الارض وكان عدد المتمتعين بارباع الاوقاف 70 000 نسمة وقد بلغت ميزانية الاوقاف عام 1934 و 1935 (وهي فترة الازمة الاقتصادية) 1 570 000 جنيه ووصلت مداخيل وقف الاسرة المالكة الى مليون جنيه وقد الغي الوقف المعين او الخاص فى سوريا عام 1949 وفى مصر عام 1952 فى حين ضوعفت مراقبة الاوقاف العمومية نظرا لرسالتها الاجتماعية .

إبان الاحتلال . وقد اعيد نظام وزارة الاوقاف عام 1946 كما اصبح المجلس الاعلى للاوقاف – متركبا من وزير الاوقاف كرئيس وشيخ جامع الازهر ووزير الاشغال العمومية ووزير الصحة ووزير المالية ورئيس لجنة النزاعات التابعة للدولة ونائب كاتب الدولة في وزارة الاوقاف ومفتي مصر . وهذا المجلس هو الذي يتكفل بتحضير الميزانية وتقرير الاعتمادات والمصادقة على اعمال الترميم والبناء والتجديد والاقتناء والبيع والعقود التي تزيد قيمتها على 500 1 جنيه وللوزارة مصلحتان : في مكة والمدينة لمراقبة احباس الحرمين وقد بلغت مداخيل الاحباس المصرية 180 163 4 ومصاريفها 420 192 3 جنيه عام 1950 – في حين ان مداخيل الميزانية العامة ومصاريفها تبلغ 000 800 157 جنيه و 000 500 187 – وتتعهد الوزارة بعض المستشفيات وملاجىء العجزة والايتام حيث كانت تتبنى في القاهرة وحدها 600 يتيم كما تخول منحا لطلبة الازهر ومنذ عام 1943 اصبحت تقرض ذوي الحاجات بدون فائدة .

وفي سوريا تشرف على الوقف ثلاث هيئات ، هي الادارة العامة للاوقاف ومجالس منتخبة خاصة في المحافظات والنواحي والمجلس الاسلامي الاعلى الذي يوجد مركزه في العاصمة . اما مجالس المحافظات فانها تتركب من ستة اعضاء فيهم عالم وتاجر وملاك ومتمول ومهندس وخبير فني ومحام وكلهم منتخبون وقد بلغت ميزانية عام 1949 ، 000 100 2 جنيه سوري وقد منحت الدولة للاوقاف في نفس السنة 000 544 جنيه .

وفي لبنان يوجد وضع خاص نظرا لتشعب الملل والنحل هناك . ولكن حكومة لبنان اقتبست عام 1947 من النظام المصري .

وفي الاردن تاسست عام 1946 ادارة مركزية للاوقاف مستقلة عن الهيئة المركزية للشؤون الدينية ، وهي تابعة لرئاسة الوزارة ، وتتركب من مجلس اعلى ، ومدير عام ومراقب عام للحسابات وامين وموظفين ولجن محلية .

وفي العراق كذلك تشرف على الاوقاف هيئة يراسها مدير عام ويعينه مفتش عام مكلف بالشؤون المادية والادارية ، الا ان لجان هذه الادارة العامة المنظمة للاوقاف ، تتركب من مديرين محليين في 14 ولاية ومامورين للاوقاف . وللاوقاف ميزانية خاصة يصادق عليها البرلمان مثل الميزانية العامة .

وقد بلغت ميزانية الاوقاف 000 472 دينار عام 1951 بينما بلغت الميزانية العامة 25 مليون دينار .

وفي ايران توجد بوزارة المعارف ، ادارة عامة للاوقاف ، وفي الاقاليم والولايات مديرون وتندرج ميزانية الاوقاف في ميزانية المعارف العمومية ، ويراقبها المفتشون العامون التابعون لهذه الوزارة

اما في المغرب العربي ، فان الانظمة تتسم كذلك بطوابع خاصة ، ففي طرابلس توجد ادارتان جهويتان للاوقاف ، وفي كلا الاقليمين مجلس يتركب من رئيس وثلاثة مستشارين ، ومدير ، تعينهم السلطات الحكومية بعد استشارة القاضي وتتصرف هذه المجالس في شؤون الاحباس تحت مراقبة المحاكم الشرعية ، ولكل مجلس ميزانية مستقلة ، تصادق عليها الحكومة وتراقب تنفيذها مصالح المالية الحكومية

وفي الجزائر (الشمالية على الاخص) ادمجت الاملاك الحبسية ضمن املاك الدولة بعد الاحتلال واصبحت الدولة الفرنسية تعتبر نفسها المحط النهائي الذي ترجع اليه الاوقاف المعينة بعد اندراس المعقب عليهم . ورغم ما تقرر عام 1947 من فصل الشؤون الدينية عن شؤون الدولة ، فانه لم يحدث اي جديد في الموضوع

وتولي الحكومة بعد الاستقلال عناية خاصة بالاوقاف حيث اسست وزارة للاهتمام بشؤونها .

وفي تونس ادمجت الاوقاف في ميزانية الدولة بعد اعلان الاستقلال وكانت ادارة الاحباس تتركب من مجلس اداري وادارة مركزية ، وادارة محلية ومتصرفين في الاوقاف . والكل يخضع لمراقبة المجلس الاعلى للاحباس

وكان يشرف على الادارة الحبسية منذ 1944 رئيس المجلس الاداري ، الذي يعينه نائبان ، احدهما يسير المصالح الادارية والآخر المصالح المالية وينقسم الجميع الى عدة مكاتب مثل المكتب العقاري ، ومكتب النزاعات ، ومكتب التسيير ، ومكتب الزياتين ، ومكتب الاحباس المعينة ، ومكاتب الحسابات والميزانية، والاحصاء والتوزيع والاصلاحات والترميمات

وكانت الادارة المحلية تحتوي على 14 مفتشا او نائبا يمسكون سجلات الاملاك الحبسية .

ومن هذه العجالة ، تتضح الاهمية القصوى ، التي تتسم بها الاوقاف في مختلف مناحي العالم الاسلامي .

الرباط : عبد العزيز بنعبد الله

سلاحنا في المعركة

للأستاذ عبد السلام الهراس

اننا نعيش معركة خطيرة احببنا أم كرهنا وان العصر الذي كان يمكن للامم ان تنعزل بنفسها وان تقرر غلق حدودها عليها دون الخارج قد انقضى ؛ فالحضارة الجديدة التي قربت المسافات الشاسعة وجعلت الكرة الارضية متقاربة الاجزاء متصلة الافكار والعقول والاذواق والعادات والاخلاق قضت على كل محاولة للانفصال عن الجيران والاباعد ، ومعنى ذلك اننا نعيش فى عالم جديد ، ولهذا العالم الجديد اتجاهات متباينة ، وقوى متضاربة ، كل واحدة تريد السيطرة ، وهذه السيطرة لم تعد ممكنة عن طريق السلاح ؛ فلقد اثبتت تجربة السويس وكوبا فشل هذا الطريق وبقي طريق آخر هو الوسيلة الناجعة للسيطرة : الفكرة ، لذلك نجد الدول العظمى ترصد ميزانيات ضخمة للتسلل الثقافي وللغزو الفكري ، فعند ما نسمع بأن روسيا او امريكا مثلا قد اقامت مدرسة او جامعة او مكتبة فى بلد ما ، فاننا نفهم من ذلك انها اقامت قاعدة عدوانية من طراز العصر ، ولهذه الدول الكبيرة الوسائل المادية والادبية للغزو الثقافي وللغارة الفكرية، وبهذه الوسيلة استطاع الاستعمار أن يحقق اهدافا عظيمة فى البلاد الاسلامية .

والذي يهمنا اولا وبالذات أن نشعر باننا نعيش فى قلب هذه المعركة ، او بعبارة اصح يجب ان تؤمن بان هذه المعركة هي ضدنا ومن اجل السيطرة علينا فنحن طرف فيها ، وما دمنا كذلك ؟ ينبغي ان ندرك حقيقتها ونحدد طبيعتها ، لان الشعور بذلك يبعث على الاستعداد المناسب للدفاع والهجوم ، فالدنيا صراع وانما توخذ الدنيا غلابا ، وسلاح اي امة فى هذه المعركة التي تخوضها هو : الافكار والرجال .

فما سلاحنا نحن فى هذه المعركة وماذا جندنا لها من رجال وافكار ؟

يجب ان نعترف بادىء ذي بدء اننا معتدى علينا، فلسنا فى دور الهجوم ، بل فى دور الدفاع ، فهل نقوم نحن بهذا الدور ؟ الواقع ، اننا دافعنا دفاع الابطال عن كياننا السياسي ، فلما كف الله ايدي الاعداء عنا توهمنا ان المعركة انتهت ، وهي فى الواقع ، لا تزداد الا حدة واشتدادا ونتيجة لذلك التوهم استسلمنا للدعة والتمتع ، وتركنا حصوننا التي كنا نعتمد عليها فى المعركة تتساقط فى ايدي الاعداء : اي تركنا اجيالا من شبابنا يضيعون فى غبار المعركة فيصطادهم العدو واحدا واحدا ، ليحولهم فيالق ضد امتهم ، وهكذا ، نجد شبابا بل رجالا يجهلون عن دينهم كل شي ويعرفون عن غير دينهم كثيرا من الاشياء ، وان كانوا قد لقنوا نظريات ومطاعن عديدة تقدح فى دينهم وتشوه نظرتهم اليه وتمسخ حقائقه فى ادمغتهم وتبشع صورته فى عيونهم فيتشؤون على معاداته ، ويتمون على التنصل منه وتتركب فى انفسهم عقدة النقص : يخجلون ان يحملوا اسم مسلم حتى اذا وسم احدهم بهذا العار فى بلد اجنبي صب جام حقده على الاسلام مع الحاقدين وفى الحين تراه يعلن استنكاره لتعدد الزوجات فى الاسلام واستبشاعه للطلاق واستهزاءه من نظام الزكاة، واستخفافه بالصلاة واستقباحه لقطع اليد فى السرقة، وعن همجية رجم الزاني ، وحد شارب الخمر ، وهكذا، بالنسبة لتعاليم الاسلام الاخرى فان اتصل به من يفهم الاسلام وشرح له حقائقه واطلعه على حكمة قوانينه وفلسفة تشريعاته وعباداته اذهله الامر ، وظن انك تخترع له دينا جديدا ما سمعه قط من كهان ثقافته واساتذته ، وقد يرد عليك بعضهم بابتسامة صفراء يختلط فيها الخبث والجهل بالاستهزاء .. والشباب من هذا النوع كثير ، تزداد كثرته مع مرور الايام كما يزداد جهله بالاسلام باطراد نموه ، وهكذا تسقط حصون

كثيرة في يد اعداء الاسلام لانها لم تجد من يدافع عنها ويذود عن حياضها او بعبارة صريحة لم يجد هؤلاء الشباب من يعلمهم الاسلام ، فتلقفته يد الكفر وشحنت عقولهم بالسموم وبذلك تمكن من قلبهم عداء للاسلام ، واصبح هذا العداء يكون من ثقافتهم وسلوكهم جانبا مهما ، ومنذ ايام التقيت بشاب ممن شعر بالخطر يحدق به وباخوانه في الداخل والخارج ، فما ان سألته عن موقف وسطه الذي يعيش فيه من عقيدة الاسلام ، حتى انفجر في وجهي قائلا : أؤكد لك ، ان جماعات كثيرة اتصلت بها في الداخل والخارج فوجدتها قد قررت مصيرها بالنسبة لعقيدة الاسلام وهذا القرار حاسم ، وهو : التحلل من الدين بل اكثر من ذلك ، الهجوم عليه والاستهزاء به ، وزاد قائلا في حدة وغضب: ان هؤلاء الشباب سيخاصمون ادعياء الاسلام يوم القيامة لانهم اهملوهم ولم يكلفوا انفسهم تربيتهم او تهييء الاجواء الصالحة لهم ، مما جعلهم غرباء عن الاسلام .

وهذا الحصن او هذا الشاب لم يسقط في ايدي الاعداء بفضل تربية تلقاها عن ابويه البسيطين وهو صغير ، وهناك حصون اخرى لم تسقط بعد وان كانت تكاد تستنفد مقاومتها ، وهي بذلك في طريق الاذعان والاستسلام ، أعرف بعض هؤلاء ممن يدرسون في الخارج ، اما في الداخل فان نظرة تلقيها على الجو المحيط بشبابنا المتعلم ترتد اليك مثقلة بالتشاؤم من المستقبل لان الاسلام كتربية وثقافة وسلوك يكاد يفقد صلته بجيلنا الصاعد مما يجرده من كل حصانة ويتركه نهبا للاحتلال الفكري والثقافي ، مع ان كثيرا من شبابنا ـ ان لم اقل كلهم ـ فيه استعداد للخير والفهم ولكن يحتاج لمن ياخذ بيده لان التربية ونقل التراث عملية سلوكية تحتاج الى اتصال وقدوة ودرس وتأكيد وتلقين .

وبالصدفة ـ ان كانت في الحياة صدفة ـ قمت بالامس بتجربة بسيطة وارتجالية حيث مكنت اخا ذا ثقافة أجنبية محض ومن ام أجنبية واب مسلم ـ مكنته بكتاب الاخلاق في القرآن للمرحوم العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز ، والكتاب رسالة نال بها صاحبها درجة الدكتورة من السربون ومكتوبة باللغة الفرنسية طبعا ، ولم ادرك انني قمت بعمل جليل حتى التقيت بهذا الشاب ـ ذي وظيفة محترمة ـ بعد ايام حيث اقبل علي بحماس ، والح علي ان اهدي له الكتاب ، لانه اخذ بمجامع قلبه ، وعلمه من الاسلام ما لم يعلم كما انه روج الكتاب بين بعض اخوانه .

عجيب .. كتاب كان عندي في زاوية مهملة اقدمه لشاب تربى تربية غربية يحدث في نفسه هذا الاثر كله، ماذا كان يحدث في اوساط هؤلاء الشباب لو كانت قيادة اسلامية واعية مؤمنة تتصدى للدعوة الى الله دون وجل ولا نفاق ، ودون طمع ولا التواء ، مخلصة الدين كله لله ، ارايت لو كان لنا ذلك ؟ اي مصير عظيم كان سيكون لهذه الامة ؟ واي مجد كنا نستطيع بناءه بهم ؟ .

واذا كان الذين يتربون في اجواء اجنبية في خطر ويعتبرون قلاعا محتلة فما ذا بقي لنا من شبابنا فلنول اذن وجهنا شطر المعاهد الاسلامية نلتمس عندها املنا فهل حقا وصراحة يوجد هناك املنا ؟ وهل ستنطلق منها تلك الجموع الحاملة لمشعل الحضارة الاسلامية والداعية لرسالة الاسلام ؟ .

ان الحق يفرض علينا ان نكون اكثر صراحة وجراة ويجعلنا نصرح بان اغلب اولئك الشباب بعيدون عن الفكرة الاسلامية السليمة وعن التفكير الاسلامي الحي ، وبالتالي عن الرسالة الاسلامية بل اني ازعم اكثر من ذلك ـ وانا اتكلم عن خبرة عشتها ـ

ان الذين ناصبوا الاسلام العداء وجاهروا بالقذف في تعاليمه جلهم ممن تربوا في احضان تلك المعاهد ، وخصوصا اولئك المرضى بحب الظهور الذين يتخذون (المخالفة) وسيلة لذلك ، فتراهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويتاولون في الدين ليفسدوه، فالذين قالوا ان الاسلام ليس دين حكم والفوا في ذلك واستدلوا بنصوص حرفوها هم من تلك المعاهد ، بل ان مواقف بعض المؤسسات في العالم الاسلامي لم يكن موقفها من الدعوة الاسلامية الحقة مشرفا ، فلو ان هذه المعاهد المنبثة في ارجاء العالم الاسلامي كانت سليمة المنهج والعمل لاخرجت قيادات حضارية تمدن العالم بهذا الدين (*) ، ولقد تنبه الازهر الشريف لهذا

* لا ننكر ان هذه المؤسسات اخرجت لنا علماء وافاضل نعتز بهم الا ان كلامنا ينصب على الاحوال الراهنة ويمس بعض الماضي القريب .

الخلل وهو الآن يحاول اصلاحه لكي يخرج للامة الاسلامية رجالها المحتاجة اليهم .

ان المؤسسات الدينية في العالم الغربي تخرج كثيرا من الفدائيين الذين يجوبون اقطار افريقيا وآسيا وغيرهما من اجل الدعوة الى دينهم ، وبهذا استطاعوا ان يؤسسوا جمهوريات مسيحية بجانب البلاد الاسلامية بافريقيا .

وان مما يؤسف له ان لدينا خامات عظيمة وطاقات شديدة ولكن كل ذلك يضيع اذا لم نحاول استغلالها وتوجيهها .

مما تقدم نستطيع ان نقدر هذا النوع من سلاحنا اي الشباب ، فنقول : تكاد تكون عزلا من هذا السلاح ، ولا يعني هذا اننا نعدمه وانما يعني « اننا » لا نبحث عنه وانما نسلمه لاعدائنا ليستخدموه في تخريبنا ، او على الاقل نجعله عديم الجدوى بالنسبة الينا ، وما حظ امة من النجاح ان لم يكن لها شباب يتوقد غيرة وحماسة ونشاطا في سبيل بنائها ؟

وبعد فان سلاحنا في المعركة ـ كما قلنا ـ يتمثل في ناحيتين : الرجال والافكار وقد تكلمنا عن عنصر هام من رجالنا وقومناه بعض التقويم وفي مقال تال سنتحدث عن سلاحنا الثاني :

الافكار فالى اللقاء على صفحات هذه المجلة في المقال المذكور .

تطوان : عبد السلام الهراس



التوجيه الديني في التعليم المغربي

بقلم : الأستاذ الحسن السايح

تعود المتكلمون عن التعليم الاسلامي والديني فى المغرب ، ان يستهلوا هذا الموضوع بمقدمة طويلة عن تاريخ الاسلام فى المغرب ، وتاريخ هذا النوع من التعليم به ، وانا مع تقديري لمثل هذه المقدمات ارى انها تشغل المستمع او القارىء بالتاريخ وتبعده عن الواقع ، كما تشحن ذهنه بايحاءات ربما لا تتناسب وممكنات عصرنا وواقع وطننا .

ولهذا فلست اريد من هذا البحث ان يكون تاريخيا بقدر ما اردت ان يكون وصفا لواقع التعليم الديني فى المغرب ، واذا كانت الحاجة تدعو فى بعض الاحيان ان يكون هذا الموضوع فى حاجة الى مقدمة لتبرر ضرورة وجود التعليم الديني ، وتوضح ان القضية ليست بتقليد وانما هي استجابة لمتطلب شعبي يرتكز على اصول نفسية عميقة . ولذلك فقد شغل هذا التعليم المهتمين بالمغرب في كل وقت وحين .. اهتموا به فى العصور المتأخرة سواء قبل الاستقلال يوم طالب لتقويته الجميع لبث الحمية الوطنية ، وتقوية المناعة الذاتية لمقاومة الاستعمار ، او بعد الاستقلال يوم دافع عنه كثير من المومنين بالتعليم بحماس منقطع النظير .

والواقع ان عهد الاستقلال عرف احتداما ونقاشا فى هذا الموضوع : وهو دليل على ان المهتمين بالتعليم فى المغرب اخذوا ينظرون الى التعليم نظرة جدية لا تعرف العاطفة ، وانهم يريدون ان يعرفوا ضرورة كل شيء عن اقتناع .. لا عن اتباع ..

ولهذا كان من اللازم ان يتحدث المهتمون بالتعليم الديني عن التطورات التي دخلت لهذا القطاع من التعليم ، والاهداف التي يرغبون فى تحقيقها ، فهم ليسوا بجامدين ولكنهم مؤمنون ، ومؤمنون باصالة التعليم الاسلامي ، وهذا بحث متواضع من الابحاث التي تقدم فى هذا الموضوع .

ان التربية عملية ذهنية وجسمية ونفسية تجعل المواطن ، قادرا على كسب العيش الشريف فى هيئة اجتماعية هادفة الى الخير والجمال ، فهي اذا راجعة لذات الفرد ومصلحته وذات الجماعة ومصلحتها ، ولا يمكن الحصول على جماعة متقدمة دون تربية ، وكما يقول جيفرسون لا يمكن الحصول على جماعة متطورة وعلى ديمقراطية دون توفر شعب واع ، والتربية المنظمة ضرورية لكل امة متمدنة ، لانها وسيلة لتنظيم الحياة فيها ، والذلك يجب أن تكون مجسمة ومتفقة مع رغبات الامة ومناسبة لعصرها ولسائر الانظمة التربوية العامة فى كل البلاد المتمدنة ، وقد كان الاستعمار يحاول دائما ان يهون فى قيمة التربية والتعليم وان ينحرف اذا ربى واذا علم .

ولهذا فان الاستقلال كان هو الوسيلة الوحيدة للنهوض بالمستوى الثقافي الكامل للامة المغربية عن طريق تعليمها ، فاذا كان الاستعمار يحاول الغض من التعلم والثقافة المحلية ويوجهها توجيها منحرفا لصالحه، ومكونا لخليط من المدارس المختلفة التي ادت الى تكوين طبقات متصارعة ، فان الاستقلال اعطى فرصة لتفتح التعلم المحلي المساير لمصلحة البلاد ...

وبقطع النظر عن التربية الاولية العائلية التي تسهر عليها الاسرة المؤمنة ، فان توجيه التعلم اصبح اليوم فى كل البلاد المتمدنة مركزا فى وزارة خاصة

(تسمى وزارة التعليم) أو غيرها من الاسماء تسهر على تنمية عقلية الطفل ونفسيته بعد المرحلة الاولى من التربية العائلية ، اذ من الضروري ان تشترك العناية الاولى بالطفل لعائلته لان التربية المثالية لا يمكن أن يقوم بها غير الابوين ، ولا تمدنا المساعدة المدرسية الا بالقدر الادنى من تربيته الشخصية ، ومن المعلوم ان بناء الشخصية يبدأ في ظروف مبكرة قد تصل الى (الحمل) وتلعب المشاهدة دورها الاسمى في تكوين شخصية الفرد ، فالنموذج الاول هو الذي يظل مسيطرا على عقلية الطفل وتكوينه .

فمهمة الابناء في التربية الاولى عظيمة وذات مسؤولية كبرى ، وانا شخصيا اومن أن الاسرة هي المربية ، وأن التربية التي تصل الى الروح عن طريق الاذن والمشاهد اهم وارسخ من التي تصل عن طريق المعلم والكتاب ، لان (الاولى) تكون مهضومة وطبيعية ، و (الثانية) تكون عارضة ، والانطباعات التربوية التي يفطر عليها الطفل لا تمحيها امواج الايام، وما يحدث بعد تربية العائلة انما هو التطور في التربية، وذلك لابد من التعليم ، لان مبدا العائلة في التربية لا يمكن أن يعتمد عليه الى أبعد حد ، لانها تربي ولا تعلم في الغالب ، ولانها تختلف في بعض العائلات عن بعضها مما يؤدي الى تكوين طبقات مختلفة التربية ، ولانها لم تعد معتمدا عليها في بعض مناطق اخرى من العالم ، لذلك فقد وكل امر التربية حتى في الجزء الاول من حياة الطفل الى المؤسسات التعليمية التي بقيت في العالم الديمقراطي تتساند مع التربية العائلية في تكوين الفرد . .

وكان الاستعمار الذي احتل بلادنا من اكبر عوامل تفتت التربية الاسروية والخلق الوطني الذاتي والتشكيك في الفضائل الاخلاقية التي اكتسبها المغاربة على مر القرون .

وفعلا كافح المغاربة الاستعمار السياسي ، وهم يكافحون ضد الاستعمار الاقتصادي ، غير ان الاستعمار الفكري والخلقي سوف لا تتخلص منه الا باعداد جيل جديد ، واذا سوف لا نعتمد على التربية العائلية بقدر ما نعتمد على تربية المدرسة ، فما هو التعليم المنشود الذي نتوخاه من المدرسة المغربية ، ان الهدف الاسمى الذي كافح من اجله المغاربة هو تحقيق الحرية الاجتماعية التي ينتج عنها حرية التعليم ، ومعنى حرية التعليم كما يفهم من المنطق السليم الاجبارية والمساواة بين افراد الشعب في الأخذ بنصيب منه ، وواقعيته وملاءمته ، لان الامة (لتكون امة) يجب ان يكون جميع افرادها تلقوا تعليما مشتركا موحدا ، ليتعايشوا موحدين لهذا لابد من اجبارية التعليم ليعيش المواطنون في بلادهم احرارا يعرفون القانون الاجتماعي ويدافعون عن حقوقهم المشروعة ، وطبيعي ان الجميع متفق على تحديد حرية التعليم التي ليس معناها حرية المنهاج والبرامج وفتح المدارس بغير خضوع لنظام مشروع ، وانما يعني الحرية بالنسبة للفرد الذي يجب الا ينقص من حقه كما يجب ان ياخذ بتعليم لا ينزعه من وسطه .

فتجب اجبارية التعليم الابتدائي ثم الثانوي اذا توفرت الامكانيات ، وبالنسبة للمواطن الذي يريد ان يتابع دراسته ويتخصص في اي فرع من فروع المعرفة التي يريدها ، كما تجب ملاءمة البرامج لواقع الحياة ، اذ نحن نعني بالحرية الاجتماعية الحرية التي يجب ان تحد من الفرقة والاختلاف الشكلي نتيجة الجهل بالمبادىء الاساسية للمعرفة ، اذلك لابد من توحيد البرامج والمناهج وتشجيع التعليم الحر اذا لم تستطع الدولة في نطاق الوحدة والانسجام في الاساس الجذري الصحيح المساعد لبلاد فتية على تكوين اطرها وتوحيد تفكير اجيالها الصاعدة ليكون جيلها متحدا في عقله وروحه ، قويا في تفكيره وجسمه ، ذا قومية وطنية عميقة صادقة ، ولذلك لابد من مراعاة عناصر ضرورية في تكوين المغرب الجديد اولها ان ينشا جيل مسلم متفهم للاسلام ، عربي اللسان مغربي القومية ، متصل بتاريخه المجيد ، وواع لمشاكل عصره، وهادف الى رفع مستواه الاجتماعي والاقتصادي واداء رسالة انسانية كبرى وبالاخص في افريقيا المتوثبة ، والعالم الجديد المتعطش للسلام والتقدم . ولذلك لابد من الاعتماد على اللغة العربية والدين الاسلامي لتركيز اصالة المغربية مع السعي الى توحيد صفوف الامة عن طريق وحدة التعليم ومجانيته واجباريته في مرحلته الاولى وفعاليته حتى لا يكون مواطنين نظريين لا يساهمون في بناء البلاد فنيا ومهنيا وتقنيا فتظل عالة على الدول في تكوين الاطر ، ولهذا يجب ان يساير تعليمنا المقتضيات الاقتصادية حتى يتكامل معها في تكوين الاطر وسد الثغرات ، بل يكون موجها للحياة الاقتصادية وعاملا على رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي للامة كما يكون تعليما مكونا للمواطن

تكوينا عاما تثقيفيا متسعا ، وعندما نقول بتوجيه التعليم نعني جعله هادفا الى تكوين مواطن مؤمن بقوميته وصالحا ونشيطا ومسهما فى بناء كيان الوطن ولاجل ذلك لابد ان يكشف عن المعطيات ، والا يكون مستوردا من الخارج ، ولن يكون التوجيه الا على اساس تخطيط (يدرس الحاجات واجدرها بالسبق) يدرس الامكانيات الداخلية والخارجية ، ومتطلبات البلاد العاجلة والآجلة ومسايرة التطور الثقافي والعلمي العام والعمل على الاضطلاع بمسؤولية الثقافة وبالاخص الثقافة الاسلامية العربية التي ستكون ميدانا خصبا للتعرف على الفكر المغربي واداء رسالته العلمية والحضارية والانسانية . واذا فالضرورة اكيدة لتعلم اللغات الاجنبية بعد تعلم اللغة العربية التي هي اللغة الاصلية المكونة التفكير المحلي والتي لا تقوم الشخصية بدونها ، وكما يقول نيتشة :

اللغة تلازم الفرد فى حياته وتمتد الى اعماق كيانه وتبلغ اخفى رغباته وخطواته وهي الرباط الحقيقي الوحيد بين عالم الاجسام وعالم الاذهان .

ويقول ماليتوفكي ايضا : اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو للتوصيل ، بل وظيفة اللغة هي انها حلقة فى سلسلة النشاط الانساني المنظم ، انها جزء من السلوك الانساني ذاته ، انها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر .

ذلك لان اللغة ترتبط بالفكر ، ومن يفقد لسانه او يترجم بلغة اجنبية فهو يترجم غير أفكاره الدينية ، لان الثقافة الدينية الاسلامية هي مصدر حرارة وقوة ، لتنظيم مجتمعنا وصهر كل الافكار الصالحة فيه ولان الثقافة هي التربية الدينية الصالحة الضرورية لتنمية العقل والجسم والذوق فى كل مراحل العمر الانساني ، ونحن متفقون على ضرورة التوجيه الديني وانما نختلف فى الاسلوب والمنهاج .

وقد ظل التعليم فى المغرب فى عهد الاستقلال محتفظا بالتعليم الديني لان المشرفين عليه متفقون على وجوب احتفاظ التعليم بصبغته الروحية الدينية ولانهم يتفقون أن مبدأ العلمانية يضر ببناء التعليم وبالمجتمع المغربي لان علمانية المدرسة الغربية كانت نتيجة حتمية لعدة عوامل اهمها انها فى معظم هذه الدول رد فعل ضد الكنيسة منذ سنة 1882 فى عهد بول فري الذي نادى بلائكية التعليم ومجانيته واجباريته ، وقد سبق عمله بادرة سنة 1833 حسب قرار بلدي فرنسي ، ومنذ ذلك والتعليم الديني الفرنسي محدود الى عصر دكول حيث اصبح يتقاضى الاعانات فالحملة على التعليم الديني كانت ضد النظام الكنيسي المتحالف مع البرجوازيةضد حريات الشعوب، فاتخذ التعليم طريقة الحياد المدرسي ، اما فى المغرب والعالم الاسلامي فان الدين الاسلامي يعتبر موجها اجتماعيا خطيرا فلذلك يجب أن يدرس ليفهم ويكون عونا على التربية الصحيحة والفاضلة فتعليم الايديولوجيات اصبح ضروريا فى عصر الاشتراكيات لرعاية النموذج النفسي للمواطن ، غير اننا نتساءل دائما عما يراد بالتعليم الديني ، والذي اعتقده ان التربية الدينية والتعليم الديني يجب ان يخضع لمقتضيات التطور الداخلي للامة والتطور العصري الحديث ، ولذلك يجب تحوير برامج التعليم تحويرا عميقا لتصبح شديدة الفعالية ، وليتاتى ذلك يمكن ان تقسم المواد الى ثانوية واولية اساسية ، وتعتبر كل مادة واثرها فى التكوين العقلي والخلقي ، ثم الاكثار من المواد الاساسية والتخفيض فى المواد الثانوية ومراجعة المواد الملقنة حتى تعرض عرضا جديدا ملائما وهذه العملية ستساعد على اتقان عملية التربية بصفة رياضية معقولة كما تساعد من جهة اخرى على الاقتصاد فى مدة التعليم حتى لا يظل البرنامج مرهقا بمواد مكررة ويمكن اختزالها وبذلك يتحقق مبدا ءاخر من مبادىء التعليم وهو انتشاره واعطاء الفرص للجميع ، ولا شك ان الصفة العلمية والتربية الصادقة والتوجيه الفني يجب ان تكون فى المرتبة الاولى لنساير عصر الالة والذرة .

وقد اصبح من اللازم التخلص من الاسلوب التعليمي المبني على الافاق الضيقة ، فبهذا يجب الاتصال بمختلف الحضارات والثقافات عن طريقة دراسة اللغات الحية والآداب الاجنبية والتاريخ والجغرافية العامين ، سعيا لتحقيق التضامن البشري وفهم الاحداث المعاصرة .

ويجب ان نفهم دائما ان دراستنا يجب الا تنفصم عن ثقافتنا العربية وحضارتنا الاصلية الاسلامية فان تراثنا الحضاري وثقافتنا العربية الاسلامية يجب العمل على احيائها واعطائها محتوى جديدا عصريا وهي فى اصالتها لا تؤمن الا بالحرية الانسانية، وقد استطاعت ثقافتنا الاسلامية ان تخلق وتنمي فى الانسان ضميرا اجتماعيا حرا الف بين الناس مهما اختلفت الوانهم وعقائدهم دون ان يفسد ارادتهم الحرة لهذا فسيكون

مذهبنا التعليمي ملائما بين الذاتية وبين التطور ، لان المبدأ الاساسي الحر سيظل مخيما على علاقة الفرد المثقف بالمجتمع الحر الانساني المتدين ، ويرى (كونبي) وهو علم من أعلام التاريخ المعاصر ان الدين هو عماد المجتمعات التي عليها وفيها تقوم الحضارات ، بل سيطر على تفكيره التاريخي ضرورة وجود الروح الدينية مهما كانت مسيحية او اسلامية بوذية هندوسية لبناء الحضارة ، واذا فالمذهب هو في المحافظة على الاصول الاولى للثقافة المغربية والعمل على تكوين برنامج يطابق المتطلبات الاقليمية والواقع المغربي مع العناية بدراسة اللغات الاجنبية التي تفتح لنا باب التعارف وتبادل الثقافات ، وبذلك نسعى الى اعداد جيل مغربي متحد في عقله مهذبا في روحه ، مسلما في اسلامه ودينه عارفا بعصره .

والواقع ان التربية الروحية ضرورة لتكوين الشخصية شأنها شأن التربية الجسدية والعقلية ، وتهذيب الروح حسب التجارب التربوية قائم بذاته ، فيمكن تطوير الروح وتربيتها على حدة ، وتربية الروح انما تكون عن طريق معرفة الله والايمان بالشخصية الانسانية ، ولا شك أن كل تعليم يخلو من عنصر التربية الروحية فهو تعليم لا يفيد الانسانية والفرد ايضا ان لم يكن مؤذيا لهم .

وان كلمة التربية الروحية مشوشة ماذا يراد بهذه التربية ؟ انها تربية المحبة والخير والجمال والعزم والثقة في الروح الانسانية تربية مشاعة ، وهذا انما يتأتى بطريقة تلاوة النصوص الدينية وفهمها فهما صحيحا خاليا من الحرفية ، مع تدريب على ممارسة الطقوس الدينية التي هي الرياضة الروحية ، وكما ان العقل انما ينمو بالرياضيات بالمفهوم العلمي ، والجسد ينمو بالرياضة الجسدية والتمارين العضوية فكذلك التربية الروحية لابد لها من تدريبات وممارسة طقوس ، وهذا يتوقف على المعلم الصالح الذي يكون نموذجا صادقا ، وصدق المعلم وتغلبه على نفسه

وكبحه لشهواته هو التربية السرمدية التي تكون روح التلميذ ، ويركز التعلم الديني المغربي في (التعليم الاصلي) على انه يوجد بصفة عامة في كل انواع التعليم الاخرى كما سأذكر (والعناية بالتعليم الاصلي) او ما كان يسمى بالتعليم التقليدي أو الديني انشئت له مصلحة خاصة في وزارة التعليم في اول عهد الاستقلال وهذا دليل على مدى احتفاء المغاربة

بهذا النوع من التعليم ، وسعت هذه المصلحة في تحقيق عدة اصلاحات في هذا القطاع من التعليم كاخراج الاقسام الثانوية والعالية من المساجد ، واطراد نمو التلاميذ والطلبة وتحديد السن تحديدا منطقيا بالنسبة لها ، واصبحت لها ادارات كما اصبح لاساتذتها اطار رسمي واحدثت منح في شكل اعانات لتلاميذ الاطوار الاولى والثانوية ومنح لطلبة العالي ، وانتهى نظام الخبزة الذي كان معمولا به في المعاهد الدينية ثم عوض بالمنحة واصبحت مصاريفه من ميزانية وزارة التربية الوطنية بعد ان كانت بوزارة الاحباس ؛ والى جانب هذا انشئت معاهد اخرى في كل من سوس ووجدة والجديدة زيادة على المعاهد الكبرى في فاس ومراكش ومكناس وتطوان ، ومعاهد ثانوية كمعهد الشاون والحسيمة والناضور والقصر وطنجة .

اما البرامج فقد ادخلت عليها تغييرات جعلتها تشتمل على المواد الحديثة بما فيها اللغة الاجنبية الى جانب المواد الاسلامية ، واقتضى ذلك بالطبع احداث أماكن دراسية أو استغلال معسكرات وثكنات ، كما اقتضى الحال ايضا استقدام طائفة من الاساتذة الشرقيين ، وانشىء معهد للفتيات في كلية ابن يوسف بمراكش ، ومعهد للفتيات بالقرويين قبل ان تدخل الفتاة الى التعليم الازهري في مصر كما انشئت مدرسة المقرئين بفاس رغبة في تخريج معلمين قادرين على تجويد القرءان .

ثم وثب التعليم التقليدي وثبة اخرى سنة 1959 وحقق اصلاحات جديدة حيث ارتفعت حصص دراسة المادة الحديثة ونظمت داخليته واصبح يحمل اسم التعليم الاصلي بدلا من التعليم التقليدي ، ويشمل الاصلاح الجديد تغييرا جوهريا ادخل على هذا التعليم في مراحله كلها فشمل الاسلاك الثلاثة الابتدائي والثانوي ، والغاية الجوهرية التي يهدف اليها الاصلاح هي :

1 — الاحتفاظ للثقافة الاسلامية بقوتها ومتانتها وشمولها مع توزيع حصصها توزيعا منطقيا

2 — تحقيق فكرة التعريب في هذا النوع من التعليم .

3 — ادخال المادة الحديثة على منوال المعاهد المصرية معربة ، واعتبار اللغة الاجنبية ميدئيا لغة ثقافة لا لغة تلقين واصبحت حصص المادتين الاسلامية والحديثة تتوفر على الضروري من الساعات مع اعتبار كل من المادة الاسلامية والمادة الحديثة كمجموعة خام جزئت عناصرها حسب المستويات من الابتدائي الى الثانوي الاول ، ففي كليهما اعتبر الجزء الضروري للتكوين الابتدائي ، ثم اعتبر في الثانوي نوع من التكوين العام في كل من الثقافة الاسلامية ، بينما خصص السلك التوجيهي في كلتا المادتين للاعداد العالي ، وهذا التقسيم يقصد منه تمكين التلميذ في جميع الاسلاك من التكوين العام المنسق بحيث اذا انفصل بعد الحصول على الشهادة الابتدائية او الكفاءة يكون قد الم بما يمكنه من مواجهة الحياة حسب مستواه ، ويكون بذلك قد اخذ الحظ الواجب من جميع فروع الثقافة الانسانية كما هو معمول به في الدول السكونية ، ويهدف فحوى البرنامج والمنهاج الى :

1 — صون التراث العربي الاسلامي .

2 — وضمان تدريس المادة العلمية الحديثة معربة .

وقد قسم البرنامج الجديد مراحل التعليم الى (اسلاك ثلاثة) .

السلك الابتدائي :

يتضمن هذا السلك خمس سنوات بالنسبة للتلميذ البالغ عمره سبع سنوات ، وهذا السلك يحتوي على مرحلتين : (الاولى) الكتاب الذي هو عبارة عن فصول تحضيرية وابتدائية اولية ، (الثانية) الطور الحقيقي الموازي لما يوجد الآن في المعاهد الاسلامية ، والمادة الحديثة في هذا الطور تنوبها اثنى عشرة ساعة ، والباقي للمادتين العربية والاسلامية.

اما الثانوي فالسلك الاول منه تدرس فيه المواد الاسلامية والعربية على أن تركز تركيزا يتناسب مع مستوى التلميذ كما تعتمد المادة الحديثة على ما يستلزمه التكوين العام .

فالمادتان العربية والاسلامية يتوبهما نصف الحصة ، في حين ان المادة الحديثة باضافة التاريخ تنوبها نصف الحصة كذلك ، ويلاحظ في خصوص اللغة الاجنبية ان التلميذ يكون درس في الابتدائي ساعات اسبوعية خلال السنوات الثلاثة في السلك الاول من الثانوي بحيث لا يكاد يصل الى مستوى الكفاءة العربية حتى يكون قد حصل على معلومات وافية في اللغة الاجنبية ، وفائدة هذا السلك انه يضمن فيه التوازن بين مختلف المواد ، وهو علاوة على ضمان التكوين العام الضروري يعتبر مرحلة علمية تتعين فيها الاتجاهات وتتمحص فيها الميول استعدادا للشعب الشرعية أو العلمية او الادبية .

اما الثانوي الثاني فيستمر في تقوية التكوين العام سواء في الثقافة الاسلامية او في العلوم الحديثة او في اللغة الاجنبية ، والملاحظ في الشعبة الشرعية ان الرياضيات والعلوم خصصت لهما سبع ساعات ، كما خصصت خمس ساعات في اللغة الاجنبية ولكن توجه العناية باستمرار لتقوية التكوين العام في التوجيه خاصة نحو المادة العربية واصول الثقافة الاسلامية الضرورية في التخصص في شعبة الشريعة ، وفي شعبة الاداب وشعبة العلوم حيث تركز في الاولى الدراسة الادبية وفي الثانية الدراسة العلمية ، ووجهت عناية خاصة لشعبة العلوم وان كان يواصل فيها التكوين العام الاسلامي العربي بنسبة تعدو ثلث الحصص ، الا انه خصصت نفس العناية للغة الاجنبية التي هي اداة ضرورية كالعربية للتضلع في العلوم ، وافرد للرياضيات والعلوم وحدهما اكثر من ثلث الحصة ، وفرضت في السنوات الاولى للمرحلة الانتقالية على التلاميذ سنة توجيهية بين الثانوي والعالي واستمر العمل بنظام العالمية (الحرة) كما كان معمولا بذلك من قبل .

وفائدة الاحتفاظ بالعالمية انها كانت تكلل الجهود الفردية التي يبذلها طوال عدة سنوات فريق من الطلبة الذين فاتهم الركب لتقدمهم في السن ، نعم لقد حور نظام التعليم الابتدائي والثانوي ، اما العالي فقد ركز في جامعة القرويين . اذ أن التعليم العالي في القرويين كان يشمل فرعين للتخصص (أحدهما ادبي) والثاني شرعي ، (كان الاول) تستمر فيه الدراسة الادبية واللغوية والتاريخية ثلاث سنوات ، يمنح الطالب في السنة الاخيرة منها بعد اجتياز الامتحان شهادة العالمية (القسم الادبي) التي تخول له حق التعليم الثانوي أو العالي بعد تدريبه

وممارسته التعليم الثانوي ، وكان الثاني تستمر فيه الدراسات الدينية والشرعية والقضائية ثلاث سنوات ايضا يمنح الطالب في السنة الاخيرة منها بعد اجتياز الامتحان شهادة العالمية (القسم الشرعي) التي تخول له حق ولاية القضاء والتعليم الديني ايضا.

ومنذ اعلان الاستقلال والمحاولات تتجدد لتنظيم التعليم الاسلامي العالي وفي سنة 1960 انبثقت فكرة احداث كلية الشريعة بفاس ، لتعوض الفرع الشرعي للنهائي القديم حيث تندرج فيها المواد الدراسية التي تتلخص في مقومات الدراسة الاسلامية من اصول وخلاف عال ودراسة القرءان والحديث وروح التشريع والفلسفة الاسلامية وتاريخ الاديان وبعض المواد القانونية الدستورية والاقتصادية والسياسية والقانون المدني لاستكمال التكوين الدراسي العالي ، بحيث يكون المتخرج منها مسلحا بما لدى زميله المتخرج من كلية الحقوق .

وطبعا كانت كلية الشريعة تعوض النهائي الشرعي القديم ، اما الادبي فقد ظل منتظرا الفرصة المناسبة لتحقيق (فكرة تكوين كلية تعوض النهائي الادبي) تتخصص في دراسة علوم اللغة العربية وادابها اذ لا يجدر ببلد عربي كالمغرب ان تزدوج به كلية الاداب واللغة العربية .

واما كلية اصول الدين فقد دلت تجربة برنامج كلية الشريعة انه كثيف من حيث مواده ، لانه يشمل دراسة دينية وشرعية، لذلك كان من الواجب ان تؤسس كلية لدراسة اصول الدين ، تعتني بالفلسفة الاسلامية والجدل والمنطق والاخلاق وعلم النفس وتاريخ الاديان وبذلك يتاتى لهذه الكلية ان تتخصص في الدراسة الاسلامولوجية بينما تتكفل كلية الشريعة بالدراسة القضائية .

ولهذا فجامعة القرويين اشتملت على ثلاث كليات :

1 — كلية الشريعة .
2 — كلية اصول الدين
3 — كلية اللغة العربية .

الرباط : الحسن السائح



عقيدة القضاء والقدر

بقلم : الاستاذ عبد الله الجراري

ان للعقائد سلطانا على الاعمال البدنية — فما يكون في الاعمال من صلاح او فساد — فمرجعه فساد العقيدة وصلاحها — ورب عقيدة واحدة تاخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات اخرى ، ثم تظهر على البدن باعمال تلائم اثرها في النفس ، ورب اصل من اصول الخير ، وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس في تعليم او تبليغ مبدء يقع فيها الاشتباه على فهم السامع فيلتبس عليه بما ليس من قبيلها وتصادف عنده بعض الصفات الرديئة والاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه ، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف اثرها ، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطا في الفهم ، او على سوء الاستعداد فتنشا عنها اعمال غير صالحة ، والمغرور بالظواهر يظن ان تلك الاعمال انما نشات عن الاعتقاد بذلك الاصل ، ومن مثل هذا الانحراف في الفهم يقع التحريف والتبديل في بعض اصول الاديان غالبا بل هو علة البدع في كل دين ، وكثيرا ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشا لفساد الطباع ، وقبائح الاعمال حتى افضى ممن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير .

وهذا يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الاديان ، او عقيدة من العقائد الحق — استنادا الى اعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين او العقيدة .

فتلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من اصول العقائد في الديانة الاسلامية قد كثر فيها لغط المغفلين من الاجانب — كالافرنج — وظنوا بها الظنون ، وزعموا انها ما تمكنت من نفوس قوم الا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعة ، ورموا المسلمين بصفات حاصرين علتها في الاعتقاد بالقدر — فقالوا ان المسلمين في فقر وفاقة ، وتاخر في القوى الحربية والسياسية عن سائر الامم ، وقد نشا فيهم فساد الاخلاق — كالكذب والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم ، وجهلوا احوالهم الحاضرة والمستقبلة ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم وقنعوا بحياة ياكلون فيها ويشربون وينامون وكانهم من حظيرة عجماوات الحيوان يكدون في جهد ، ولا ينافسون غيرهم في فضيلة — ولكن رضوا بكل عارض واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون في زوايا بيوتهم ، يسرحون في مرعاهم ، ثم يعودون الى ماواهم — امراؤهم في المجموع يقطعون اوقاتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات — وعليهم حقوق وواجبات تستغرق في ادائها اعمارهم ، ولا يؤدون شيئا منها يصرفون اموالهم سرفا وتبذيرا حتى لا يدخل في حسابها شيء تعود على ملتهم بجدوى ومنفعة .

يتخاذلون ويتنافرون ويبيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخاصة — فتشملهم الخوف ، وعمهم الجبن والخور — وقعدوا عن الحركة وكل ما يلحق باممهم عزة ومضاء شوكة ، مخالفين تعاليم الدين الحنيف بل الدين تحت سلطتهم يتقدمون ويباهونهم بما يكسبون واذا اصاب قوما من اخوانهم مصيبة ، او عدت عليهم عادية لا تراهم يسعون في تخفيف مصابهم ، ولا ينبعثون لمناصرتهم وليست لهم جمعيات مليئة لا جهرية ولا سرية يكون من مقاصدها احياء الغيرة ، وتنبيه الحمية ومساعدة الضعفاء وحفظ الحق من بغي الاقوياء وتسليط الاجانب ، هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وزعموا ان لا منشا لها الا

اعتقادهم بالقضاء والقدر وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية ، وحكموا بان المسلمين لو داموا على هذه العقيدة – لن تقوم لهم قائمة ، ولن يعتزوا ولن يعيدوا مجدا وينالوا حقا وبالطبع يعجزون عن دفع الضيم والظلم ، ولا يزال بهم الضعف فاعلا افاعيله في نفوسهم راكسا من طباعهم حتى يقضي بهم في النهاية الى الفناء .

ويعتقد اولئك انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية – القائلين بان الانسان مجبور في جميع افعاله مايأتي منها وما يذر ، وتوهموا ان المسلمين بعقيدة القدر يرون انفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح ، كيف شاءت ، ومتى رسخ في نفوس قوم انه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وانما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة – فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب وما كان اجدرهم بعدها ان يحالوا من عالم الوجود الى عالم العدم .

هكذا ظنت طائفة من النصرانية وانتحل مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول – انه لظن كاذب وخطأ واهم وافتراء على الله والمسلمين – فقد لايوجد اليوم مسلم يدين بالحنفية السمحة سنيا كان او شيعيا او زيديا او وهابيا او خارجيا يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا في اعمالهم يدعى الكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند الجميع ، وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ومطالبون بامتثال الاوامر ، واجتناب جميع النواهي ، وان هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي وبه تتم الحكمة والعدل .

ومعلوم انه كان بين المسلمين طائفة تسمى الجبرية – ذهبت الى ان الانسان مضطر في جميع افعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار ، وزعمت ان لا فرق بين ان يحرك الشخص فكه للاكل والمضغ وبين ان يتحرك برعدة البرد وزمهرير قره ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة ، نعم انقرض اصحاب هذا المذهب اواخر القرن الرابع الهجري ولم يبق لهم اثر .

وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد كما ظنه الواهمون من ضعفاء الفكر .

ان الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة ، ويسهل على كل من له فكر سليم ان يلتفت الى ان كل حادث له سبب يقارنه في الزمان ، وانه لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها ، وان لكان منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم ، وارادة الانسان انما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة ، وليست الارادة الا اثرا من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس وشعورها بما اودع في الفطرة من الحاجات فالظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة ما لا ينكره ابله فضلا عن عاقل ، وان مبدأ هذه الاسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة انما هي بيد مدبر الكون الاعظم الذي ابدع الاشياء على وفق حكمته وجعل كل حادث تابعا لسببه كانه جزء له خصوصا في العالم الانساني .

ولو فرض ان هناك جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود اله صانع العالم فليس في امكانه ان يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية ، والتأثيرات الدهرية في الارادات البشرية فهل يستطيع انسان ان يخرج بنفسه عن هذه السنة التي سنها الله في خلقه ؟

هذه حقيقة يعترف بها طلاب الحقائق فضلا عن الواصلين من ابناء الثقافة ، وان بعضا من حكماء الاجانب وعلماء الساعة منهم التجأوا الى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان في اثباتها .

ولا نذهب بعيدا ما دام للتاريخ علم عني بالبحث فيه العلماء من كل امة باحثين عن سير الامم في صعودها وهبوطها وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والاخلاق بل في خصائص الاحساس الباطن والوجدان وما يتبع ذلك كله من نشأة الامم وتكون الدول او فناء بعضها واندراس اثره ، هذا فن التاريخ الذي عد من أجل الفنون الادبية واكبرها فائدة بني البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر والاذعان بان قوى البشر في قبضة مدبر الكائنات ومصرف للحادثات ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ولا ضعف قوي . ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان .

الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر تتبعه صفات الجراة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النمور هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الاهوال ، ويحليها بحلى الجود والسماح ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نضرة المادة كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة ، الذي يعتقد ان الاجل محدود ، والرزق مكفول والاشياء بيد الله يصرفها كما يشاء كيف يرهب الحوادث في الدفاع عن حقه ، واعلاء كلمة امته او ملته ، والقيام بما فرض الله عليه ذلك ؛ وكيف يخشى الفقر ممن ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الاوامر الالهية واصول الاجتماعات البشرية لقد امتدح الله جلت قدرته المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق :

(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم)

اندفع المسلمون في اوائل نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها ـ فادهشوا العقول وحيروا الالباب بما دوخوا من دول وقهروا من امم ، وامتدت سلطتهم من بلاد (بيرينى) وجبالها الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا الى تخوم الصين مع قلة العدد والعدة وعدم اعتيادهم على الاهوية المختلفة .

ارغموا الملوك ، واذلوا القياصرة والاكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة ؛ ان هذا الشيء يعد بطبعه من خوارق العادات ؛ دمروا بلادا ودكوا اطوادا ورفعوا فوق الارض ارضاثانية من القسطل وطبقة اخرى من النقع ، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم ؛ واقاموا مكانها جبالا وتلالا من رؤوس النابذين لسلطانهم وارجفوا كل قلب ، وارعدوا كل فريصة ؛ وما كان قائدهم وسائقهم الى كل هذا سوى الاعتقاد بالقضاء والقدر .

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به اقدام بعض الاعداد القليلة منهم امام جيوش يغص بها الفضاء ؛ ويضيق بها بسيط الغبراء ؛ فكشفوا عن مواقعهم ؛ وردوهم على اعقابهم .

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على الحيارى في ميادين الحروب من اهل المغرب ؛ وهو الذي حملهم على بذل اموالهم وجميع ما يملكون في سبيل اعلاء كلمتهم لا يخشون فقرا ولا يخافون فاقة ، هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل اولادهم ونسائهم ، ومن يكون في حجورهم الى ساحات القتال في اقصى بلاد العالم كانما يسيرون الى الحدائق والرياض ، وكانهم اتخذوا لانفسهم بالتوكل على الله امانا من كل غادرة ؛ واحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة ؛ وكان نساؤهم واولادهم يتولون سقاية الجيوش وخدمتها فيما تحتاج اليه لا يفترق النساء والاولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ؛ ولا تاخذ النساء رهبة وتغشى الاولاد مهابة ، هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم الى حد كان اسمهم الناءه يذيب القلوب ؛ ويبدد افلاذ الاكباد حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب اعدائهم فينهزمون بجيش من الرهبة قبل ان يشيعوا بروق سيوفهم ولمعان اسنتهم وقبل ان تصل تخومهم اطراف جحافلهم .

فمن بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا محارب شهير نبت في اواسط الطبقات ثم رقى بهمته في اعلى الاوج فذللت له الصعاب ، وخضعت له الرقاب وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى العجب ، ويبعث الفكر على طلب السبب الا وكان معتقدا بالقضاء والقدر .

فالانسان حريص على حياته ، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة ؛ ولكن لايهون عليه اقتحام المخاطر ، وخوض المهالك ، ومصارعة المنايا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وركون نفسه الى ان المقدور كائن وليس هناك اثر لهول المظاهر ، اثبت لنا التاريخ الامين ـ ان كورش الفارسي (كيخسرو) الذي عد اول فاتح عرفه تاريخ الاقدمين ـ ما تسنى له الظفر في انتصاراته الا لانه كان مؤمنا في اعتقاد قاطع بالقضاء والقدر فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ولا توهن عزيمته شدة ، وان اسكندر الاكبر اليوناني كان ممن رسخت في نفسه هذه العقيدة ـ عقيدة القضاء والقدر .

وهذا جنكيز خان التتري صاحب الفتوحات الشهيرة كان هو نفسه من رجال هذا الاعتقاد بل كان نابليون الاول ـ بونابرت الفرنسي من اشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء ، وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة فتهيأ له الظفر ونال بغيته من النصر .

فانعم به من اعتقاد يطهر النفوس الانسانيـة من رذيلة الجبن ، وهو عائق للمتدثـر به عن بلوغ الكمال فى طبقته ايا كانت .

ولسنا ننكر ان هذه العقيدة قد خالطها فى نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبـر ، وربما كان هذا سببا فى رزيئتهم ببعض المصائب التـي اخذتهم بها فى الاعصر الاخيرة ، ورجاؤنا فى الراسخين من علماء العصر ان يسعوا جهدهم فى تخليص هـذه العقيدة مما طرأ عليها من لواحق البدع مذكرين العامة بسنن السلف الصالح ، وما كانوا يعملون فى هذا السبيل من أعمال صادقة طهرت النفوس من رجس الخرافات والتضليل امثال ابي حامد الغزالي ممن كانوا يقومـون باداء رسالتهم الاسلامية حق الاداء مؤمنين بان التوكل والركون الى القضاء انما طلبه الشرع منا فى العمل لا فى البطالة والكسل ، (اعقلها وتوكـل) وما امرنـا الله ان نهمل فروضنا ونتبذ ما اوجب علينا بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الديـن ، ولا يرتاب احد مـن اهل الدين الاسلامي الحنيف فى ان الدفاع عن الملة في هذه الاوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف ، وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحق التي تجمع كلمتهم وترد اليهم عزيمتهـم وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الاول الا دعوة خير من علمائهم، وان جميع ذلك موكول الى ذمتهم .

اما ما زعموه فى المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيـدة (ولا سواهـا من باقـي العقائد الاسلامية) نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر ، وثمل من العز والغلب ، وفاجأهـم وهم على تلك الحال ــ صدمتان قويتان : 1) صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيزخان واحفاده،2) صدمة من جهة الغرب ــ وهي زحف الامم الاروبيـة باسرها على ديارهم ؛ وان الصدمة فى حال النشـوة تذهب بالراي وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة ووسد الامر فيهم الى غير اهله ممن لا يحسن سياسـة وكـان الحكـام والامراء منغمسيـن فى جرائم الفساد وميعة الاخـلاق وانحلالها ، فكان ذلك بالطبع مجلبة للشقاء والبـلاء ؛ وذلك ما فتح الطريق لتمكين الضعـف من نفوسهـم ، وقصرت انظار الكثير منهم على ملاحظات الجزئيـات واخذ كل بناصية الاخر يطلب له الضرر ، ويلتمس له السوء من كل باب لا لعلـة صحيحـة ولا داع قـوي ؛ وجعلوا ذلك كله ثمرة الحيـاة ــ فآل الامـر بهـم الى الضعف والانحلال مؤديا بطبيعة الحال الى ما اصبحوا عليــه .

والحق ان هذه الملة لن تموت ما دامـت هـذه العقائد ، اخذت ماخذها من قلوبهم ، ورسومها تلوح فى اذهانهم ، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم على الاخص ، وكلما عرض عليها من الامراض النفسية والاعتلال العقلي ، فلا بد ان تدفعه قوة العقائد الحق ، ويعود الامر كما بدا وينشطوا من عقالهـم ، ويذهبـوا مذاهب الحكمة والتبصر فى انقاذ بلادهم ، وارهـاب الامم الطامعة فيهم وايقافها عند حدهـا ، ومـا ذلـك ببعيــد .

والتاريخ وحوادثه المسجلة شرقا وغربا تؤيـد هذه الحقيقة على طول الخط ــ فهـؤلاء العثمانيـون الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر، والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش الى ارجاء العالم، واتسعت لهم ميادين الفتوحات ، ودوخـوا البـلاد ، وارغموا انوف الملـوك ، ودانـت لسلطاتهـم الـدول الافرنجية حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الاكبر .

وهؤلاء المرابطون الكماة بعـد ما استغاث بهـم اخوانهم ابناء الفردوس المفقود عند ما تكالب عليهـم العدو واحاط بهم من كل جانب ــ لبوا النداء . وفلوا شوكة المناوئين ، واعادوا للاسلام قوته وجدته بتلـك الديار ، وعلى هذا النموذج البطولي المشبـع بتلـك العقيدة الفطرية التي تجلى ايمانها الصـادق فى نفوس رجال الموحدين ، كان الانتصار فى غزوة الارك الحاسمة بنفس الاندلـس . كما كان مثلهـا على عهـد الاشراف السعديين بوقعة « وادى المخازن » .

انها لعقيدة راسخة دعامتها ــ ما اصابك لم يكن ليخطئك ، وما اخطاك لم يكن ليصيبك ، جفت الاقـلام وطويت الصحف .

نعم ما دامت الامم الاسلامية تنظر الى امثـال هؤلاء الامجاد المسلمين بعين ملؤها العزة والكرامـة وتجعل نصب اعينها صبح مساء ما كانوا عليـه طوال حقب مضت كلها شرفا وانتصارا الا وهي صلة وصل لذلك المجد الشامخ والتراث الخالد ــ تراث الشهامة والاقدام والفوز فى كل ميدان خلده التاريخ الذهبي لابناء الاسلام الاول الذيـن ملأت نفوسهم عقيـدة القضـاء والقــدر .

الرباط ــ عبد الله الجراري

مقامة العيد
لأبي محمد عبدالله الأزدي

صورة من صور الحياة الاجتماعية في غرناطة

للدكتور أحمد مختار العبّادي

المقامة فن معروف فى الادب العربي ، نشأت بالمشرق فى شكلها الفني الخاص على يد بديع الزمان الهمداني (ت 398 هـ 1007 م) ثم ابي محمد القاسم الحريري البصري (ت 516 هـ 1122 م) ومنذ ذلك الوقت ، فتح باب فن المقامات واسعا ، فولجه كثيرون من ادباء العالم الاسلامي حتى عصرنا الحديث .

وكان طبيعيا ان ينتقل هذا الفن الى اسبانيا منذ ظهوره بالمشرق ، فكثير من الاندلسيين الذين رحلوا الى المشرق فى ذلك الوقت طلبا للعلم ، درسوا هذا اللون من الادب ، ثم عادوا الى بلادهم محدثين به ، ناشرين اياه بين مواطنيهم .

فمقامات البديع الهمداني ورسائله ، انتشرت بوجه خاص ايام ملوك الطوائف بالاندلس حيث قام بعض ادباء ذلك العصر بمعارضتها وتقليدها ، فيروي ابن بسام انه فى ايام المعتضد بن عباد باشبيلية (461/434 هـ ـ 1068/1042 م) وضع الاديب ابو عبدالله محمد بن شرف القيرواني ، مقامات « عارض بها البديع فى بابه وصب فيها على قالبه (※) » ويروى كذلك عن الشاعر ابا المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفى حوالي سنة 420 هـ 1029 م ، عارض رسالة لبديع الزمان فى وصف غلام (※) ، وفى موضع آخر اورد ابن بسام اجزاء من مقامتين احداهما لابي حفص عمر الشهيد (※) ، والاخرى لابي محمد بن مالك القرطبي (※) ، وكلا الاديبين عاش فى عهد المعتصم بن صمادح بالمرية (484/443 هـ ـ 1091/1051 م) .

وفى اوائل عهد المرابطين بالاندلس ، ظهرت مقامات الحريري بالمشرق ، لم لم تلبث ان انتشرت بالمغرب انتشارا كبيرا ؛ وعني بها علماء الاندلس فى حياة مؤلفها نفسه ، فيروي ابن الابار ان كثيرا من الاندلسيين سمعوا من الحريري مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد ، ثم عادوا الى بلادهم حيث حدثوا بها عنه ، ونذكر من هؤلاء الحسن بن علي البطليوسي (※) (ت 566 هـ 1169 م) وابا الحجاج يوسف القضاعي وكرمه وقد نشرها جوزيف مولي Onda من كور بلنسية) الذي توفى سنة 542 هـ 1147 م .

وبعد موت الحريري ، استمرت مقاماته تدرس على يد تلاميذه الذين اجازهم بالرواية عنه ؛ ونخص بالذكر منهم ابنه ابا محمد (※) ، والادباء ابا الطاهر

※ اورد ابن بسام على سبيل المثال مقامتين للاديب المذكور فى كتابه الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ق 1 ج 1 ص 167/154 ، وقد نشر احداهما ايضا الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، وهي ضمن رسائل البلغاء التي جمعها محمد كرد علي (طبع مصر 1913) كذلك نشرها الخانجي (مصر 1926) .

※ راجع نص الرسالة فى الذخيرة لابن بسام ق 1 ج 1 ص 117 .

※ الذخيرة ق 1 ج 2 ص 195/184 .

※ نفس المصدر ص 257/246 .

※ ابن الابار : كتاب التكملة لكتاب الصلة ج 1 رقم 35 ص 16 .

※ نفس المصدر ج 2 ص 732 رقم 2076 ؛ الضبي: بغية الملتمس رقم 1446 ص 477 .

※ ابن الابار : كتاب التكملة ص 637 رقم 1779 .

الخشوني (*) بدمشق ، وابا القاسم عيسى بن جهور (*) بقرطبة ، وابا الحجاج القضاعي (*) ، السابق الذكر ، بالمرسية وغيرهم . فعلى هؤلاء ومن روى عنهم ، درس الاندلسيون ايام المرابطين والموحدين ، مقامات الحريري ، وحسبنا ان نحيل القارئ على بعض المراجع بالمكتبة الاندلسية ، ليقف على اسماء بعض هؤلاء الطلبة الاندلسيين الذين يضيق المقام عن ذكرهم لكثرة عددهم (*) . على ان المهم هنا ، هو ان الاندلسيين لم يكتفوا بدرس مقامات الحريري وروايتها فحسب ، بل تناولوها بالشرح والمعارضة بطريقة اثبتت مقدرتهم في هذا اللون من الادب .

فهناك مثلا شروح المقامات الحريرية لابي العباس احمد الشريشي (ت 619 هـ 1222 م) وكانت تقع في ثلاث نسخ كما يقول ابن الابار : كبراها الادبية ، ووسطاها اللغوية ، وصغراها المختصرة (*) ، ويضيف ابن الابار قائلا عن ابي العباس الشريشي المذكور « ولقيته بدار ابي الحسن بن حريق من بلنسية قبل توجهي الى اشبيلية في سنة ست عشر وستمائة ، وهو اذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات ، فسمعت عليه بعضه ، واجاز لي سائره مع رواياته وتواليفه ، واخذ عنه اصحابنا (*) » .

والى جانب شرح الشريشي ، نذكر « كتاب الخمسين مقامة اللزومية (*) » وهي المعروفة بالمقامات السرقسطية تاليف الاديب ابي الطاهر محمد التميمي السرقسطي الاشتركوني (اشتركوي من اعمال تطليه) الذي توفي بقرطبة سنة 538 هـ 1143 م ، وقد عارض بها مقامات الحريري الخمسين ، ولزم في نثرها ما لا يلزم ، ولعله تاثر بالمعري في لزومياته (*) .

هذا ويروي ابن خير (ت 575 هـ 1179 م) في فهرسته ، انه درس على الوزير ابي الحسن سلام الباهلي ، مقاماته السبع ، بمنزله بمدينة شلب (*)

ويشير ابن الابار الى ان الاديب محارب بن محمد الوادي اشي عاش 553 هـ 1108 م ، وضع مقامة في مدح القاضي عياض بن موسى السبتي (*) (ت 544 هـ 1149 م) ، وان الاديب ابا عبد الله محمد القرطبي الليلي ، وضع مقامة اخرى في نفس الغرض سماها المقامة العياضية الغزلية (*) ، كذلك يروي المقري ان الفقيه عبد الرحمن بن القصير (ت 576 هـ 1180 م) كانت له مؤلفات كثيرة منها خطب ورسائل ومقامات (*) .

---

* نفس المصدر ص 501 رقم 1423
/ نفس المصدر ص 214/213 رقم 727 ، ابن خير : فهرست ج 1 ص 451/387 .
* راجع على سبيل المثال (ابن الابار : كتاب التكملة تحت الارقام التالية : 727 – 756 – 764 – 849 – 877 – 931 – 937 – 958 – 1423 – 1658 – 1779 – 1894 . راجع كذلك (ابن خير : فهرست ج 1 ص 451/387 ، المقري : نفح الطيب ج 2 ص 421 (القاهرة 1949) .
* المقري : نفح الطيب ج 2 ص 316 ولقد نشرت المطبعة الخيرية ، الشرح الكبير من شروحه الثلاثة في جزئين (مصر 1306)
* المقري : نفح الطيب ج 2 ص 317/316
* مخطوط بالفاتيكان رقم 372 وايضا باستانبول برقمي 1928 / 1933 .
* ابن الابار : المعجم (رقم 124) ص 140 / 141 حيث يذكر بعض شعره فيها .
راجع كذلك (نفس المرجع ص 284 رقم 266) ؛ ابن الابار : التكملة ص 618 (رقم 1722) ابن خير : فهرست ج 1 ص 387 المقري : نفح الطيب ج 1 ص 272 انظر كذلك :
Encyclopédie de l'Islam (Maqama)
* ابن خير : فهرست ج 1 ص 386 / 450 وتقع مدينة شلب في جنوب البرتغال .
* ابن الابار : التكملة ص 407 (رقم 1173) انظر كذلك (المقري : ازهار الرياض ج 1 ص 23 / 30)
* ابن الابار : التكملة ص 233 (رقم 762))
* المقري : ازهار الرياض ج 3 ص 15 .
* عبارة عن وصف لاهم مدن المغرب الاقصى ومدن مملكة غرناطة راجع (احمد مختار العبادي : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس مطبوعات جامعة الاسكندرية 1957 .

واستمر الاندلسيون في مزاولة كتابة هذا الفن من الادب حتى اواخر عهدهم بالاندلس ، اقصد بذلك ايام بني الاحمر او بني نصر في غرناطة ، ومثال ذلك الوزير لسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ 1374 م) في مقاماته العديدة : معيار الاختيار في احوال المعاهد والديار (※) ، خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف (※) ومقامة السياسة (※) ، ومن امثلة ذلك ايضا القاضي ابو الحسن النباهي المالقي (ت في اواخر القرن الثامن الهجري او الرابع عشر الميلادي) في مقاماته النخلية (※) التي اوردها في كتابه المعروف باسم « نزهة البصائر والابصار (※) »، ثم هناك الاديب الفقيه عمر الزجال في مقاماته الساسانية : « تسريح النصال الى مقاتل الفصال » ويقول المقري انها كانت عند العامة محفوظة ، وعند الخاصة مرفوضة (※) .

واخيرا نجد الشاعر الاديب الغرناطي ، ابا محمد عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله الازدي ، المعروف بابن المرابع ، وهو من اهالي مدينة بلش Vélez Malaga المجاورة لمدينة مالقة . ولقد كان الازدي صديقا للوزير ابن الخطيب الذي افرد له في احاطته ترجمة طويلة ذكر فيها الرسائل الادبية والقصائد الشعرية التي تبودلت بينهما (※) ، كما اورد له ايضا مقامة ساسانية كتبها الى حاكم مالقة ، الرئيس ابي سعيد فرج بن نصر، يستجديه اضحية بمناسبة العيد (※) ، وهذه المقامة يجدها القارىء في آخر هذا الكلام ، وتوفي الازدي في الطاعون العام ببلدة بلش اواخر عام 750 هـ 1350 م .

على ان موضع الاهمية هنا هو ان فن المقامات لم يؤثر في الادب الاندلسي العربي فحسب ، بل اثر ايضا في الادب الاسباني العبري وربما المسيحي ايضا.

فمن المعروف ان كتاب اليهود الاسبان في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ترجموا الى العبرية مقامات الحريري كما عارضوها بمقامات شبيهة بها تماما تتخللها ابيات من الشعر ذات طابع ديني او اخلاقي احيانا .

ولقد ازدهر هذا اللون من الادب العبري في اسبانيا ولا سيما في مقاطعة قطالونيا ، ونذكر من كتاب اليهود الاسبان الذين برزوا في هذا الميدان ، يوسف بن مائر بن سابرا ، الذي الف بمدينة برشلونة قبيل سنة 591 هـ 1194 م كتابه المشهور باسم : « سفر شعا اشوايم » اي كتاب التعاليم المفرحة ، وهو عبارة عن مقامات تشف عن مقدرة صاحبها وقوة محصوله

※ عبارة عن وصف رحلة تفتيشية قام بها السلطان الغرناطي ابو الحجاج يوسف الاول (1333 /1354 م 733 / 755 هـ) في انحاء مملكة غرناطة مصطحبا معه وزيره ابن الخطيب ، وقد نشرت هذه الرحلة في كتاب مشاهدات ابن الخطيب السالف الذكر .

※ اوردها المقري في كتابه نفح الطيب ج 9 ص 149/134 .

※ المقامات النخلية عبارة عن مفاخره بين نخلة وكرمه وقد نشرها جوزيف مولر J. Muller في كتابه : Beitrage zur der Westholen IP 136-160

※ مخطوط بمكتبة الاسكوريال تحت رقم 1653 وهو يحتوي فضلا عن المقامة النخلية على تاريخ للملوك بني نصر ، نشره جوزيف مولر في كتابه المتقدم (ص 102 / 138) .

※ انظر (المقري نفح الطيب ج 6 ص 345 وما بعدها ، ازهار الرياض ج 1 ص 116 وما بعدها) .

※ نذكر من بينها قصيدة الازدي التي رثا بها والد ابن الخطيب واخاه اللذين استشهدا في وقعة طريف سنة 741 هـ 1340 م وقد رد عليه ابن الخطيب شاكرا بقصيدة من نفس القافية والوزن (المقري نفح الطيب ج 6 ص 316/315 وهناك قصيدة اخرى للازدي يهنيء فيها ابن الخطيب على توليه خطة الانشاء عام 749 هـ 1348 م نفح الطيب ج 8 ص 209 / 210 .

※ راجع (لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة نسخة الاسكوريال ، من لوحة 227 الى لوحة 230 ، ولم ترد هذه المقامة في الترجمة التي اوردها المقري عن الازدي في نفحه نقلا عن الاحاطة ، راجع نفح الطيب ج 8 ص 209 / 213) . اما عن الامير الرئيس ابي سعيد فرج بن نصر حاكم مالقة الذي وجهت اليه هذه المقامة ، فهو والد سلطان غرناطة ابي الوليد اسماعيل الاول الذي حكم 725/713 = 1325/1314 م ، وذلك بعد ان ثار على السلطان ابي الجيوش نصر وعزله وولى ابنه ابا الوليد مكانه .

الادبي والعلمي ، وقد عاصر يوسف هذا : اديب آخر اسمه يهود ابن سليمان الحريزي ، كان يتقن اللغتين العربية والعبرية ، واستطاع سنة 602 هـ 1205 م ان يترجم مقامات الحريري تحت عنوان « مخبروت اتيل » وقد سافر يهودا الحريزي بعد ذلك الى المشرق حيث طاف بارجائه ثم عاد اخيرا الى اسبانيا ليؤلف كتابه المشهور « تحكموني » اي الشخص العاقل ! عارض به مقامات الحريري وسار على منهجه فيه مقسما اياه الى خمسين مقامة ايضا .

وقلد الحريري ايضا سليمان بن صقبيل فى قصته الهجائية المعروفة باسم : « آشر بن يهودا » والتي ابتداها ببعض ابيات شعرية تحض على التمسك باهداب الدين ، وهناك ايضا ابراهيم بن صموئيل حالبي بن حسداي (ت 638 هـ 1240 م من اهالي برشلونة ، وقد استقل الترجمة العربية للقصة الفلسفية المشهورة : « برلام ويوسافات » او اسطورة بودا فى كتابة قصته العبرية المسماة : « ابن حاملك دوي حانازير » اي ابن الملك والدرويش ، كتبها على شكل مقامات تتخللها اشعار وعظات اخلاقية .

وهناك يهود آخرون عديدون كتبوا فى هذا اللون من الادب مثل يعقوب بن العزار (اوائل القرن السابع الهجري) الذي فضلا عن مقاماته العبرية العديدة ، ترجم ايضا الى اللغة العبرية كتاب كليلة ودمنة عن العربية ، ومثل الاديب طوب بن يوسف بن فالاقيرا الذي امتاز برقة احساسه ، وقوة ملكته الشعرية ولا سيما فى مقامته المسماة « صفرحا ميقيش » اي الكتاب الذي يبحث عن الحقيقة .

وهكذا نجد فى كل ما تقدم برهانا صادقا على مدى انتشار فن المقامات فى الادب الاسباني العبري

اما من جهة تاثير مقامات الحريري فى الادب الاسباني المسيحي ، فهذا امر لا يزال فى حاجة الى دراسة وبحث ، وان كان بعض العلماء الاسبان امثال منندث بلايو (※) Menendez Peloya وجونثالث بالينثيا (※) Gonzalez Palencia يرجحون وجود هذا التاثير في القصة الاسبانية المعروفة باسم القصة البيكارسكية (※) La novela Picaresca ويسميها البعض بقصيدة الجوع (※) Epopeya del hambre التي انتشرت القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي اي في العصر الذهبي الاسباني ، ففيها نجد ذلك النوع من القصص الذي تربط حوادثه شخصية رجل ذكي خفيف الظل ، من طبقة اجتماعية وضيعة (خادم ، شحاذ ، لص ، متسول . . . الخ) وهو المعبر عنه باسم « بيكرو » Picaro والذي يجوز ان ينطبق عليه الاصطلاح العربي القائل « من اهل الشطارة والبطالة (※) » فهو يروي مغامراته وتنقلاته التي يشتم منها روح السخرية والتهكم على الناس وعلى فساد المجتمع وعدم الايمان بصلاح البشر ، كل ذلك فى اسلوب هزلي لاذع حيث النكتة الطريفة والعظة الاخلاقية ، وهذا ما نجده ايضا فى المقامات العربية .

وما اظن انه مجرد توارد خواطر ذلك التشابه العجيب بين اسفار ابي زيد السروجي بطل المقامات الحريرية ، وبين مغامرات لاثاريودي تورمس (※) Lazarillo de Tormes وقزمان الفراتشي (※) Guzman Alfarach فى هذا النوع من القصص الاسباني (※) .

ونستطيع ان نقول على اي حال ، ان تاثير فن المقامات فى الادب الاسباني سواء أكان عربيا أم عبريا ام مسيحيا ، امر لا شك فيه ، وان كان لا يزال فى حاجة الى دراسة مقارنة تحليلية مستفيضة ، وما قصدت بهذه المقدمة الا التمهيد من حيث التسلسل التاريخي ،

※ انظر Menendez Pelayo : Origenes de la novela I.P.P. 67-68

※ راجع Gonzalez Palencia Del Lazarillo Quivedo, p. 3-9 - Madrid, 1946

※ اثرنا كتابة الكلمة كما هي لعدم وجود معنى محدود لاصلها الاسباني ، ولهذا نكتفي بالاشارة الى الوصف الذي ذكرناه فى المتن عن نوع تلك القصة ، اقرا على سبيل المثال : Angel Valbuena Prat : La novela Picaresca espanola - Madrid, 1946

※ انظر Tarri la la literatura espanola, p. 146

※ حول معنى اهل البطالة والشطارة راجع : Dozu : Supplément aux dictionnaires arabes - Vol. 1, p. 46-758

※ مولف حياة تلك الشخصية الوهمية ، مجهول ، ويقال ان القصة طبعت لاول مرة سنة 1554 م

※ مؤلف هذه القصة اديب من مدينة اشبيلية في القرن السادس عشر اسمه ماتيو المان Mateo Aleman

※ راجع Menendez Pelayo : Origenes de la novela, I, p. 162.

لنشر مقامة كتبت فى اواخر العصور الاسلامية بالاندلس وهي كما ذكرت آنفا مقامة الشاعر عبد الله الازدي التي خاطب بها الامير ابا سعيد بن نصر يستجديه اضحية بمناسبة عيد الاضحى .

ومقامة الازدي كغيرها من المقامات ، قصة قصيرة بطلها رجل متسول من بني ساسان ، احكم التحيل وقصر همه على تحصيل كبش من الامير ، فهي بمجملها حيل تفسر حياة مكد وما يقابله فيها من مآرق ومصاعب ، كل ذلك فى اسلوب مسجع مليء بالنكات المستملحة .

والمقامة فضلا عن طرافتها كقطعة ادبية ، لها قيمتها التاريخية من حيث كونها صورة جزئية للمجتمع الغرناطي الذي كتبت فيه ، والذي لا نعرف عنه الا الشيء القليل لندرة المراجع التي تناولت الكلام عنه .

ففي هذه المقامة نجد اشكالا من الناس بمميزاتهم واشكالهم واخلاقهم النفسية والاجتماعية : الزوجة وكثرة مطالبها ، والعجوز وتطفلها ، والبائع وضاعته ، والجزار وزيه التقليدي ، والموثق الذي يسجل فى دكانه عقود البيع والشراء بالتقسيط ، والمحتسب الذي يشرف من قبل الحكومة على الاسواق ، والامين الذي هو اشبه بنقيب يمثل اصحاب المهن التجارية والصناعية فى السوق ، ويسال امام المحتسب عن مشاكلهم ، والشرطي الذي يحافظ على الامن والنظام فيطرد ويجرد الباعة المذنبين وذلك بامر من المحتسب او الامين ، هذا عدا الاشارة الى صناعة الفخار ، وهو الفخار المالقي الذي طبقت شهرته الافاق ، فالمقامة ـ بعبارة اخرى ـ تعطينا صورة من صور الحياة الشعبية الغرناطية التي ما زلنا نتلمس بعض مظاهرها فى حياتنا العادية فى الوقت الحاضر .

نص مقامة ابن المرابع الازدي كما وردت فى كتاب الاحاطة (❊)

يقول شاكر الايادي ، وذاكر فخر كل نادي ، وناثر غرر الفرر للعاكف والبادي ، والرائح والغادي : اسمعوا مني حديثا تلذه الاسماع ، ويستطرقه الاستماع ، ويشهد بحسنه الاجماع ، وهو من الاحاديث التي لم تتفق الا لمثلي ولا ذكرت عن احد قبلي ، وذلك يا معشر الالفاء والخلصاء والاحباء ، اني دخلت فى هذه الايام داري ، فى بعض ادواري ، لاقضي من اخذ الغذا اوطاري على حسب اطواري ، فقالت لي ربة البيت ، لم جئت ولم اتيت ؟ قلت جئت لكذا وكذا ، فما الغذا ؟ قالت لا غذا لك عندي اليوم ، ولو ادى بك الصوم ، حتى تسل الاستخارة ، وتفعل كما فعل زوج الجارة ، طيب الله نجاره ، وملأ بالارزاق وجاره . قلت وما فعل ؟ خبريني ، واريني من العلامة ما احببت تريني ؟ قالت انه فكر فى العيد ، ونظر فى اسباب التعييد ، وفعل في ذلك ما يستحسنه القريب والبعيد ، وانت قد نسيت ذكره ، ومحوته من بالك ، ولم تنظر اليه نظرة بعين اهتبالك ، وعيد الاضحى فى اليد ، والنظر فى شراء الاضحية اوفق من الغد . قلت صدقت وبالحق نطقت ، بارك الله فيك ، وشكر جميل تحفيك ، ولقد نبهت بعلك لاقامة السنة ، ورفعت عنه الغفلة هنه ، والآن اسير لابحث عما ذكرت ، وانظر فى احضار ما اليه اشرت ، ويتأتى ذلك ان شاء الله بسعدك ، وتنالين فيه من بلوغ الامل غاية قصدك ، والجد ليس فى الهزل ، والاضحية للمراة وللرجل الغزل ، قالت دعني من الخرافات ، واخبار الزرافات ، فانك حلو اللسان ، قليل الاحسان ، اتخذت الغربة صحبتك آل ساسان(❊) فتهاونت بالنساء ، واسات فيمن اساء ، وعودت اكل

❊ راجع (ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، نسخة الاسكوريال رقم 1673 ورقة 227 / 230) ولقد سبق لي ان نشرت هذه المقامة فى صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية فى مدريد (المجلد الثاني ، العدد 1 / 2 ، 1954) وقام بترجمتها الى اللغة الاسبانية صديقي الدكتور فرناند وفى لاجرانخا 1962 بمناسبة ذكرى وفاة المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال .
ولما كان العدد الذي نشرت فيه هذه المقامة قد نفد طبعه ، فقد آثرت اعادة نشرها بمناسبة حلول عيد الاضحى المبارك .

❊ جماعة من المتسولين واهل الكدية ويعرفون ايضا بالساسانية نسبة الى رجل اسمه ساسان كان حاذقا فى الاستعطاء دقيق الحيلة فى الاستجداء . وقد ورد ذكر بني ساسان فى مقامات بديع الزمان الهمذاني ، كما ذكرهم الحريري فى مقامته المسماة « بالمقامة الساسانية » التي اوضح فيها كثيرا من البواعث الدامفة على التسول راجع : Ency of Islam art. Banu Sâsân by Kramers

خبزك في عقر منديل ، وايقاد القنديل دون قنديل ، وسكنى الخان ، وعدم ارتفاع الدخان ، فما تقيم موسما ولا تعرف له ميسما ، واخذت معي في ذلك بطويل وعريض ، وكلانا في طرفي نقيض ، الى ان قلت لها : ازارك وردائي ، فقد تفاقم بك امر دائي ، وما اظنك الا بعض اعدائي . قالت : مالك والازار ، شط بك المزار ، لعلك تريد ارهانه في الاضحية والابزار ؟ اخرج عني يامقيت ، لا عمرت معك ولا بقيت ، او عدمت الدين ، واخذ الوزر بالعين ، يلزمني صوم سنة ، لا اغفيت معك سنة ، الا ان رجعت بمثل ما رجع به زوج جارتي ، وادى لك الربح في تجارتي ، فقمت عنها وقد لوت راسها وولولت ، وابتدرت وهرولت ، وجالت في العتاب وصولت ، وضمت بنتها وولدها ، واقامت باللجج والانتصار بالحجج اودها ، فلم يسعني الا ان عدوت اطوف السكك والشوارع ، وابادر لما غدوت بسبيله واسارع ، واجوب الافاق ، وأسال الرفاق ، واخترق الاسواق ، واقتحم زربية بعد زربية ، واختبر منها البعيدة والقريبة ، فما استرخصته استنقصته ، وما استغليته استعليته ، وما وافق غرضي ، اعترضني دونه عدم عرضي ، حتى انقضا ثلثا يومي ، وقد عييت بدوراني وصومي ، وانا لم نحصل من الابتياع على فائدة ، ولا عادت علي فيه من قضاء الارب عائدة ، فاومات للاياب وانا اجد من خوفها ما يجد صغار الغنم من الذئاب ، الى ان مررت بقصاب في مجزره ، قد شد في وسطه مجزرة مبزرة ، وقصر أثوابه حتى كشف عن ساقيه ، وشمر عن ساعديه ، حتى ابدى مرفقيه ، وبين يديه ، عنز قد شد يديه في روقيه ، وهو يجذبه فيبرك ، ويجره فما يتحرك ، ويروم سيره فيرجع القهقرى ، ويعود الى وراه والقصاب يشد علي ازاره ، خفية من فراره ، وهو يقول : آه له من جان باغ ! وشيطان طاغ ! ما اشده ! وما الده ! وما احده ! وما احده ! وما اكثره بشحم ! وما اطيبه بلحم ! الطلاق يلزمه ان كان عاين تيسا مثله ، او اضحية تشبهه قبله ، اضحية حفيلة ، ومنحة جليلة ، هنا الله من رزقها ، واخلف عليه رزقها .

فاقتحمت المزدحم انظر مع من نظر ، واختبر فيمن اختبر ، وانا والله لا اعرف في التقليب والتخمين ، ولا افرق بين العجيف والسمين ، غير اني رايت صورة دون البغل وفوق الحمار ، وشكلا يخبرك عن صورة العمار (*) .

فقلت للقصاب ، كم طلبك فيه ، على ان تمهل الثمن حتى اوفيه ؟ فقال ابتغي فيه اجيرا ، وكن له الآن من الذبح مجيرا ، وخذه بما يرضى لاولي التقضي ، قلت اسمع الصوت ، ولا تخف الفوت ، قال ابيعه مني نسية ، وخذه هدية ، قلت نعم فسق لي الضمير ، وما ماكسني فيه بالنقير والقطمير . قال تضمن لي فيه عشرين كبارا ، اقبضها منك لانقضاء الحول دينارا دينارا . قلت ان هذا لكثير ، فاسمح منه باحاطة اليسير ، قال والذي خلق الحبة ، وبرا النسمة ، لا انقصك من هذا وما قلت سمسمه ، اللهم ان شئت السعة في الاجل ، فاقضي لك ذلك دون اجل ، فجلبني للابتياع منه الانساء في الامد ، وغلبني بذلك فلم افتقر معه لراي والد ولا ولد ، ولا احوجت نفسي في ذلك لمشورة احد ، وقلت قم اشتريه منك قضع البركة ، ليصح النجح في الحركة ، فقال فقيه ، بارك الله فيه ، وقد بعته لك ، فاقبض متاعك ، وثبت ابتياعك ، وها هو في قبضك ، فاشدد وثاقه ، وهلم لنعقد عليك الوثاقة ، فانحدرت معه لدكان التوثيق وابتدرت من السعة الى الضيق ، واوثقني بالشهادة تحت عقد وثيق وحملني من ركوب الدين ولحاق الشين في اوعر طريق ، ثم قال لي هذا تيسك فشانك واياه ، وما اظنك الا تنهياه ، وات بحمالين اربعة ، فانك لا تقدر ان ترفعه ، ولا يتاتى لك ان يتبعك ولا ان تتبعه ، ولم يبق لك من الكلفة الا ان يحصل في محلك ، فيكمل سرور اهلك ، وانطلقت للحمال وقلت هلم الي ، وقم الان بين يدي ، حتى انتهينا الى مجزرة القصاب ، والعنز يطلب فلا يصاب ، فقلت اين التيس يا ابا اويس ؟ قال انه قد فر ، ولا اعلم حيث استقر ، قلت اتضيع علي مالي ليخيب آمالي ؟ والله لانحرنك بالعصى ، كمن عصا ، ولارفعنك الى الحكام ، تجري عليك منهم الاحكام ، قال مالي علم به ، ولا بمنقلبه ، لعله فر لامه وابيه ، وصاحبته وبنيه ، فعليك بالبريح .

فانحدرت انادي بالاسواق ، وجيران الزقاق ، من ثقف لي تيسا فله البشارة ، بعد ما آتي بالامارة ، واذا برجل قد خرج من دهليز ، وله هدير وهزيز ، وهو يقول ، من صاحب العنز المشوم لا عدم به اللوم ، ان وقعت عليه عيني ، يرتفع الكلام بينه وبيني ، قلت انا صاحبه ، فما الذي دهاك مني ، او بلغك عني ؟ قال ان عنزك حين شرد ، خرج مثل الاسد ، واوقع الرهج في البلد ، واضر بكل احد ، ودخل في دهليز الفخارة فقام

(*) العمار : سكان البيوت من الجن .

فيه وقد ، وكان العمل فيه مطبوخا ونيا ، فلم يترك منه شيئا ، ومنه كانت معيشتي ، وبه استقامت عيشتي ، وانت ضامن مالي ، فارتفع معي للوالي ، والعنز مع هذا يدور وسط الجمهور ، ويكر كرة العفريت المزجور ، وياتي بالكسر على ما بقي في الدهليز من الطواجن والقدور ، والخلق قد انحشدوا للضجيج ، وكثر العياط والعجيج ، وانت تعرف عضرطة الباعة ، وما يحوون من الوضاعة ، وانا احاول من اخذه ما استطيع ، وادوم لاطاعته من غير مطيع ، والباعة قد اكسبته من الحماقة ما لم يكن لي به طاقة ، ورجل يقول المحتسب ، واعرف ما تكتسب ، والى من تنتسب ، فقد كثر عنده بك التشكي ، وصاحب الدهليز قبالته يبكي ، وقد وجد عليك وجد الشكوى ، وايقن انك كسرت الدعوى ، وامر باحضارك ، وهو في انتظارك ، فشد وسطك ، واحفظ بطنك ، وانك تقدم على من فتح باعه للحكم على الباعة، ونصب لارباب التراهين على ارباب الشواهين ، ورفع على طبقه ليملأ طبقه ، ثم امسكني باليمين حتى اوطني للامين ، وقال لي ارسلت التيس للفساد ، كانك في نعم الله من الحساد ، قلت انه شرد ، لم ادر حيث ورد ، قال قد امنت ان ضمنت ، وعليك الثقاف ، حتى يقع طرده ، واطرح يدك فيه وجرره ، قلت اتجردني الساعة ولست من الباعة ؟ قال لابد من ذلك ، او تضمن ما افسده هنالك ، قلت الضمان ، الضمان ، والامان الامان، قال قد امنت ان ضمنت ، وعليك الثقاف حتى يقع الانصاف ، او ضامن كاف ، فابتدر احد اخواني ، وبعض جيراني فادى عني ما ظهر بالتقدير ، وآلت الحال للتكدير .

ثم اردت الانصراف بالتيس لا كان كيانه ، ولا كون مكانه ، واذا بالشرطي قد دار حولي ، وقال لي كاف فعلي ، باداء جعلي ، فقد عطلت من اجلك شغلي ، فلم يك عندي ما تكسر سورته ، ولا بما تطفيء جمرته، فاسترهن منسوريتي (*) في بيته ، لياخذ ما بته .

وتوجهت لداري ، وقد تقدمت اخباري ، وقدمت بغباري ، وتعبر صغاري وكباري ، والتيس على كاهل الحمال يرغو كالبعير ، ويزار كالاسد اذا فصلت العير، فقلت للحمال انزله على مهل ، التعييد قد استهل فحين طرحه في الاسطوان ، كر الى العدوان ، وصرخ كالشيطان وهم ان يقفز الحيطان ، وعلا فوق الجدار ، واقام الرهجة في الدار ، ولم تبق في الزقاق عجوز الا وصلت لتراه ، وتسل عما اعتراه ، وتقول بكم اشتراه ؟ والاولاد قد ارهقهم لهفه ، ودخل قلوبهم خوفه ، فابتدرت ربة البيت ، وقالت كيت وكيت ، لا خل ولا زيت ، ولا حي ولا ميت ، ولا موسم ولا عيد ، ولا قريب ولا بعيد ، سقت العفريت الى المنزل ، وجعت بمعزل ، ومن قال لك اشره ما لم تره ؟ ومن قال لك سقه حتى توثقه ؟ ومتى تفرح زوجتك والعنز اضحيتك ؟ ومتى تطبخ القدور ، وولدك منه مقدور ؟ وباي قلب تاكل الشوية ولم تخلص لك فيه النية ؟ واقلة سعدها واخلف وعدها والله لو كان العنز يخرج الكنز ، ما عمر لي دارا ، ولا قرب لي جوارا ، اخرج عني بالكم ، فعل الله بك وصنع وما حسبك عن الكباش السمان ، والضان الرفيعة الاثمان ، يا قليل التحصيل ، يا من لايعرف الخياطة ولا التفصيل ، ادلك على كبش سمين ، واسع الصدر والجبين ، اكحل عجيب ، اقرن مثل كبش الخطيب ، يعبق من اوداكه كل طيب ، يغلب شحمه على لحمه ، ويسيل الودك من عظمه ، قد علف بالشعير ، ودبر عليه احسن تدبير ، لا بالصغير ولا بالكبير ، تصلح منه الالوان ، ويستطرف شواه في كل اوان ، ويستحسن ثريده ، وقديده في سائر الاحيان ! قلت بيني لي قولك، لم لا تعرف فعلك ، واين توجد هذه الصفة يا قليلة المعرفة ؟ قالت عند مولانا وكهفنا وماوانا الرئيس الاعلى ، الشهاب الاجلى ، القمر الزاهر ، الملك الظاهر، الذي اعز المسلمين بنعمته ، واذل المشركين بنقمته . .

واسترسل في المدح فاطال وفيما ثبت كفاية .

الرباط : الدكتور احمد مختار العبادي
استاذ التاريخ بجامعة محمد الخامس

(*) في الاصل ميسورتي ولعلها تحريف على كلمة منسورتي او منصورتي وهو رداء يلبس فوق القفطان ـ انظر : Dozy R. : Dictionnaire détaillé des vêtements chez les Arabes, p. 418 (Amsterdam, 1845)

نظرات حول كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

للأستاذ : محمد بن عبد العزيز الدباغ

- 2 -

حينما قدمت بحثا عاما حول كتاب صبح الاعشى وعدت القراء بان اقدم اليهم صورة مصغرة عنه تستمد عناصرها من الكتاب ذاته فتقربه اليهم وتدلهم على فحواه حتى اذا كانوا فى حاجة الى البحث عن موضوع خاص وقد تحدث عنه الكاتب رجعوا الى الاصل واستمدوا منه ما هم فى حاجة اليه .

وان مثل هذا التقديم اصبح ضروريا لمثل هاته الكتب الكبرى فهو يستميل القراء الى المطالعة ويرشدهم الى المصادر التي يحتاجون اليها سواء كانوا يرغبون فى الثقافة العامة او كانوا يهتمون بالدراسة الخاصة لموضوع ما .

وقد بينت من قبل ان كتاب صبح الاعشى يشتمل على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة وساخصص حديثي الان حول المقدمة فقط (※) .

قسم المؤلف مقدمة الكتاب الى خمسة ابواب : تحدث فى الباب الاول عن فضل الكتابة ومدح بعض الكتاب وذم آخرين .

اما الكتابة فقد نقل ادلة نقلية دينية وادبية تظهر فضلها وتبين عن جلالها فقال : « اعظم شاهد لجليل قدرها واقوى دليل على رفعة شانها ان الله تعالى نسب تعليمها الى نفسه واعتده من وافر كرمه وافضاله فقال عز اسمه (اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) ؛ مع ما يروى ان هذه الاية والتي قبلها مفتتح الوحي .. ثم بين شرفها بان وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال : (وان عليكم لحافظين كراما كاتبين) .. ثم اقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة فقال (والقلم وما يسطرون ما انت بنعمة ربك بمجنون)

ثم ذكر المؤلف ان النبي (ص) قال : (قيدوا العلم بالكتاب) ، وذكر قول ذي الرمة لعيسى بن عمر : (اكتب شعري فالكتاب اعجب الي من الحفظ ، ان الاعرابي لينسى الكلمة قد سهرت فى طلبها ليلة فيضع موضعها كلمة فى وزنها لا تساويها ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام) .

واما الكتاب فقد مدح فضلاءهم وذم الناقصين منهم وهو فى مدحه يعتبر المقياس الصالح للموازنة يعتمد على الكفاية والذكاء والقدرة على التعبير الفني الجذاب قال : (احسن ما مدح به كاتب قول ابن المعتز :

اذا اخذ القرطاس خلت يمينه
تفتح نورا او تنظم جوهرا

وغير خاف ان استحسانه راجع الى تذوقه للجمال واعجابه بالاسلوب الفني الرائع ، واعتداده بالفصاحة والبيان مع جمال الخط ووضوحه .

واما ذمه للناقصين من الكتاب فقد كان لاذعا ، وقد وقف فى اختيار ابيات شعرية تعتبر مثالا للشعر الهجائي الساخر الذي يدفع ضعاف الكتاب

※ الجزء الاول من صفحة 35 الى 140 .

الى العمل على تحسين صناعتهم وتهذيب ذوقهم وتدريب ألسنتهم على التعبير الصحيح مثل قول الشاعر :

يعي غير ما قلنا ويكتب غيرها

بعينه ويقرا غير ما هو كاتب

وقول الآخر :

وكاتب اقلامه معودات بالغلط

يكشط ما يكتبه ثم يعيد ما كشط

وقول الآخر :

تعس الزمان فقد اتى بعجاب

ومحا فنون الفضل والاداب

واتى بكتاب لو انبسطت يدي

فيهم رددتهم الى الكتاب

قال القلقشندي : « وانما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والاخذ منها بالحظ الاوفى لاستيلاء الاعاجم على الامر ، وتوسيد الامر لمن لا يفرق بين البليغ والالكن لعدم المامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها حتى صار الفصيح لديهم اعجم والبليغ في مخاطبتهم ابكم ولم يسع الاخذ من هذه الصناعة بحظه الا ان يقول :

وصناعتي عربية وكانني

القى باكثر ما اقول الروما

فلمن اقول ؟ وما اقول ؟ واين لي

فاسير لا بل اين لي فاقيما ؟

وان هاته الملاحظة لتمثل الجانب الايجابي في الطريقة المنهجية التي سار عليها القلقشندي في كتابه فهو لا يكتفي بنقل النصوص والاستدلالات ولكنه يعلل النتائج ويظهر الاسباب غير آبه بما قد توقعه فيه ملاحظاته من مهالك ولا محتفل بما يفرضه عليه النفاق الاجتماعي ازاء الحاكمين .

اما الباب الثاني فتحدث فيه أولا عن مدلول الكتابة لغة واصطلاحا ؛ فذكر ان الكتابة في اللغة لها معنيان : المعنى الاول الجمع ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة ، وللخط كتابة لجمع الحروف بعضها الى بعض ، والمعنى الثاني العلم ومنه قوله تعالى : (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) ، اي يعلمون .

واما في الاصطلاح فقد ذكر انها وان كثرت اقسامها وتعددت انواعها فانها لا تخرج عن اصلين هما كتابة الانشاء ، وكتابة الاموال ، قال : الا ان العرف فيما تقدم قد خص لفظ الكتابة بصناعة الانشاء ثم غلب في زمانه بالديار المصرية اسم الكاتب على كاتب المال ؛ وصار لصناعة الانشاء اسمان : خاص يستعمله اهل الديوان ويتلفظون به وهو كتابة الانشاء ، وعام يتلفظ به عامة الناس وهو التوقيع ، ثم قال وقد يعبر عنها بصناعة الترسل تسمية للشيء باعم اجزائه ، وعلى ذلك بنى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله تسمية كتابه : (حسن التوسل الى صناعة الترسل)

وبعد ان ذكر اختصاصات كل من الكتابتين قال: (ولاشك ان لكل من النوعين قدرا عظيما وخطرا جسيما ، الا ان اهل التحقيق من علماء الادب ما برحوا يرجحون كتابة الانشاء ويفضلونها ويميزونها على سائر الكتابات ويقدمونها) ؛ ونقل جزءا من المقامة الفراتية للحريري التي يقول فيها (اعلموا ان صناعة الانشاء ارفع ، وصناعة الحساب انفع ، وقلم الكاتبة خاطب ، وقلم المحاسبة حاطب .. الخ) .

ولما كانت كتابة الانشاء تحتاج الى النثر اكثر من الشعر قدم فصلا في هذا الباب لتفضيل النثر وقال: (ان النثر ارفع درجة من الشعر واعلى رتبة ، واشرف مقاما واحسن نظاما) ، وعلل ذلك بقوله : (اذ الشعر محصور في وزن وقافية ، يحتاج الشعر معها الى زيادة الالفاظ والتقديم فيها والتاخير ، وقصر الممدود وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها ، وغير ذلك مما تلجيء اليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لالفاظه ، والكلام المنثور لا يحتاج فيه الى شيء من ذلك فتكون الفاظه تابعة لمعانيه ، ثم استدل بقول صاحب (مواد البيان): (وقد احست العرب بانحطاط رتبة الشعر عن الكلام المنثور كما حكي ان امرا القيس ابن حجر هم ابوه بقتله حين سمعه يترنم في مجلس شرابه بقوله :

اسقيا حجرا على علاته

من كميت لونها لون العلق

وما يروى ان النابغة الجعدي كان سيدا في قومه ، لا يقطعون امرا دونه ، وان قول الشعر نقصه وحط رتبته .. ولا عبرة بما ذهب اليه بعضهم من تفضيل الشعر على النثر اتباعا لهواه بدون دليل واضح) .

وانا ارى ان المؤلف في دفاعه عن النثر لم يكن واقعيا ، فان العلل التي جعل بها الشعر سخيفا انما كانت في المفاضلة بين الضعيف من الشعر والمتين من النثر ، مع ان الشعراء المجيدين والمطبوعين ياتون بشعرهم وليس فيه من المفاضلة والتعقيد ما يجعله في الدرجة التي صوره بها القلقشندي كما ان من الكتاب من يصوغ نثره معقدا غامضا لا جمال فيه ولا ابداع .

ولتأكيد هذه الملاحظة نشير الى قول زكي مبارك في كتابه النثر الفني (※) : (وتفسير القلقشندي لرأيه غير كاف ولا سديد ، فان الشعر الذي نوازن بينه وبين النثر ليس هو الشعر الذي تكون معانيه تابعة لالفاظه وانما هو الشعر المحكم الذي تكون فيه الالفاظ دائما تبعا لمعانيه ، والنظم الجيد يفرض ذلك في الشعر والنثر على السواء) .

ثم انتقل المؤلف الى الباب الثالث وتحدث فيه عن صفات الكتاب وآدابهم وجزأ الصفات الى ضربين : صفات واجبة لا يسع اهمالها وصفات عرفية فقط .

اما الصفات التي تجب في الكاتب فقد حددها بعشر صفات :

الاولى : الاسلام ليؤمن فيما يكتبه ويمليه ، ويوثق به فيما يدره ويأتيه قال تعالى :) يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، والمراد بالبطانة في الاية من يطلع على حال المسلمين كالاطلاع على مقدار خزائنهم من المال واعداد جيشهم من الخيل والرجال .

الثانية : الذكورة قال : « ان اصحابه الشافعين يشترطون في كاتب القاضي ان يكون ذكرا وهذا الشرط في كاتب السلطان اولى » .

الثالثة : الحرية .

الرابعة : التكليف .

الخامسة : العدالة قال : « لانه لو زاد ادنى كلمة ، او حذف ايسر حرف ، او كتم شيئا قد علمه ، او تأول لفظا بغير معناه ، او حرفه عن جهته ، ادى ذلك الى ضرر من لا يستوجب الضرر ونفع من يجب الاضرار به » ، ولله در القائل :

والضربة من كاتب ببنانه
امضى واقطع من رقيق حسام
قوم اذا عزموا عداوة حاسد
سفكوا الدما بأسنة الاقدام

السادسة : البلاغة .

السابعة : وفور العقل وجزالة الراي .

الثامنة : العلم بمواد الاحكام الشرعية والفنون الادبية وغيرها .

التاسعة : قوة العزم ، وعلو الهمة ، وشرف النفس .

العاشرة : الكفاية لما يتولاه ، لان العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن في امر المسلمين .

واما الصفات العرفية فقد كان اكثرها يرجع الى وصف حالته وما يجب ان يتحلى به ظاهريا وباطنيا ، ومما نقل في ذلك قول المهذب بن مماتي في كتابة قوانين الدواوين : « ينبغي ان يكون الكاتب اديبا ، حاد الذهن ، قوي النفس ، حاضر الحس ، جيد الحدس ، حلو اللسان ، له جراءة يثبت بها الامور على حكم البديهة ، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية شريف الانفة ، عظيم النزاهة ، كريم الاخلاق مامون الغائلة مؤدب الخدام » .

※ النثر الفني لزكي مبارك الطبعة الاولى الجزء الاول صفحة 28 .

وحينما تحدث المؤلف عن آداب الكتاب خص جانبا لحسن سيرتهم وشرف مذهبهم بحيث يعتمدون على الله في الاسرار والاعلان ، وان يكونوا صالحي النيات قاصدين باعمالهم النفع العام ، عاملين على اغاثة الملهوف ، والاخذ بيد الضعيف ، ملتزمين بحدود الدين ، مقتصدين في طلب اللذات ، ومقتصرين من ذلك على ما يقيم المروءة من افضل الاخلاق واشرفها ، ثم تحدث عن حسن عشرتهم لكل من يحيطون به ملكا كان او كاتبا او من الدهماء ، وهذا القسم من الكتاب يعتبر درسا خلقيا يحدد للكاتب طريق صلاحه ويهديه الى حسن المعاملة ويمكنه من اكتساب الفضائل العامة التي لا يستغنى عنها اذا ما اراد النجاح

وانتقل بعد ذلك الى الباب الرابع ، وقد تحدث فيه عن التعريف بديوان الانشاء وعن اصل وضعه في الاسلام ، فذكر ان الديوان اسم للموضع الذي يجلس فيه الكتاب ، واصله دوان ثم ابدلت احدى الواوين ياء ، ولذلك يجمع على دواوين ، وعليه فهو عربي ، قال النحاس : « والمعروف في لغة العرب ان الديوان الاصل الذي يرجع اليه ويعمل بما فيه ، ومنه قول ابن عباس « اذا سألتموني عن شيء من غريب القرءان فالتمسوه في الشعر ، فان الشعر ديوان العرب » ، ويقال دونته ابنه ، واليه يميل كلام سيبويه ، وذهب آخرون الى ان اصله فارسي معرب ، قال بذلك الاصمعي ، واقتصر عليه الجوهري في صحاحه » .

ثم ذكر المؤلف أن ديوان الانشاء هو اول ديوان وضع في الاسلام ، وان النبي (ص) كان يكاتب امراءه واصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه ، وكتب الى من قرب اليه من الملوك يدعوهم الى الاسلام وكتب كتاب القضية بعقد الهدنة بينه وبين قريش عام الحديبية ، وكتب الامانات وهذه الكتب كلها تتعلق بديوان الانشاء ، اما ديوان الجيش فقد كان عمر اول من اثبته ونظمه ، اما ديوان الخراج فقد نقل المؤلف عن كتاب « عيون المعارف وفنون اخبار الخلائق » (*) للقضاعي ان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان للنبي (ص) اموال الصدقات وان حذيفة ابن اليمان كان يكتب له خرص النخل وان المغيرة ابن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات ، قال القلقشندي : « فان صح ذلك فتكون هذه الدواوين ايضا قد وضعت في زمنه (ص) الا انها ليست في الشهرة .. كما تقدم من متعلقات كتابة الانشاء

ثم ذكر بعد ذلك اسماء بعض الكتاب في صدر الاسلام وفي ايام الخلفاء الراشدين وفي عهد الامويين الى ان بلغ الامر الى العباسيين فابدل السفاح اسم الكاتب باسم الوزير ، ولقب ابا سلمة الخلال بذلك فكان أول من لقب بالوزرة في الاسلام ، واصبح ديوان الانشاء مضافا الى الوزارة فيكون الوزير هو الذي ينفذ اموره بقلمه ، وتارة كان يفرد بكاتب ينظر في امره ويكون الوزير هو الذي ينفذ اموره بكلامه ويصرفها بتوقيعه على القصص ونحوها ثم ذكر اشهر الوزراء والكتاب ايام العباسيين ثم بعد انقراض دولتهم ببغداد .

ثم تحدث عن المغرب والاندلس وذكر ان الكتابة لم تستقر بهما الا بعد ان انقضى عهد الولاة وتأسست دول مستقلة كانت سببا في ازدهار الحضارة ، وعلل ذلك بأن الكتابة صناعة لا يقوم لها اساس الا على الرقي الحضاري فقال : «فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لا عناية لهم بكتابة الانشاء ، واذا استحضرت الدولة صرفت اهتمامها الى ديوان الانشاء وترتيبه » (*) .

ثم ذكر من اشتهر بالبلاغة من كتاب المغاربة ، فذكر منهم ابا الوليد بن زيدون ، والوزير ابا حفص ابن برد الاصغر الاندلسي ، وذا الوزارتين ابا المغيرة ابن حزم ، والوزير ابا القاسم محمد بن الحد ، وعبد المهيمن كاتب السلطان ابي الحسن المريني ، ولسان الدين ابن الخطيب وزير ابن الاحمر صاحب غرناطة من الاندلس .

---

* ذكر القلقشندي هذا المصدر في تحليله للمقالة الاولى وسماه عيون المعارف في ذكر اخبار الخلائف وكثيرا ما يغير المؤلف اسماء بعض الكتب اواسماء بعض المؤلفين وسانبه على ذلك في بحث خاص حول المصادر التي اعتمد عليها القلقشندي في كتابه (صبح الاعشى) ج 1 ص 91 وصفحة 307 .
* صبح الاعشى ج 1 ص 94

ثم تحدث بعد ذلك عن ديوان الانشاء بمصر منذ تأسيسه الى عهده وقسمه الى خمس حالات ينبغي لمن يهتم بهاته النقطة من طلاب التاريخ والحضارة ان يرجعوا فى تحليلها الى الكتاب (*) .

وانتقل بعد ذلك الى الباب الخامس فتحدث فيه عن قوانين ديوان الانشاء وترتيب احواله وآداب اهله وذكر فى هذا الباب رفعة قدرصاحب هذا الديوان، وشرف محله ونقل عن ابن الطوير من كتاب « ترتيب الدولة الفاطمية » انهم كانوا يلقبون هذا الكاتب بالديار المصرية كاتب الدست ؛ قال القلقشندي : « وانتهى الامر الى اوائل الدولة التركية والحال فى ذلك مختلف فتارة يلي الديوان كاتب واحد يعبر عنه بكاتب الدست ، وربما عبر عنه بكاتب الدرج ، وتارة يليه جماعة يعبر عنهم بكتاب الدست .. وبقي الامر على ذلك الى ان ولي الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر فى ايام المنصور قلاوون .. فلقب بكاتب السر ، ونقل كاتب الدست الى طبقة دونه من كتاب الديوان .. ثم قال والعامة يبدلون الباء من كاتب السر بميم فيقولون كاتم السر وهو صحيح » .

وانتقل بعد ذلك الى الحديث عما يتصرف فيه صاحب هذا الديوان بتدبيره وبصرفه بقلمه وجعل ذلك يتعلق باثني عشر امراً .

الامر الاول : التوقيع والتعيين ، والمراد به الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من امر الولايات والمكاتبات فى الامور المتعلقة بالملكة والتحدث فى المظالم .

الامر الثاني : نظره فى الكتب الواردة عليه .

الامر الثالث : نظره فيما يتعلق برد الاجوبة .

الامر الرابع : نظره فيما تتفاوت به المراتب فى المكاتبات ، والولايات من الافتتاح ، والدعاء ، والالقاب ، وقطع الورق ونحو ذلك .

الامر الخامس : نظره فيما يكتب من ديوانه ، وتصفحه قبل اخراجه من الديوان ، فان تعذر عليه ذلك اقام له نائبا حسن الفطنة ، كامل الصنعة موثوقا به .

الامر السادس : نظره فى امر البريد ومتعلقاته، وهنا تحدث عن النظم الدقيقة التي كانت متبعة فى سير البريد .

الامر السابع : نظره فى ابراج الحمام ومتعلقاته، وقد كان الحمام البريدي يقوم مقام البرق فى العصر الحاضر .

الامر الثامن : نظره فى امور الفداوية وهم طائفة مكلفة باغتيال اعداء الملك ينسبون الى الطائفة الاسماعيلية الشيعية ويعرفون بالفداوية لانهم يفادون بالمال على من يقتلونه .

قال فى مسالك الابصار (*) : « وهم يعتقدون ان كل من ملك مصر كان مظهراً لهم ولذلك يتولونه ويرون اتلاف نفوسهم فى طاعته لما ينتقل اليهم من النعيم الاكبر بزعمهم » قال « ولصاحب مصر بمشايعتهم مزية يخافه بها عدوه لانه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي ان يقتل بعده ، ومن بعثه الى عدوه فجبن عن قتله قتله اذا عاد اليهم ، وان هرب تبعوه وقتلوه » .

الامر التاسع : نظره فى امر العيون والجواسيس وذكر القلقشندي ما يجب على الكاتب ازاء هذا الامر من الاحتياط ونبه الى الشروط التي تجب فى الجاسوس ، فذكر منها ان يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه ، وان يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة ، وان يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة وان يكون له دربة بالاسفار ومعرفة بالبلاد التي يتوجه اليها ، وان يكون عارفا بلسان اهل البلاد التي يتوجه اليها ، وان يكون صبوراً على ما لعله يصير اليه من عقوبة ان ظفر به العدو ، ثم ذكر المؤلف توجيهات خاصة للكاتب فى هذا الشان ، منها : ان يعين اسرة الجاسوس وان يضفي عليها من الخيرات ما يدفع ذلك الجاسوس

(*) نفس المصدر من صفحة 95 الى 100 .

(*) لم يذكر القلقشندي اسم مؤلف هذا الكتاب وهو غالبا ما يستغني عن ذكر المؤلفين اعتمادا على شهرتهم وشيوع مؤلفاتهم ، وهو لابن فضل اللهالعمري صاحب كتاب التعريف الذي تحدثنا عنه فى المقال السابق طبع فى مصر بعناية دار الكتب المصرية ج 1 ص 122 .

الى الاخلاص والتفاني ، قال : « وعليه ان يحترز عن تعرف جواسيسه بعضهم بعضا لاسيما عند التوجه للمهمات ، وان استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة فعل » ، ولقد اعتنى المؤلف بتحليل هذا الامر نظـــرا لاهميته في تسيير الدولة ، وانـا اهيب بالقـراء ان يرجعوا الى الاصل ليطلعوا على الوجهة التفكيرية التي كان يمتاز بها الفكر العربي الجبار (※) .

الامـر العاشر : نظره في امور القصاد الذين يسافرون بالملطفات من الكتب وهؤلاء تكون لهم القدرة على المشي والسرعة فيرسلون ببعض الرسائـــل الهامة ويطالبون بارجاع الاجوبة عنها وهم اقدر على الاختفاء واعرف بمسالك الطرق ، ويرسل الملك منهم اثنيـن كل واحد منهما مستقـل بوجهته حتى اذا اعترض العدو احدهما بلغ الاخر الى مقصده .

الحادي عشر : نظره في امر المناور والمحرقات، اما المناور فامكنة خاصة مرتبة برؤوس الجبال العالية كان يقوم بها اقوام لهم رزق عـلى السلطـان ، واذا شعروا بتحرك التتار وكان الوقت ليلا اشعلوا النيران اشعارا بالخطر ، واما المحرقات فقوم كانت وظيفتهـم ارهابية ضد التتار ، (كانوا يتحيلون على احـــراق زروعهم بأن تمسك الثعالب ونحوها وتربط الخـــرق المغموسة في الزيت بأذناب تلك الثعالب وتوقد النـار وترسل في زروعهم اذا يبست فيأخذها الذعر من تلك النار المربوطة بأذنابها فتذهب في الزروع آخذة يمينا وشمالا ، فما مرت بشيء منه الا احرقته ، وتواصلت النار من بعضها الى بعض فتحرق المزرعة عـــن آخرها) قال القلقشندي وهذان الامران قد بطـــل حكمهما من حين وقوع الصلح بين ملوك مصر وملوك التتـــار .

الثاني عشر : نظره في الامور العامة مما يعود نفعه على السلطان والمملكة عليه ان يسرع في اخبـار السلطان بكل ما يصل اليه وان ارتاب في خبر المخبـر احضـره معه الى السلطـان ليشافهه فيه حتى يكـون بريئا عن تبعتـه .

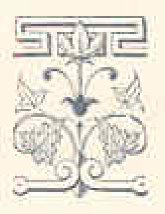
وانتقل بعد ذلك الى الحديث عن وظائف ديوان الانشاء وانواع الكتاب على اختلاف درجاتهم وعـن وظائف تتعلق بهذا الديوان وليست مـن الكتابـة ، فذكر منها وظيفتيـن هامتين الاولى وظيفة الخـازن الحافظ على جميع الكتب السلطانية والمراسم العامـة ويجب أن يكون امينا لان زمام جميـع الديوان بيده ، فمتى كان قليل الامانة ربما امالته الرشوة الى اخراج شيء من المكاتبات من الديوان وافشاء سر من الاسرار فيضر بالدولة ضررا كبيرا » ، والثانية وظيفة الحاجب ومهمته ان يقف حاجزا دون دخول اي شخص على كاتب الديوان الا بعد استئذانه وفي ذلك حفظ لاسرار الدولة

ولقد تحدث المؤلف عن الحال الذي استقر عليها كتاب الديوان في عصره وانهم طبقتان ، كتاب الدست وكتاب الدرج وبذلك انهى مقدمة كتابـه .

فالى اللقـاء مع المؤلف في المقالـة الاولى .

فاس ـ محمد بن عبد العزيز الدباغ

※ صبح الاعشى ج 1 ص 123 ـ 124 ـ 125 ـ 126 .



نحو تجديد محتوى

ثقافتنا القومية

ثمن الأخطاء

بقلم: الأستاذ محمد زنيبر

- 4 -

عالـم الاجـداد

ظل اجدادنا، امام تزايد النفوذ الاوروبي، مترددين في القيام بالاصلاحات الثورية التي كان يتطلبها الوضع والتي بدونها لم يكن للمغرب سبيل لانقاذ نفسه من الاخطار المحدقة به. والذي جعلهم يؤثرون السكون والركود انهم كانوا يعتقدون، عن حسن نية في الغالب، أن معارضتهم لكل ما هو آت من اوروبا هي الوسيلة الوحيدة لانقاذ البلاد ماديا وروحيا ولصيانة كيانها واستقلالها. وقلة معرفتهم باوروبا وبسياستها واساليبها الاستعمارية جعلتهم لا يتصورون الاستعمار في شكله الحقيقي فيتكهنوا بالاحداث المقبلة ويستعدوا لها ويروا الاجنبي يغير على ارضهم ويكتسحها شبرا بعد شبر.

بل ان الذي كانوا يخافون منه، حسب ما تبديه قرائن عديدة، هو الغزو الفكري الاوروبي. فتلك بداية لمغامرة عقلية الله اعلم بنهايتها. واقل ما يترتب عنها زعزعة العقائد الراسخة والعادات والتقاليد الثابتة. فاذا افترضنا ان الباب سيفتح قليلا ليدخل الهواء الجديد، فهل يمكن اغلاقه من بعد.

والحق أن اجدادنا كانوا يلحظون المغرب بعين ملؤها الرضا والارتياح: بلاد تؤدى فيها العبادات لله، وتعمر فيها المساجد ويقبل اهلها على الحياة بقناعة راضين بقسمة الله وتدر عليهم ارضها الخصيبة نعما وخيرات. فماذا يطلب الانسان بعد هذا؟ وما شان المغرب وشان اقوام كفروا بالله وراحوا يقلدون الصانع المبدع، فيغيروا ويبدلوا في الاشياء ويتكالبوا على زخرف الدنيا ومتاعها؟

تلك هي حكمتهم البسيطة التي كانوا ينظرون بها الى الاشياء والتي كانت تسهل عليهم الحياة وتغلل لهم من مشاكلها وتصرفهم عن جوانبها المعقدة المتشعبة. وطبيعي ان يخشوا عليها من الافكار المتطلعة التي ترد من اوروبا والتي من شانها ان تخرجهم من احلامهم المالوفة الى واقع اقل بشاشة وبشرا، واقع ينتزع الانسان من مستراحه ويخلق له المشاغل من كل نوع. لقد كانوا يعيشون في عالم خاص يختلف كل اختلاف عما يحيط به من عوالم، عالم كيفه التاريخ والتقاليد وكيفته انظمة سياسية واجتماعية من نوع فريد. وزاده طرافة خيال الانسان الذي يعيش بعاطفته منقادا لها راضيا بما عنده غير متشوف لما عند الغير. فهو عالم لا يوجد له نظير الا في عهود التاريخ القديم. وهو لبعده عن العصر وعن الواقع لا يكاد يرى الا في الاحلام العميقة او النشوات الطويلة. وليس ببدع أن يولع الفنانون والشعراء والكتاب الوجدانيون، من امثال «بيير لوتي» وغيره، بالمغرب فيتهافتوا عليه معجبين بجوه الطريف ويرسموا مشاهداتهم في كتب أو صفحات تذهب بالقارىء بعيدا عن محيطه المالوف.

وان الافكار الجديدة التي بدات تتوارد من اوروبا سالكة كل الطرق كانت نذيرة بنهاية عالم. ونهاية عالم هي دائما مأساة يصعب الحضور عليها ومشاهدتها. وقد كان من العسير على اجدادنا ان يروا عالمهم الذي الفوه وعاشوا فيه دهرا ينهار من حواليهم ليدخلوا في مغامرة لم يكونوا متاهبين لها.

ووضعوا في شانه كتبا ومؤلفات . ومن المفيد الرجوع في هذا الصدد الى ما كتبه امثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده .

ونكتفي بان نضيف هنا ان الاسلام عرف سلسلة من الانحرافات تبعا للاوضاع السياسية والاجتماعية التي تقلبت فيها الدول الاسلامية . ومن الخطا الاعتقاد بان تلك الاوضاع كانت تخضع دائما لتعاليم الشريعة الاسلامية . بل كان يقع في احيان كثيرة ان يخضع لها الدين اخضاعا ويؤول تأويلا يوافقها وينسجم معها . بحيث ان الدين بدل ان يحتفظ بصفاء جوهره واستقلاله فيظل قوة حية منزهة عن المؤثرات الدنيوية اصبح في الواقع صورة للمجتمع بما فيه من خير وشر .

وهذا هو السر في اتساع شقة الخلاف مع امتداد الزمان بين المفاهيم القرآنية الحقيقية وبين السلوك الديني الذي اصبح مفروضا على المجتمع الاسلامي في عهود الانحطاط . وهذا السلوك هو الذي كان اجدادنا يغارون عليه ويتعصبون له ، ظنا منهم انه هو الاسلام الصحيح ، مع انه كان يسد في وجوههم ابواب التحرر والمعرفة والرقي ويجردهم من كل قوة امام اعدائهم .

ولو قيض للمغرب ان يقوم فيه زعماء الاصلاح امثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده في الشرق لامكن التغلب ولو جزئيا على عقلية الجمود . ولكن شاء سوء الحظ ان يفقد المغرب حتى هذا النوع من الرجال الذين يكون لهم دور فعال في ظروف الازمات

الثقافة الاجنبية تحتل الفراغ

ومهما يكن فقد اظهرت الاحداث التي توالت فيما بعد أن اجدادنا وجدوا انفسهم مجردين لا من السلاح الحربي فحسب ، ولكن من السلاح الفكري ايضا ، وذلك حينما غزاهم الاستعمار واستولى على البلاد . فقد بلغ الانهيار الى حد أبعد مما يتصور الباحث لاول وهلة ، ولم تنحصر عواقب التخلف الثقافي والجمود الفكري في احتلال البلاد وضياع الاستقلال ، بل ظهر اثرها بصورة افظع في ميدان الفكر . فامام الفراغ العقلي الذي كان يعانيه المغرب منذ ازمان بعيدة ، استطاعت الثقافة الاجنبية الدخيلة ان تجد لنفسها مكانا واسعا رحبا وسرعان ما اجتذبت اليها المثقفين والشباب . اما ثقافتنا العتيقة فقد ادركت أنها لم تعد قوية على البروز الى ميادين المباراة فانطوت على نفسها وتخلت عن دورها كثقافة وطنية وغدت في الواقع اثرا من الآثار التاريخية .

نعم ، بقيت بعض المعاهد الدينية تحافظ بشيء من الشجاعة ومغالبة الزمان على الدروس التقليدية ، ولكن الثقافة الحية ، الثقافة التي تصادف اقبالا ورواجا اضحت هي الثقافة التي اتى بها الاجانب واسسوا لها المدارس والمعاهد . واصبح علماء المعاهد التقليدية انفسهم يوجهون ابناءهم للمدارس الجديدة وهم شاعرون بان دروسهم لم تعد تضمن المستقبل لابناء الجيل الجديد .

وقد كان من الممكن لثقافتنا القومية أن تتلافى هذا الوضع المزري لو استطاع رجال التعليم والساهرون عليه في مستهل هذا القرن ان ينتفضوا من خمولهم ويتغلبوا على جمودهم . ففي هذا الوقت بالذات كان التعليم قطع اشواطا في مصر والشرق العربي وبعض الدول الاسلامية . ولو احتذت بلادنا مثالها لوجد الاستعمار الاجنبي عند غزوه لنا نفسه امام مدرسة مغربية متطورة تلقن للجيل الناشيء مبادىء العلوم الحديثة وفي نفس الوقت ترفع لواء الثقافة العربية

ولكن الجمود الذي دفع بالساهرين على التعليم الى المواقف السلبية ، افسح المجال للمدرسة الاجنبية ، لانها بحكم الضرورة والتجربة هي المدرسة التي تستطيع ان تساير روح العصر وتهيىء الجيل الناشيء لمهمات المستقبل . فاذا نتج بعد ذلك ان هذا الجيل اصبح ذا ثقافة وتكوين اجنبيين ، قليل المعرفة بثقافته القومية ، فالمسؤولية تعود على الاجيال السابقة التي لم تعتن بهذا الامر ولم تبذل اي مجهود في خلق المدرسة الوطنية المسايرة لمقتضيات العصر .

حقا ان الاستعمار عمل فيما بعد على خنق ثقافتنا القومية ونشر ثقافته المجلوبة . ولكن هذا تصرف طبيعي ومنتظر من كل دولة اجنبية حاكمة . وليس من الحكمة ان ننتظر من الاجانب المحافظة على ثقافتنا القومية . وخير سلاح كان يمكن لثقافتنا ان تدافع به عن نفسها وتصمد للغزو الاجنبي هو اثبات وجودها بالمدرسة وبالكتاب وبالصحافة وبالندوات والمحاضرات .

لما ذا عجزت ثقافتنا عن المقاومة ؟

ولكن ، هل كان في مستطاع ثقافتنا في مستهل القرن الحالي ان تبرهن عن كل هذه الحيوية وتقوم بمثل هذا النشاط ؟ وهل كان في مستطاع المتعلمين والعاديين في ذلك العهد ان يحملوا لواء العلم والفكر عاليا ؟

ان المسالة كلها ترجع الى محتوى الثقافة . وقد راينا من خلال هذا البحث كيف ان ثقافتنا رفضت

ومع ذلك ، فقد كان سير التاريخ يفرض هـذه المغامرة . فاذا كانت العاطفة والهوى والعادة توحـي احيانا بالركود والهدوء ، فـان ارادة الحيـاة تتطلـب الحركة والتطور والسير دائما الى الامام . وكم شعب غاب اليوم عن وجه التاريخ لانـه اراد ن يحيا خـارج الزمـــان !

ولو اهتدى اجدادنا الى التفكير القويم وتدبروا الواقع بحصافة وبعد نظر لفهموا ان انقاذ المغرب هو فى الاستفادة من حضارة اوربا وعلمها وتجاربها لا فـــي الجمود والتعصب . وقـد كان اليابان مثل المغـرب يعيش منطويا على نفسه وتقاليده . ثم بدا هو ايضـا يستيقظ فى أواسط القرن الماضي . الا انه لم يتـردد فى تدارك ضعفه ومعالجة ادوائه . فتتلمذ على اوربـا مدة قصيـرة . وما هي الا سنوات حتى اصبح دولـــة قوية لها وزنها فى العالم ومقامها بين الدول وشخصيتها وحضارتها ومميزاتها .

وقـد كان فى مستطاع المغرب ان يتقـدم بنفس الخطوات ويتخذ لذلك العدة الضرورية فيصبح هـو ايضا فى اواخر القرن المنصرم دولة ذات مناعة وقـوة تعتز بحاضرها كمـا تعتـز بماضيهـا وتفـرض على الطامعين فى احتلالها واستعمارها ما يجب من الاحترام والمهابـة . ولكن الجمود والتعصب حجبـا الحقائـق الناصعة عن اعين الطبقة المسيرة والمتعلمة وكانا سببـا فى النكبات التي عاشها المغرب من بعد . وهكذا يوضح لنا التاريخ ان الغلو فى المحافظة والانكباب على الماضـي قد يضيع معهما كل شيء وان شيئا من الاقدام والجراة قد تكون هي الوسيلة لصيانـة كيـان الامـة وحفظ امجادها التاريخية وضمان مستقبلها . وما هـذا الا مثال حي عن الجدلية التاريخية التي طالما تحدث عنهـا الفيلسوف « هيجل » فى كتبـه .

على ان اجدادنا لم يكونوا يدافعون عن جمودهم ومحافظتهم لحجج عاطفية فقط . بـل كانوا يفسرون موقفهم بعلل سياسية واجتماعية وثقافيـة . فنحـن نترك للمؤرخ الذي تقتضي مهمتـه ان يرسم صـورا كاملة عن الماضـي ان يحيط بكل تلك العلل . وسنكتفي نحن ، فى نطاقنا المحدود ، بان نبين الاخطـاء الفكريـة التي كان اجدادنا يعتبرونها من المسلمات والتي كانت تقود خطاهم فى مختلف اوجه نشاطهم . والواقع انهـا كانت تضع امامهم سدودا وحواجز اكثر مما تفتح لهم الطرق وتنير لهم السبـل .

حجـــة الـديـن

واهم حجة كان يرتكز عليها اجدادنا للدفـاع عن جمودهم وتعصبهم هو الدين . وكانوا يعتقدون انهم ، فى سائر تصرفاتهم ، اوفياء للقرآن والحديث وتعاليـم الائمـة الكبـار .

ولكننـا عندما ننظـر الى الاسلام فى نصوصـه الصحيحة الثابتة وندرسها بتجرد وموضوعية ، لا نجد مطلقا انـه يؤيد الجامدين فى جمودهم او يمنع عـن المسلمين الاستفادة من غير المسلمين والتعلم عليهـم ولا يقف حجر عثرة فى طريق التطور والتجديد . بـل ان فيه مبادىء ثورية لم تطبق الا فى فترات قصيرة . فمبدا المساواة مثلا لو فهمه اجدادنا فهمـا صحيحـا وعملوا به وطبقـوه فى حياتهم العمومية والخصوصيـة لكان عاملا من عوامل ازدهار المجتمع وتقدمه وتماسكه ولكانت انظمتنـا السياسيـة والاجتماعية تتسم فى كـل العهود بطابع الديموقراطية . ووضعية المراة كما حددها الاسلام تختلف فى كثير عن الوضعية التي كانت توجـد عليها فى مجتمعنا . لقد ادخل الاسلام المراة فى المجتمع كعضو عامل له حقوق وعليه واجبات يتعلم ويدبـر ويبدي رايه فى كل الشؤون . ولكن مجتمعنا المتاخـر الجامد فرض عليه الجهل وعلمـه الخضوع والخنـوع وجرده من شخصيتـه . ومن تعاليم الاسلام ايضـا ان المسلـم لا معبـود لـه الا الله وان عبـادة الاصنـام والاشخاص امر محـرم . ولكـن مجتمعنا اوجد الى جانب عبادة التوحيد نوعا آخر من العبادات تتجه الى الاولياء واصحاب المزارات والقباب . ومـن تعاليـم الاسلام الاتكال على النفس والعمـل الشخصـي بعـد الاتكال على الله . لكـن التقاليـد الاجتماعية ادى بهـا التراجع والانحطاط الى ان تجاهلت السبب والمسبب ونشرت نوعا من الاستسلام للقدر والتخلي عن المجهود والكـد .

بحيث ان الاسلام كان يتمثل للملاحظ الموضوعي فى صورتين : صورة واقعية تطبيقية ترتبط بحيـاة المجتمع اليومية وبتصرف الناس وسلوكهم ؛ وصـورة نظرية مجردة يجدهـا فى النصوص المقدسة وفى كتب بعض العلماء الذين حاولوا ان يفهمـوا فلسـفة الاسلام العميقـة . وقـد اصبحت هاتان الصورتان فى عهـود الانحطاط متباعدتين عن بعضهما تباعـدا واسعـا . وسيطول بنا الكـلام لو حاولنا ان نعـرف بالتدقيـق مسافة الخلاف بين الاسلام النظري والاسلام المطبق ، وخاصة فى العهود المتاخرة . فهذا موضوع قد تعرض له بكثير من التفصيل والخبرة رجال الاصلاح ودعاته

التطور منذ قرون عديدة وكيف انها لم ترد ان تساير الواقع والاحداث وكيف انها تجمدت فى الاخير وظلت حتى اصبحت عرقلة دون كل اصلاح . فكيف يتأتى مقاومة الثقافة الاجنبية بواسطتها ؟ فالثورة الفكرية التي رفضنا ان نقوم بها نحن فى الوقت المناسب ، اصبحت مفروضة علينا ، فيما بعد ، ولكن من الخارج وحسب مناهج وطرق لم يكن لنا فيها اختيار . وهذا سبب كثيرا من المشاكل التي نعانيها اليوم فى تطورنا الثقافي . فلو اخذنا الامور بيدنا من اول مرة وسرنا فيها سيرا واضحا معقولا لما اعترضتنا كل العقبات التي نشاهدها . ولكن ، بما اننا تركنا الاحداث تطغى علينا ، فلم يكن لنا بد مما نراه اليوم .

والآن وقد مر نصف قرن واجتزنا تجربة الاستعمار ، هل نستطيع ان نقول ان محتوى ثقافتنا القومية تجدد ؟ سنجيب على هذا السؤال فى مقال مقبل بما يتطلبه الموضوع من التفصيل ويكفي ان نقول الآن ان المشكلة لا زالت مطروحة امامنا كما كانت امام الجيل السابق . فنحن نريد ان تكون لنا ثقافة قومية تعبر عن شخصيتنا ونفسيتنا ونتساءل ما العمل لادراك هاته الغاية ؟

وقد تبين منذ الاول ان الشرط الاساسي للخروج من الجمود الذي نعانيه هو فى تجديد محتوى ثقافتنا . وهذا التجديد لا يتم الا بالخروج من قيود الماضي وعقلية الماضي . فقد بلغت ثقافتنا فى القرن المنصرم نهاية مرحلة . ولئن سطع نجمها طوال القرون الوسطى ، فقد تبين فشلها وتدهورها فيما بعد. وغير خاف ان الثقافة ليست هي العلوم والآداب المدرجة فى بطون الكتب والاوراق ، ولكنها قوة معنوية بها تعيش الشعوب وتعتز ، واليها ترجع لتستنير وسط الخطوب المدلهمة ، ومن ينابيعها الفياضة تستقي الافكار الحية الجديدة لتواصل سيرها التاريخي . فالثقافة كائن حي يغمر المجتمع من جميع جوانبه ويلابسه فى سائر احواله وتقلباته . انها زبدة الفكر الانساني فى سائر تفاعلاته مع الواقع ونتاج الصراع البشري مع قوات الكون وترجمان صادق يعبر عن مطامح كل شعب ومثله العليا .

ولئن وجد المغرب نفسه عاجزا امام الاستعمار، فلانه ، قبل كل شيء ، كان فاقدا لتلك القوة المعنوية فلم تعد ثقافته الهرمة قادرة على القيام بدورها الطبيعي فى الوطن والمجتمع .

دعــوة غريبــة

تلك دروس تلقيناها من التاريخ . لقد كلفتنا ثمنا باهظا . ولكن اذا عرفنا كيف نستخلص عبرتها ، فسنجتنب كثيرا من الاخطاء فى بناء المستقبل وسنسير فى طريقنا اكثر جراءة واقداما . ومن حقنا ان نبدي تعجبنا واسفنا من كون بعض المفكرين وحملة الاقلام عندنا لا زالوا لم يستوعبوا تجربة الماضي ويميزوا جانبها السلبي من الايجابي . فلا زالت بعض صحفنا ومجلاتنا تطلع علينا احيانا بدعوات للرجوع الى ذلك الماضي ونبذ كل فكرة اتتنا من الخارج ورفض الاحتكاك بالثقافات الاجنبية .

ولنسق على سبيل المثال المقال الذي كتبه الاستاذ عبد السلام الهراس فى احد الاعداد الماضية من « دعوة الحق » بعنوان « قبل فوات الاوان » . واختيارنا لهذا المقال ولهذا الكاتب ليس له معنى خاص . فهنالك اشباه ونظائر كثيرة لهذا المثال .

المحور الذي يدور عليه المقال المذكور هو ان الكاتب يخشى على الاجيال الصاعدة من تاثير الثقافة الاجنبية . ذلك ان الدول العظمى اصبحت تعتمد على سلاح الفكر « لغزو الشعوب الضعيفة ، مستغلة فراغها الفكري وبلبلتها الروحية » . وهكذا « تجهز لهم ثقافة مختارة محدودة لا تسمح لهم بالشعور بكرامة امتهم ولا تحملهم على الحنين لامجاد ماضيهم » . ويتغلغل الاستعمار الثقافي بهذه الصورة فى الامم الضعيفة ويخلق فيها قيادة مزيفة تكتفي باقتباس بعض المظاهر من الامة التي تلقت عنها ثقافتها . « وبما ان شرط الابداع والحضارة منعدم فى امة تكون قيادتها على هذا الشكل ، فان المسخ هو الذي يسود حياتها بشكل مضحك ومؤلم معا » .

فما هي العواقب الخطيرة التي تترتب عن هذا الوضع ؟

يجيب الكاتب : الخطر الذي يهدد امتنا « هو هذا الذي يزحف زحفا شاملا على عقول ونفوس اطفالنا وشبابنا من الجيل الصاعد الذي سيكون عما قريب عنوان الامة وقائدها . فلقد اصبح هذا الجيل ينمو فى اجواء خاصة ، مكيفة تكييفا آسنا خطيرا على الفكر والعقيدة والحضارة الاسلامية . انه يعد اعدادا مدروسا لكي يصبح « مسلما » من طراز عصري يحمل اسما اسلاميا عربيا ولكنه غريب القلب عن الاسلام وغريب اللسان عن العروبة »

وما الوسيلة لاتقاء هذا الخطر ؟

يجب على القيادة « ان تتعمق في فهم النفسية للامة فهما مستقلا عن كل تأثير اجنبي او توجيه استعماري . وبذلك تستطيع القيادة ان تقف على حقيقة آمال الامة واهدافها ومكامن القوة والضعف فيها وطبيعة تكوينها ومزاجها وعلاقاتها التاريخية والعقائدية والفكرية . فان استطاعت ان تصل الى ذلك الفهم وان تؤمن بمبادىء الامة ايمانا عميقا خلاقا ، فانه يسهل على القيادة تعبئة الامة روحيا وفكريا والاهابة بها الى التشييد » .

هذا نوع من التفكير يكتسي ثوبا جديدا من حيث الصياغة والتعبير ، ولكنه لا يختلف في جوهره عن تفكير أجدادنا في أواخر القرن الماضي . ولندع جانبا بريق الالفاظ ومزايا الاسلوب لننظر الى فكرة الكاتب بالنقد المجرد .

اذا سايرنا الكاتب في منطقه وسلمنا بالمقدمات التي وضعها ، فما ذا تكون النتيجة ؟

يجب ان تغلق الابواب امام كل تأثير فكري يتسرب الينا من الخارج لنصحح عقائد ناشئتنا ونصونها من كل انحراف . ومعنى هذا ان سلامة العقائد في بلادنا لا يمكن ان تبنى الا على الجهل بما عند الغير .

واي قيمة تبقى للعقائد اذا بنيت على هذا الاساس ؟ ان هذه النظرية تفترض ضمنيا ان افكار الغير قد تكون اقوى من الافكار التي نركز عليها عقائدنا اذن ، فالافضل ان نرفض من اول مرة الاحتكاك والمناقشة . ولا نحتاج الى الملاحظة هنا بأن العقائد والافكار لا تصح الا بالمناقشة .

نضيف الى ذلك ان مبادىء الاسلام ، على ما نعلم ، لا تتفق مع هذا الراي . ففي الاثر : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . و « الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها اين وجدها » . وهذه الدولة العربية الاسلامية في اوج نهضتها لم تستنكف عن الاقتباس عن الغير . وكتاب المرحوم احمد امين « ضحى الاسلام » يبين الى اي حد بعيد تأثرت ثقافتنا العربية بالثقافات الاخرى من فارسية وهندية ويونانية ورومانية . وما حدثنا التاريخ أن علماء الاسلام كانوا لا يرون في ذلك اي خروج عن حدود الدين . بل كانوا اول المشاركين في حركة الاقتباس والمتطلعين الى معرفة ما عند الغير .

ثم ان نظرية الكاتب ، من جانب آخر ، تنطوي على نوع من التحكم الاستبدادي في قيمة عقول ابناء الجيل . فما الذي ، يا ترى ، يخول له ان يستصغر تلك العقول حتى يراها مغلوبة من اول ساعة وبدون مقاومة امام الغزو الفكري الاجنبي ؟ ولما ذا لا يقبل ولو على سبيل الفرض ان لتلك العقول ، كما لعقله ولا شك ، ما يسمى بملكة النقد والتمحيص ؟ ان اشفاقه المشكور على عقولنا لا يعني الا انه اكتشف بطريقته الخاصة أنها دون المستوى العادي مما يجعل منا مخلوقات طيعة في يد الاستعمار الثقافي يوجهنا كيف شاء .

ثم ما ذا يقصد الكاتب بالثقافة « المختارة المحدودة » التي تجهزها لنا الدول العظمى ؟ اهي كتب تفرض علينا دون اخرى ؟ ام هي اقفاص تضعنا فيها لتصب لنا في الكوز قطرات شحيحة من ثقافتها ؟ ان الصورة طريفة في بابها ، ولكنها من قبيل الخيال .

ثم هل فكر الكاتب بجد في الوسائل العملية لتحقيق برنامجه ؟ ذلك ان الفكرة التي يدعو اليها لا يمكن خدمتها الا باحدى طريقتين : طريقة الاقناع العقلي بالمناقشة والتوضيح والمقارنة ، وسيكون عليه آنذاك ان يحترم حرية الغير وان يقبل اعتراضاتهم وملاحظاتهم ويجيبهم عليها ؛ وطريقة الاكراه والفرض بالقوة . وهذا يستوجب احداث نوع من محاكم التفتيش التي كانت باروبا في القرون الوسطى والتي كانت مهمتها البحث في عقائد الناس واضطهاد كل من يحمل فكرة لا توافق مذهب الكنيسة .

ولست اعتقد ان محاكم التفتيش من هذا النوع مما يتفق وروح الاسلام ومبادئه . فهل هذا الذي يريد ان يوصلنا اليه الكاتب ؟ وهل يرضى لاخوانه المسلمين ان يعيشوا في عهد من تحجير العقول وتقييد الحرية الفكرية ؟

ولسنا في حاجة ، بعد هذا ، الى تبسيط هذه الحقيقة البديهية المسلمة لدى الجميع وهي ان تبادل الافكار والعلوم والثقافات نعمة عظمى تستفيد منها الانسانية وبفضلها تضيف كل يوم لبنة جديدة في بناء الحضارة .

لقد كان لاجدادنا بعض العذر ان كانوا يحملون مثل هذه الافكار ويدعون لها لانها كانت مطابقة لحياتهم وبيئتهم الاجتماعية ولانهم لم يكونوا يدركون فوائد التطور والاخذ بالثقافة العصرية وكانت تغيب عليهم اشياء كثيرة . اما ان يقوم اليوم دعاة يتناسون التجارب القاسية التي مررنا منها ويتجاهلون الاشواط التي قطعنا في تطورنا والمكاسب الفكرية التي حصلنا عليها ؛ ليطلبوا منا ان نعود الى عهد تجسم فيه انحطاطنا وتدهورنا ، فهذا مما يدعو الى العجب ويترك اللب شاردا .

(يتبع)

سلا : محمد زنيبر

الحضارة المغربية بين الاصالة والاقتباس

للأستاذ : محمد الحمداوي

1) اصالة الحضارة فى الطبيعة البشرية :

هناك خاصتان ثابتان للانسان منذ ان خلق الانسان ، اولى هاتين الخاصتين هي قدرة الانسان الفطرية على التعقل والتفكير واعمال النظر ، وترتيب العمليات الفكرية ثم الاستنتاج ثم الاستفادة فى الحياة العملية من هذا الاستنتاج العقلي الناشيء عن المقارنات الذهنيـــة .

وتأصل هذه الخاصة ، خاصة التفكير ، فى الانسان هو الذي يجعلها تتيقظ وتنمو فى حقلها الاجتماعي بمجرد استعمالها بعد ان حيل بينها وبين هذا الاستعمال لاسباب قسرية ، كما ثبت ذلك فى الحالات التي اثبتها المجربون الاجتماعيون على اطفال الانسان الذين قدر لهم ان يعيشوا زمنا ما بين الذئاب واطفال الذئاب ، وكما ثبت ذلك فى حالات الشعوب التي اصبحت متطورة خلاقة منشئة مخترعة ، معطية وآخذة طامحة طامعة بعد ان زال عنها التحدي الانساني الداخلي والخارجي الذي عطل فيها طاقات التفكير والعمل المتاصلين فيها . وتأصل خاصة التعقل والتفكير فى الانسان كذلك هو الذي جعل اولئك الذين يسيئون استعمال عقولهم عن عمد بعد تهيء الوسائل لاستعمالها النافع يعبرون فى الاسلوب القرآني بانهم سفهوا حقيقتهم الانسانية ورضوا لها الانحراف عن طبيعتها المكرمة واصبحوا احط منزلة من الحيوانات التي لم تمنحها هذه الهبة العقلية بالطبيعة (ام تحسب ان أكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيـــلا) .

وثاني هاتين الخاصتين فى بني الانسان هي خاصة التعلم والتعليم والتقليد والاقتباس والافادة والاستفادة

ولعل تأصل خاصة التعلم والنقل فى الطبيعة البشرية هو حكمة الله فى ان اخرج اطفال الانسان وهم لا يعلمون ما تعلمه صغار الحيوانات من جلب المنافع ودفع المضار، ارادة لان يتحقق نمو الحياة الانسانية واطرادها بالتعلم والاقتداء لا بالغريزة والطبع ، ومن ثم كانت العائلة الانسانية المكونة من الوالدين تشكل فى نوعنا البشري ــ كما يقول كوردون تشايلد ــ اجتماعا اكثر دواما منه فى الانواع التي يصل صغارها الى درجة النضوج بسرعة اكثر .

وبهاتين الخاصتين خاصة التفكير وخاصة التعلم اختص الانسان ان يكون الحيوان الاجتماعي كما عبر عنه بذلك فيلسوف الاغريق ارسطو ، واذا كان الانسان اجتماعيا بالطبع كان مدنيا بالطبع ، يقول جلبرت هايت فى كتابه (العقل غير المغلوب) « وانت تسمع بعض الناس يقولون فى هذه الايام ان نشوب الحرب التالية خليق بان تقضي على الحضارة ، وقد يعني هذا نهاية عصر من عصور الحضارة ، وقد نصير نحن او من يبقى حيا منا او ذريتنا من بعدنا متوحشين مرة اخرى، زمنا ما ولكن ما دامت كرة الارض تصلح دارا للاحياء وما دام مخ الانسان الذي لا يزيد وزنه على 1417 غراما هو هو ، الاداة العجيبة للاكتشاف والاختراع والملاءمة فانا سنبقى قادرين على ان نعيد بناء الحضارة بل سنلقى انفسنا مسوقين الى اعادة بنائها » ويقول :« ولن تجد بين الاحياء جماعة سوى جماعة البشر ، يستطيع افرادها حقا ان يتعلموا ويذكروا ويفكروا تفكيرا مبدعا متخطين حدود الجماعة الواحدة ومتعلمين » وما عبر عنه جلبرت هايت بعباراته هذه من تأصل التحضر فى الطبيعة البشرية ما دام من خصائصها التعقل والتعلم هو الثابت ثبوت الحقائق فى علم التاريخ الطبيعي ، وعلم السلالات البشرية ، فكما اثبت التاريخ الطبيعي ان

تمضي الجسم يتطور وينمو ويزداد تكاملا بدافع الفرض الذي تفرضه الاحوال الخارجية ، وما تستلزمه طبيعة الحياة من دقة واتقان في قيام الجسم بوظائفه الملائمة لهذه الاحوال واستغلالها ، كذلك اثبتت الانثروبولوجيا الاجتماعية الجماعات البشرية انها بطبيعة جهادها في سبيل البقاء والمحافظة على النفس من طبيعتها ان تخترع وتستنبط وتنقل عن غيرها بالمحاكاة والتقليد والتعلم من الوسائل والادوات ما يجعلها قادرة على الملاءمة بين حياتها والقوى المحيطة بها ، وان استطراد هذه الملاءمات اوتكاثرها ونموها وتنوعها بحسب ما تدعو اليه حاجة الزمان والمكان هي ما يعني بالتطور والتحضر ، والترقي والتمدن ، ولقد كانت القصة التي كتبها فيلسوفنا المغربي ابن طفيل شرحا علميا واعيا لمعنى التحضر الطبيعي في بني الانسان ، ولقد كان العنوان الذي وضعه لهذه القصة (حي ابن يقظان) تعبيرا علميا دقيقا عن معنى الحياة واليقظة في بني الانسان ، على ان الآية الكريمة التي نادت بني البشر قائلة : (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) ، تعني كل ما قال القائلون من قبل ومن بعد عن تأصل الحضارة في بني الانسان ، فتعارف الانسان لا يعني شيئا ان لم يعن تعارفه بالنفع والانتفاع ، والتعاون والتساند والافادة والاستفادة فيما انشأته وتنشئه قبائله وشعوبه من وسائل الرقي والتحضر ، وذلك ما عناه بالفعل في مختلف اطوار حياته التاريخية ، ومن هنا كان المحققون من اهل العلم بالمدنيات وتاريخ المدنيات صادقين كل الصدق عند ما اصبحوا يرون ان كلمة « همجي » او متوحش اصبحت غير ذات موضوع في الحديث عن الانسان ، يقول العلامة ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) : « الهمجي هو ايضا متمدن بمعنى هام من معنى المدنية لانه يعني بنقل تراث القبيلة الى ابنائه ، وما تراث القبيلة الا مجموعات الانظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية التي هذبتها اثناء جهادها في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الارض والاستمتاع بتلك الحياة ، ومن المستحيل في هذا الصدد ان نلتزم حدود العلم ، لاننا حين نطلق على غيرنا من الناس اسم الهمج او المتوحشين فقد لا نعبر بهذه الالفاظ عن حقيقة موضوعية قائمة .

التحضر اذن متاصل في الطبيعة البشرية والحضارة اذن ليست وليدة عصر دون عصر ، ولا تركة شعب دون شعب ، بل هي تركة موروثة ساهم فيها كل ابناء البشر بالابداع والاقتباس منذ عهود انسان ما قبل التاريخ حتى آخر عهد من عهود الانسان من بعد التاريخ .

2) اصالة الحضارة المغربية :

والمغرب كشعب انساني له من الاستعدادات الفكرية ما لسائر الشعوب التي يقتسم معها الحياة على وجه هذه الارض ، من الطبيعي ان يتثقف وان يتحضر، وان يترقى ، وان يبتدع من وسائل الترقي والتحضر ما تدعو اليه طبيعته الانسانية الحية المتطورة ، وهو من جهة اخرى كشعب اجتماعي له من غريزة الاجتماع ما لغيره من شعوب الارض ، ومن الطبيعي ان يتفاعل ويتعاون مع غيره من باقي هذه الشعوب الانسانية ، من الطبيعي ان ياخذ وان يعطي ، وان يقتبس ما سبقه اليه غيره من المخترعات والمنشئات التي تساعده على حياة التطور والرقي ، وهو تاريخنا كشعب افريقي سكن هذه القارة الافريقية التي تفاعلت مع غيرها من القارات الاخرى في غابر الازمان ، ولا تزال تتفاعل معها في حاضر الازمان ، من الطبيعي ان يتفاعل مع سكان هذه القارة ، ومع غير سكان هذه القارة ، فيما انشأت وما اخترعت ، وما اعطت وما اخذت ، وما علمت وما تعلمت ، من وسائل الحياة ورقي الحياة هو تاريخنا قد ابدع حضارة قبل ان يقتبس من حضارة ، واعطى من حضارته قبل ان ينقل من حضارة الغير ، فالساحل المغربي على شاطىء البحر الابيض المتوسط الذي اثبت التاريخ انه كان طريقا للمدنيات القديمة ــ كما لا يزال طريقا للمدنيات الحديثة ــ هو ذلك الساحل المغربي الذي نقل لنا العلامة الانجليزي واز في كتابه مختصر التاريخ عن المؤرخ الاسباني الاثري ابرماير انه كان الطريق الوحيد الذي نقل منه انسان افريقيا القديم الثقافة القابسية الى جنوب اسبانيا القديمة ، ولئن كان الجواب لا يزال بعيدا عن التحقيق فيما يتعلق بالمهد الاول للحضارات القديمة كما يقول ديورانت ، ولئن كان الشك لا يزال لم يرتفع في كون الحضارة المصرية اصل للحضارة البربرية او فرع عنها او معاصرة لها متفاعلة معها ، فان مما لا شك فيه ان المدنية البربرية كانت محققة الوجود على الارض المغربية قبل ان ياتي هذه الارض الفينيقيون بما لهم من حضارة ومدنية ، يقول تيراس في كتابه (تاريخ المغرب) (انه بالرغم من كل التخريب والبلاء الذي تعرض له البرابرة وبالرغم من جميع امدادات السكان الاجانب التي استلمتها افريقيا الشمالية في ازمنة التاريخ فان الانسان يجد مدنية اصلية مؤسسة سابقة على

التاثيرات القرطاجنية والفينيقية) وبحكم القانون التاريخي الذي يدعوه البعض (استطارة الحضارة) ويدعوه آخرون « هجرة الافكار » بحكم هذا القانون الذي يبني عليه اليوث رايه في نشوء ما على الارض من حضارات والذي يعترف المؤرخ الانجليزي توينبي بتأثيره العام ولو انه ينكره بتاريخه الخاص الذي يريده له اليوث حين يزعم ان الحضارة استطارت الى كل العالم من مكان خاص هو ارض مصر القديمة نستطيع ان نثبت انه مما لا شك فيه ان قوما معاصرين لهذه الحضارة البربرية المتاصلة قد طارت اليهم ، وقد يكون من بعض هؤلاء الاقوام المصريون القدماء الذين يريد اليوث سميث أن يجعل حضارتهم مصدر كل حضارات العالم ولعل هذا ما يعنيه خوليو حين يقول في محاضرته التي القاها في مدينة تطوان سنة 1947 : (الشمال الافريقي ثقافات حامية شديدة القربى مع ثقافات غيرها مما تبقى من مقاطعة هيسبيريا) واذا كانت النقوش والكتابات المصرية قد احتويت ــ كما يقول الاستاذ عثمان في كتيبه اللطيف عن البربر ــ على ذكر البربر ، وان هذا الذكر لم يقتصر على ذكر اسماء القبائل وعاداتهم ، بل تعدى ذلك الى دراسة الخصائص البشرية والعادات والاخلاق ، وما يتعلق بحضارة البربر بوجه عام) فان هذا يعني انه كانت للبربر حضارة استحقت من جيرانهم ومعاصريهم المصريين ان يدونوها بما تيسر لهم من وسائل التدوين .

واذا كان الدكتور كوستاف لوبون يقول في كتابه الحضارة المصرية عن نزوح المصريين الاولين الى وادي النيل : (انه لا شبهة في ان اول الوافدين وجدوا على ضفاف النيل آثارا ضعيفة نادرة لما ترك اهل افريقيا السوداء الذين كانوا لا يصلون الى البحر الا بطريق النيل) فلم لا يجوز ــ بناء على نظرية توالد الحضارات ــ ان تكون الحضارة المصرية اذن متولدة عن هذه الاثار الضعيفة النادرة وناشئة عنها ، ويكون المصريون حينئذ انما اتموا فقط ما عجزت عنه القبائل السودانية التي يعترف الدكتور نفسه بانها تركت على ارض مصر آثار العصر الحجري التي لا تزال توجد احيانا تحت طبقات الرمال ، على ان ضرورة الاحتياج القسرية التي عزا اليها الدكتور كوستاف لوبون اختصاص الحضارة المصرية بكونها الحضارة الوحيدة التي نشأت فجأة ومن غير سابق اخذ ، هي نفسها الصفة الانسانية العامة التي يعبر عنها بالقول المأثور (الحاجة ام الاختراع) لذلك لا يمكن ان تكون هذه الصفة العامة سببا في نشأة الحضارة المصرية نشأة مستقلة دون غيرها من الحضارات ، خصوصا وهذه الضرورة هي نفسها الحجة التي يستند اليها اولئك الذين يريدون ان يثبتوا ما للابداع الاصلي من اثر ثابت في انشاء الحضارات الانسانية في مختلف الازمنة والامكنة ، ويرفضون عن حق الراي القائل بان جميع الحضارات البشرية قديمها وحديثها ، ماضيها وآتيها كلها متاصلة من حضارة واحدة هي حضارة قدماء المصريين او الحضارة الغربية الحديثة ، يقول ارنولد توينبي في كتابه « دراسة التاريخ » : « اننا نسلم الآن بان استطارة الحضارة هي بلا ريب وسيلة انتقلت بفضلها كثير من الاساليب والمؤهلات والنظم والاراء من مجتمع الى آخر . . ولكن . . مع اعطاء الاستطارة حقها ، فمن الضروري ابراز الدور الذي قام به الابداع الاصلي في التاريخ البشري ، وينقل لنا توينبي للتدليل على صحة هذا الراي عن فريمان من كتابه : « النظم السياسية المقارنة » قوله في الموضوع : «ليس من شك في ان كثيرا من اهم المخترعات الاساسية للحياة المتمدنة قد اخترع مرة واخرى في عصر وفي بلاد بعيدة عن بعضها ، وذلك لان امما مختلفة كانت قد وصلت الى مراحل خاصة من التقدم الاجتماعي التي تدعو الحاجة فيها لاول مرة الى هذه المخترعات » .

بناء على هذه الحقائق العلمية يكون من حقنا حينئذ ان ننتظر ما عسى ان تحققه الدراسات الاثرية في المستقبل عما اذا كان رسم الكبش البربري الذي وجد منحوتا في بعض الجهات من الجزائر ، والذي يشابه وجهه تمثال الالاه المصري القديم عمون رع ــ مقتبسا من رسم هذا الالاه ، او اصلا له ، بطريق استطارة صنع احدهما الى الاخر ، او ان كليهما رسم ، رسما ابداعيا بعيدا عن كون أحدهما اصلا للآخر ، كل ذلك ممكن في الحقائق التاريخية ، وكل ذلك ممكن في الطبيعة البشرية ، ولعل تقدم الاكتشافات الاثرية السائرة التي تكشف في كثير من الاحيان وفي كثير من الاماكن عكس ما كان يظنه التاريخ المكتوب بالامس حقائق فاذا هو اوهام واباطيل ــ كما كشفت عن باطل ما زعمه الاحباش من قبل من انهم اول من نقل المدنية الى ارض وادي النيل ــ لعل هذه الاكتشافات اخذت تلقي بعض الضوء على مكان الحضارة المغربية من التاصل او الاقتباس ، فالاستاذ عثمان الكعاك بعد ان يقول لنا في كتابه الجامع عن البربر : « ان الامر يحتاج الى زيادة تنقيب لنعلم بالضبط ما اذا كانت حضارة البربر في تلك العصور » يعود فيستثني ويقول: «على ان الحفريات الاولى التي اجريت على حدود برقة

في النجوم الليبية تدل على ان الحضارة الاولى مصدرها البربر وانتشرت منهم الى من داناهم من المصريين »، ومهما يكن من الامر فالحقيقة الثابتة هي انه ليس كل ما وجد ويوجد على الارض من حضارات بشرية مبتدعا ابتداعيا اصليا اقتباسا فرعيا ، وانما في الحضارات جميعها اشياء مبتدعة ، وفي الحضارات جميعها اشياء مقتبسة ، وقد افصح عن هذه الحقيقة المستشرق الالماني جورج يعقوب في كتابه « أثر الشرق في الغرب» حين قال : « قد تكون هذه الثقافات متشابهة بالرغم من قيامها مستقلة ، وهي في كل اقليم بعيدة عن التاثر بغيرها ، قال : وليس معنى هذا ان شعبا لم ياخذ عن غيره شيئا من ثقافته او مخترعاته » وكذلك الحضارة المغربية كانت وهي الآن وستكون حضارة اصلية فيها المبتدع وفيها المقتبس .

3) المغرب وحدة حضرية اسلامية :

يقتضينا تسلسل البحث في الحضارة المغربية واسسها الاصلية ان نواجه الآن التساؤلات التالية : ما هو النوع الحضري الذي تنتسب اليه الحضارة المغربية اليوم ؟ وما هي التفاعلات التي تعرضت لها هذه الحضارة في مختلف اطوارها تاثيرا وتاثرا ؟ وما هي التيارات الدخيلة التي تتعرض لها اليوم في هذه الحقبة من مجرى التاريخ البشري ؟ وهل من طبيعتنا ان نقبل هذه المؤثرات المادية والمعنوية منها على علاتها ؟ او ان نرفضها جميعها ؟ وان نقبل منها دون البعض ؟

وللخوض في موضوع ما يقتضيه الجواب عن هذه التساؤلات يوجب علينا واقع التاريخ الذي عاشته الامة المغربية اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ان نتخطى الفترات التاريخية التي قدر فيها لانسان هذه الارض ان يستقبل وفادة الفينيقيين والقرطاجنيين والونداليين والرومان ، من الامم التي احتلت هذه الارض ، وتفاعلت مع سكانها الاصليين ، وانشأت ما انشأت من انواع التحضر المادي على مجموع القسم الشمالي من القارة الافريقية مما لا تزال بعض آثاره المادية تكشف تحت رمال وجبال واودية هذه الارض، ذلك لانه مهما يكن من وجوب الاقرار ببعض الآثار والمجهودات الحضرية التي بذلها هؤلاء الاقوام اثناء تداولهم حكم هذه البلاد ، فان مما لا شك فيه ان هذه المجهودات الحضرية لم تستطع ولم يقدر لها من الوراثة الروحية التي هي أس الحضارات وسر بقائها ما يضمن لها البقاء والخلود ، ويجعلها من الحضارات الحية الخالدة ذوات الاعقاب والمواليد ، لنتخطى اذن رقاب هذه الفترات التاريخية لنقول ان الحضارة الحية التي ينتسب اليها المغرب اليوم هي الحضارة الاسلامية التي صنعت تاريخه ، واثبتت وجوده كشعب ، مثل سائر الشعوب الاسلامية التي دانت للاسلام وانطوت تحت عقيدته ونظمه وقوانينه .

وقد يكون من المرغوب فيه الآن بالنسبة للموضوع هو تاثير التيارات وردود الافعال عن التيارات ان نقبل التعبير الذي عبر به توينبي عن نشأة الحضارة الاسلامية التي ينتسب اليها المغرب في منشئها الاول من الجزيرة العربية حيث قال : « انها رد فعل شبه الجزيرة العربية على هيأة تولد طاقة مضادة تصد تلك التاثيرات الثقافية الدخيلة على بلاد العرب » . لاننا نعرف ان رد الفعل هذا هو سنة الله في خلقه عند ما يريد ان يبدل امة باخرى في خلافة الارض ، او ينسخ حضارة وياتي بخير منها حينما تصبح اشباح المبيدات واخلاط الطفيليات لها الغلبة على الاخلاق المرضية والعناصر المخصبة في الامة الذاهبة ، والحضارة المنسوخة ، ولاننا نعرف ان هذه التاثيرات الثقافية التي كانت البعثة المحمدية رد فعل لها — على تعبير المؤرخ توينبي — لم تكن ابان هذه البعثة سوى ذلك الانحطاط الروحي والترف المادي الذي انغمس فيه انسان ذلك العصر في الامبراطوريتين الرومانية والفارسية واصبح معه غير مقبول البقاء في القوامة على ارض الله في نظام العدالة الالاهية ، وقد عبر النبي(ص) عن رفض الله لانسان ذلك العصر حين قال : « ان الله نظر الى اهل الارض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من اهل الكتاب » واذا كان مقام الاستشهاد اتقن واعقد في موطن التدليل على سمو حضارة واثبات الفضل لقيمها الخالدة فلندع توينبي يعبر عن خلق الحضارة الاسلامية لمظهر التوحيد في الفكرة الدينية ومظهر النظام والقانون في الجزيرة العربية وغير الجزيرة العربية ، ليعلم الجاحدون لفضل هذه الحضارة من ابنائها الى اي نوع من انواع الحضارة تنتسب شعوبهم في لسان احد افذاذ العلم ، وعباقرة التاريخ في العالم الغربي حين يقول : « ولقد كرس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية ، وتم ذلك فعلا بفضل نظام الاسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معا في صورة عربية فغدت للاسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من امة جاهلة الى امة متحضرة بل تدفق الاسلام من حدود شبه الجزيرة واستولى على العالم السوري باسره من سواحل الاطلس الى شواطيء

السهب الايراني » . هكذا اثبت هذا المؤرخ العربي فضل الحضارة الاسلامية التي عدها بثاقب فكره في عداد الحضارات الحية ، على حين عدها الجاهلون بها من ابنائها في عداد الحضارات الميتة ، وارادوا ان يلبسوا شعوبهم المنتسبة لها لباس الحضارة الغربية التي قال عنها وعن مبلغ تاثيرها في الحضارات المعاصرة لها هذا المؤرخ نفسه وهو احد ابنائها العارفين بها وباسرارها ما يلي : « ان الحضارات – رغما عن الاراء الفاسدة للمادية الحديثة – لم تشيد بمثل هذه الاحجار ولا تدخل في بنائها ماكينات الحياكة والتبغ والبنادق بل ولا حتى الحروف الهجائية والاعداد ، فان ايسر شيء في عالم التبادل التجاري تصدير اسلوب فني غربي جديد وانه لا صعب صعوبة لا نهائية على الشاعر او القديس الغربي ان يشعل في نفس غير غربية الشعلة الروحية المتقدة في نفسه هو » .

4) تاثر الحضارة الاسلامية بالمؤثرات الحضرية الاخرى :

ولئن كان من المفروض بالنسبة لما تحتويه حقائق الديانة الاسلامية وقوانين اصولها العقدية ان نقر ذلك الزعم الذي زعمه فون كريمر من تاثر اصول الاسلام العقدية وطقوسه الدينية بالمؤثرات المازدكية واليهودية والنصرانية فان من غير المقبول تاريخيا ان ننكر تاثر الحضارة الاسلامية باصول الفكر والعلم والفلسفة والحكمة التي كانت تحتويها حضارة الامم التي ورثتها الامة الاسلامية ، لاننا نعرف ان ذلك من سنة التطور التي هي سنة الله غير المبدلة ، ولاننا نعرف ان العلم بكلي نوعيه الروحي والعقلي الذي كان اساس البناء في الحضارة الاسلامية كما كان اساس البناء في كل حضارة لاحقة او سابقة ليس ملكا لامة دون اخرى ، ولا لعصر دون عصر ، وانما هو عطاء الله المشاع لانسان هذه الارض ، منذ ان علمه بالقلم ما لم يعلم ، ورضيه ان يكون خليفته في هذه الارض ، ومن ثم جاء الحديث عن رسول الله للتعبير عن هذه الشيوعية حين قال : « الحكمة الحكيمة ضالة المومن فحيث وجدها فهو احق بها » . ولقد نقل المسلمون الاولون فلسفة يونان وحكمة الفرس ، ودرسوها وفهموها وهضموها ، وميزوا صحيحها من فاسدها ، بناء على ما تقتضيه قواعد الاسلام واصول الفكر فيه ، فضمت هذه العلوم العقلية الى علوم الاسلام النقلية ، وتكون من ذلك اسس الحضارة الاسلامية التي اصبحت قانون الحياة الاجتماعية في كل بقعة حلها الاسلام في الشرق وفي الغرب .

5) والاصل تتبعه الفروع :

وكما كانت فلسفة ارسطو ، وطب ابوقراط وهندسة اقليدس تتناول بالنقل والنقد والشرح والتعليق والتفهم والتفهيم في كل من بغداد ودمشق والقاهرة وسمرقند ، على يد الكندي وابن سينا والفارابي والغزالي ومن على شاكلتهم من فلاسفة المشرق الاسلامي كذلك كانت هذه العلوم العقلية المقتبسة تتناول بالنقل والشرح والتعليق والدرس ، والاختصار في كل من قرطبة وغرناطة والقيروان وفاس ومراكش على يد ابن رشد وابن طفيل وابن زهر ومن على شاكلتهم من فلاسفة المغرب الاسلامي ، وكما كان خلفاء الاسلام في المشرق يعتنون باهل العلم والفلسفة والطب والنجوم يجلونهم اكبر الاجلال ويكرمونهم اعظم التكريم ويعقدون معهم مجالس العلم للمباحثة والمناظرة وهم بذلك العلم عالمون وفيه مشاركون كذلك كان خلفاء الاسلام في المغرب ، وقد كان الخليفتان المغربيان في الدولة الموحدية يوسف بن عبد المومن وابنه يعقوب المنصور مضرب الامثال في الاعتناء بالعلم واجلال اهله ، وقد تحقق الاول منهما بنفسه بكثير من اصول العلم النقلي والعقلي ، واقاما الاثنان معا سوقا رائجة للفلسفة والفلاسفة والطب والاطباء واحاطا رجال هذه العلوم كغيرهم بالعناية والاجلال والعطاء الواسع ، ويكفي في هذا المقام ان ننصت للمراكشي متحدثا في كتابه المعجب عن مقام الفيلسوف ابن طفيل لدى ابي يعقوب قائلا : « ولم يزل ابو بكر هذا يجلب اليه العلماء وينبهه عليهم ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم » .

حقا ان المغرب كان ولا يزال وسيبقى وحدة حضرية اسلامية ، وقد راعى في مختلف اطوار تاريخه حق الرعاية حقوق هذه الحضارة ، رعاها في فتوحاته الاسلامية ، ورعاها في منشئاته وتنظيماته الادارية والعمرانية ، ورعاها في علاقاته مع الدول الاسلامية وغير الاسلامية،ورعاها في العناية بمنقولاتها ومقتبساتها كما رعاها في حفظ اصولها وعقائدها والاصل تتبعه الفروع .

6) المغرب رسول الحضارة الاسلامية الى الغرب :

وعند ما حل الاسلام باصوله وعقائده ونظمه وقوانينه الحضرية على شواطيء الاطلسي والمتوسط ببلادنا هذه كان اعتناقنا له وتمكنه من نفوسنا بالمثابة التي اصبحنا معها غيورين عليه كما اصبحنا حريصين

على ان نتولى نقله الى غيرنا من بني البشر المستقرين على غير هذه الارض ؛ فكما كان المغرب رسول الحضارة القابسية الى اوربا الغربية في عصور ما قبل التاريخ فكذلك كان المغرب رسول الحضارة الاسلامية الى الغرب يوم ان عبر طارق بحر الزقاق ناقلا بذرة هذه الحضارة من الاراضي المغربية الاسلامية الى الاراضي الاسبانية من جنوب اوربا وفي هذه الارض من جنوب اوربا عمرت هذه الحضارة ثمانية قرون كاملة ، ومن هذه الارض من جنوب اوربا انتقلت هذه الحضارة الى كل اصقاع اوربا حيث كانت هجرتها من اكبر العوامل المنشئة للمدنية الغربية الحالية ، ولقد كان من انصاف الدكتور كوستاف لوبون للانسانية ولحضارتنا الاسلامية انه تمنى ان لو عم الاسلام الذي نقله المغاربة الى اسبانيا اذ ذاك كل اقطار اوربا وانقذها كما انقذ اسبانيا من ظلمات القرون الوسطى كما قال ، ولقد عقد هذا العلامة المنصف من كتابه « حضارة العرب » فصلا طويلا تحدث فيه عن مبلغ الفضل الذي تدين به الحضارة الغربية الحاضرة للحضارة الاندلسية في جميع ميادين مختلف العلوم والفنون التي نقلها الغربيون عن لغة العرب يوم ذاك ؛ ثم ختم كلامه متحدثا عن المغاربة الذين كانوا واسطة لنقل هذه الحضارة الى اسبانيا قائلا : « ان العرب مدنوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان ، وانهم فتحوا لاوربا باب المعارف العلمية والادبية والفلسفية التي كانت تجهلها .

7) المغرب والحضارة الغربية :

وكما ان الحضارة الغربية الحالية اعتمدت ابان نهضتها في القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين على عاملي الاحياء والاقتباس ؛ احياء تراثها الهيليني الروماني القديم والاقتباس من حضارة اخرى كان لها تاثيرها الفعال في استمرار الحركة الانسانية الدائبة في سيرها التحضري ؛ هي الحضارة الاسلامية ؛ فكذلك وحذو القذة بالقذة ، اعتمدت الحضارة الاسلامية في بعثها الجديد في القرن التاسع عشر الميلادي على احياء تراثها الاسلامي الاصيل ، وعلى الاقتباس من حضارة جديدة اكتملت نموها ؛ واصبح لها من الحلول والقوة على شعوب الارض القاصرة ما جعلها محل اعتبار للاقتباس والتقليد من الناهضين القاصرين المستيقظين من غفواتهم السابقة ، هذه الحضارة الجديدة هي الحضارة الغربية التي غزت بجيوشها واساطيلها وفنونها اراضي المسلمين وغير المسلمين ؛ واصبح لها بحكم الغلبة والسيطرة والقسرة والتداخل من التاثير على حيواتهم الفردية والجماعية المادية والروحية ما هز اركان مجتمعاتهم هزا في الجوهر وفي العرض .

ولقد حاول المغرب ـ كما حاولت كثير من الشعوب الاسلامية ـ ان يقتبس من علوم الغرب وفنونه ما يتقي به شر سيطرته قبل ان يجلب عليه بخيله ورجله . فكما ارسلت مصر وغير مصر من شعوب آسيا والشرق بعثاتها الطلابية الى كثير من مختلف العواصم الاوربية لتلقي الفنون والعلوم الجديدة كذلك ارسل المغرب في عهد السلطان الحسن الاول كثيرا من البعثات الطلابية الى كل من فرنسا وايطاليا والمانيا وبريطانيا واسبانيا لتلقي علوم الغرب وفنونه ؛ غير ان امر الله كان قدرا مقدورا فلقد شاءت سنة الله التي ليس لها تبديل ؛ ان تذيقنا من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلنا نرجع ؛ ولقد كانت الجملة القدرية التي ابتها السلطان الحسن الاول في احدى رسائله الى الحكومة الايطالية في موضوع الامتناع عن شراء بعض السفن الحربية قائلا : « ليس للعبد اختيار مع مولاه » كانت هذه الجملة معبرة احسن تعبير عن كون الاحوال في المغرب اذ ذاك لم تساعد هذا الملك على ما اراده لبلاده من يقظة ونهوض تقيه شر الاطماع الاستعمارية التي فغرت فاها لابتلاعه يوم ذاك ؛ فلقد كان وعدا مفعولا ان تجوس جيوش فرنسا خلال هذه الديار ؛ ولقد كان من الطبيعي ان تحل المدنية بحلول فرنسا هذه الديار ؛ كما كان من الطبيعي ان تجلب هذه المدنية معها اكثر من مذهب ، واكثر من تيار فكري ، واكثر من عادة غريبة عن تقاليدنا واخلاقنا ، ولقد كان من الطبيعي كذلك ان يكون في بعض الافكار وبعض هذه العادات وبعض هذه التقاليد الجديدة ما هو عنصر اساسي لاقامة كل حضارة من الحضارات الانسانية المنشاة على هذه الارض في مختلف الازمان ومختلف الامكان ، وبعضها الاخر طفيليات تلازم الحضارات كما تلازم الميكروبات الاجسام الحية ؛ بعض هذه العادات وبعض هذه التيارات الفكرية قد اتت به هذه المدنية الى هذه الديار بطريقة العفو والتلقائية على اساس انه طبع من طبائعها ، وتقليد من تقاليدها يرحل معها حيث رحلت ، ويحل معها حيث حلت ؛ وبعضها الاخر قد حضر تحضيرا ، واعد اعدادا قصديا من قبل ساسة هذه الحضارة وحكامها ومفكريها على اساس ان يكون « افيونا » تقضي الحكمة الاستعمارية ان تطعم به عقلية انسان هذه الديار المغلوب على امره ؛ ليصبح ذلك الانسان الذي يريده انسان هذه الحضارة ان

يكون ، على كيفه ، وعلى حسب ما تقتضيه اغراضه وطبيعته الغالبة .

ونحن الآن تجاه هذه الافكار جميعها وبعد ان حلت بديارنا هذه المدنية التي اتت بها ، وقضى الاقوام الذين اتوا بها بين ظهرانينا كسادة حاكمين ، وساسة مسيطرين ، ما شاء الله ان يقضوا بهذه الصفة من السنوات ، ولا يزالون الآن يعيشون بين ظهرانينا كمدربين ومعلمين نتلقى عنهم وبلغتهم ما قضت ظروف الاحتلال والحاجة ان نتلقى ، نحن بهذه الصفة ـ سواء من حيث تأصل طبيعة الاخذ والمحاكاة ، فالتقليد في الطبيعة البشرية او من حيث نفوذ الواقع الذي يقتضيه تطور ماجريات الاحوال عند مثل هذا التدخل ، وهذا التلاحم بين جماعات او افراد او شعوب من ذوي حضرات مختلفة ـ اقول من حيث هذه الاعتبارات كلها لم يبق لنا اي اختيار في رفض مبدا الاخذ والاقتباس من بعض هذه العادات والتيارات الفكرية . غير ان هناك حقيقة أثبتتها السنن الاجتماعية الهيئة البشرية اثبات حقيقة الابداع والاقتباس فيها هذه الحقيقة الاجتماعية الثابتة ، هي ان من طبع التقاليد الموروثة ان تستعصي عن التخلخل والتغير حتى تثبت التجربة ان التقاليد التي تريد ان تنسخها هي افيد لحفظ الهيئة الاجتماعية ، ولتطور الحضارات وترقيها ، ولقد اشار العلامة الانجليزي كارل بيرسون الى ثبوت هذه الصفة للجماعات البشرية حين قال : « ان من اقوى المؤثرات التي تحفظ الثبات الاجتماعي وتحول دون تخلخله تلك الصفة التي نبغضها ، صفة الجمود على القديم ، لا بل نقول بان العداء الصارخ الذي تقابل به الجماعات الانسانية كل الفكرات الجديدة لمن اخص تلك المؤثرات ، وان هذه الصفات هي بمثابة الكور الملتظية نيرانه والذي بدونه لانستطيع ان نفصل بين المعدن الصحيح والفضلات الزائفة ، وهي التي تحمي الجسم الاجتماعي من ان يترك معرضا لتغيرات تجريبية فجائية قد تكون غير مفيدة آنا او بالغة اقصى الضرر آنا آخر » . ورسوخ هذه الصفة في الكيان الاجتماعي الانساني هي التي حملت احد رجال الدين والعلم في بريطانيا هو الدكتور كاربنتر على ان يضع التقاليد المسيحية في مكانتها الراسخة بين التيارات المذهبية التي اتت المذاهب الجديدة في الغرب المسيحي حين يقول : « انني اذا ما كنت اشتراكيا بدافع من اعتبارات مسيحية فكم اكون غبيا حين اقول ان المسيحية هي الاشتراكية ، هذا الى ان الاشتراكية شيء اصغر من المسيحية اولا ، ثم ان الفكر يتحرك على مر الازمان فلا عجب ان ينشق منه في الغد شيء افضل من الاشتراكية ، وهنا اعلن عن ارتباطي بمذهب سياسي امسى عتيقا بالي » .

وبالرغم من ان دعاة الثورة في روسيا قد اتخذوا المذهب الماركسي اساس انقلابهم فان هذه الحقيقة الثابتة حقيقة احتفاظ الشعوب بتقاليدها الموروثة هي التي جعلت لينين نبي الاشتراكية في روسيا يقول مخاطبا مستمعيه قائلا : « واعتقد ان واجب الاشتراكيين الروس ان يقوموا بدراسة النظرية الماركسية دراسة مستقلة ، لانها نظرية عامة يمكن ان تطبق في انجلترا مثلا بطريقة تختلف عنها في فرنسا ، وفي فرنسا عنها في المانيا ، ومختلفة عنها في روسيا » . ومن هنا يكون صحيحا ما لا حظه الاستاذ مالك بن نبي عن منبت الاسس الاولى للفكرة الشيوعية حين قال : « ان مؤلفات ماركس وانجلز تخفي في الواقع التكوين الحقيقي الظاهرة الشيوعية ، وهذه لا يمكن ان تفسر اذا ما ضربنا صفحا عن الحضارة المسيحية تلك التي تكون عند تحللها سطح التربة الخصيب حيث استمدت الفكرة الماركسية حيويتها » .

نستطيع ان نقول اذن ازاء هذه الاقوال المؤسسة على احكام مجربة في الحقول الاجتماعية ، ان التقاليد المغربية الاسلامية الاصيلة العريقة في مامن من ضرر أولئك الذين يحاولون أن ينسخوها جملة وهم باصول النسخ جاهلون ، وانها بطبيعتها غير قابلة للنسخ الا على اساس سنة الله القائلة : « ما ننسخ من آية او ننسها نات بخير منها او مثلها » لذلك فعلى الذين يريدون ان يجددوا لهذه الامة حضارتها ان يعلموا ان في الحضارات قديمها وحديثها اعراضا ، وفي الحضارات قديمها وحديثها جواهر ، وطبيعة الاقتباس كطبيعة الابداع في الامم والجماعات سنة اجتماعية لا مفر منها ، غير ان الذين يريدون ان يقتبسوا الجوهر دون العرض او قبل العرض ، هم اولئك الذين ادركوا المعنى الصحيح للسنة الاجتماعية ، واصبحوا يقدرون المسئولية التطورية لمجتمعهم حق قدرها ، انهم في هذه الحالة يفكرون بالعقل الناضج ، ويدللون على نضج فكره البناء في نفوسهم ويريدون ان يرفعوا لحضارتهم صرحا اعز واطول ، اما الذين يريدون أن يقتبسوا الاعراض دون الجواهر ويطعمون (الاقايين) دون الفيتامنات ، فذلك دليل على انهم لم يبلغوا بعد سن الرشد في عهد التطور الصاعد ، انا في الوقت الذي يجب ان نربأ بانفسنا ان ننشد مع القطامي قوله :

ومن تكن الحضارة اعجبته
فأي رجال بادية ترانا

الدار البيضاء : محمد الحمداوي



- 3 -

في الحلقة الماضية ، واثناء حديثنا عن انواع الفولكلور وما يضم من الوان ، فرقنا بين ثلاثة انواع قسمنا اليها مادته ، وهي :

الفنون الشعبية

التقاليد والمعتقدات الشعبية

الادب الشعبي

وتحدثنا عن النوعين الاولين وقلنا اننا سنتناول النوع الثالث في مقال خاص يكون خاتمة لهذا البحث العجالي الذي لم نقصد منه غير وضع خطوط عريضة لعل غيرنا من الباحثين ان يستعين بها في دراسات مفصلة . وقبل أن نبدأ الحديث عن هذا اللون من الفولكلور نشير الى ما سبق ان لاحظنا من ان العلماء في فرنسا وايطاليا كانوا يطلقون « الادب الشعبي » على « الفولكلور » وان بعض ادباء البلاد العربية يرفضون استعمال اللفظ الدخيل ويفضلون اصطلاح « الادب الشعبي » دلالة عليه . وانتهينا الى ان المقصود من الادب الشعبي ليس الفولكلور كله وانما فرع منه نعني به مجموعة الفنون الشعبية التي تتخذ اللفظ وسيلة للتعبير . ومع ذلك فحول هذا المصطلح من الغموض والخلاف ما يجعلنا غير مقتنعين بتفسيره على هذا النحو ، وما يدفعنا الى التساؤل والبحث عن ماهيته ، محاولة للوصول الى تعريفه على نحو اشد وضوحا واكثر اقتناعا .

فما المقصود بالادب الشعبي ؟

تقول طائفة من العلماء انه ذلك اللون من الادب الذي لا يعرف مؤلفه والذي تتوارثه الاجيال عن طريق الرواية الشفوية على ان تكون لغة عامية غير فصيحة . وهذا هو الراي السائد .

وترى جماعة اخرى انه الادب الصادر عن الشعب المعبر عن مشاعره لا فرق بين ان تكون لغته عامية او فصيحة . ويرفع لواء هذا الراي بعض علماء الفولكلور الروس الذين يعتبرون كتابات مكسيم جوركي من صميم هذا اللون بالرغم من انها لم تكتب بلهجة دارجـــة .

وتذهب طائفة ثالثة الى انه الادب العامي سواء كان قديما او حديثا ، مكتوبا او مرويا ، مجهول القائل او معلومه . وتذهب هذه الطائفة كذلك الى انه لاينبغي انكار دور الافراد في انشاء الادب الشعبي وان هذا الدور لا ينفي عنه الصفة الجماعية .

اما غير هؤلاء من الباحثين فيرون انه ادب القرية ويضعون مقابله ادب المدينة الذي قد لا يخلو من بعض الالوان الشعبية .

هذه هي زبدة الآراء التي انتهى العلماء اليها في تحديد مفهوم الادب الشعبي ، فباي شيء نخرج منها وماذا عسانا نختار ؟

في اعتقادنا انها متكاملة يتمم بعضها بعضا ، وانه لا فرق في الادب الشعبي ان يكون قديما او حديثا ، مسجلا في الصحف او مرويا بالشفاه ، صادرا عن فرد او منقولا عن جماعة ، كل ما يشترط فيه أن يكون معبرا عن ذوق الشعب ومشاعره مصورا لعقليته ومستوى حياته مميزا لشخصيته وعبقريته . وظننا اننا نشك كثيرا في اعتبار الادب الفصيح من اللون

الشعبي حتى ولو كان متوفرا على كل الشروط ، اذ ليس سببا ان كورساكوف مثلا استلهم الاغاني والالحان الشعبية الروسية او أن شكسبير استغل الاساطير ومظاهر السحر السكتلندية لنعتبر انتاجهما شعبيا ؛ فالبون هائل بين التراث الشعبي واستغلال هذا التراث ، وقد سبق ان اوضحنا في الجزء الاول من هذا البحث ان الرغبة في الابداع الفني واستنفاذ الطاقات القديمة وما نتج عنهما من تحول نظر الادباء والفنانين الى حياة الشعب وآثاره سعيا ان يجدوا فيها ما يستوحون منه مادة انتاجهم ؛ كانت عاملا من عوامل احياء الفولكلور وازدهار دراسته .

والادب الشعبي بعد هذا غني بما يحوي من الوان وفنون حاولنا حصرها في هذه الانواع الخمسة :

الامثـــال
الاحاجـــي
القصـــص
الاشعـــار
المـــرددات

فالامثـــال ـ المثول او المثلات ـ هي تلك العبارات الموجزة المركزة المستخلصة من تجارب اجيال عركت الحياة طويلا فاستطاعت ان تقتبس من اسرارها حكما هي نتيجة بحث حثيث عن معرفة حقيقة الانسان والحياة . ومن النماذج لهذه الامثال :

اللـي فاتك بليلة فاتك بحيلـة
القرد الشارف ما يتعلمش الشطيح
الجمل ما يشوفش حدبته يشوف غير حدبة الناس

ولعل اهم ما يلاحظ على الامثال ان معانيها وما تحوي من حكم تكاد ان تتفق وتتشابه عند سائر الامم والشعوب ، والسبب في هذا انها نتيجة تجارب انسانية ، والانسان في تجربته للحياة يكاد أن يكون واحدا . كذلك يلاحظ أن بعض امثالنا ان لم نقل اغلبها تقترب في الفاظها من الامثال العربية الفصيحة . وقد يعزى هذا الى انها اعتمدت في نشأتها على الامثال الفصيحة ؛ وربما يكون لهذا التعليل بعض الصواب ؛ ولكن دون ان ننسى حقيقة ثابتة وهي ان لكل شعب امثالا تنبع من بيئته نتيجة تجارب محلية . فقولنا مثلا :

كلامكم قولوه وعاودوه يا البرابر
من عهد بني مرين وبني وطاس ما بقوا ناس

دليل مؤكد لهذه الحقيقة . ومن هذا القبيل امثال لا شك في انها تعبير صادق عما آلت اليه البلاد اثر وقوع الاحتلال وعما كان يحسه الناس كقولنا :

جـا من مورانا وشرا دار
الدار دار بونا وعبيد يا يطردونا

اما الاحاجـي ـ المحاجيات او الحجايات ـ او الفوازير كما يسمونها في الشرق ، فهي تلك الالغاز التي تملأ ذهن الامهات والجدات والتي يقصد بها الى تسلية الصغار وشحذ اذهانهم وتدريب ذكائهم منذ النشأة الاولى على التفكير وامعان النظر في المشكلات ، وهي في اغلبها صور جميلة وتشبيهات دقيقة ربما يعجز الكبار عن حل رموزها . ومن احاجي والدتي حفظها الله :

ـ قبتنا خضرا مبنية بالقدرة سكانها عبيد ومفاتيحها من حديد ؟
(وهي الدلاحة اي البطيخ الاحمر)

ـ حاجيتك على اللي يبيتو متعانقين ويصبحوا متفارقيـن ؟
(وهما دفتا أبواب الغرف (البيوت) في الدور القـديمـة)

ـ حاجيتك على طبيقنا نقي ما ياكل فيه لا سلطان ولا فقيـه ؟
(وهو شهر رمضان المعظم)

واما القصـص ـ الحكايات ، الخرافات ، الخرايف ـ وهو في معظمه عربي اسلامي ، فتصوير لحياة العرب واجدادهم وللاسلام وفتوحاته وممهداته بل تصوير للتاريخ كما كان يفهمه الشعب او كما كان يلقنه له الحكام . ولا بدع فقد كان هذا القصص وسيلة لتثقيف الجماهير والهاب حماسها . ومن منا لم يسمع قصة سيدنا علي وعنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن وبني هلال ولم يلتهب شعوره لما تسجله من معارك خلدت بطولات عربية اسلامية وما تردده من اصداء جاهلية سبقت الاسلام ولكنها مع ذلك تنبيء به وتدعو لـه . فعنترة وسيف وهما مضرب المثل في الشجاعة بطلان جاهليان يبشران بالاسلام ويكافحان من اجل انتشاره . واذا كان سيف يسعى وراء مهر شامة الذي هو جوهرة سليمان التي لا توجد الا في مملكة الجان

فان عنترة يسعى وراء مهر عبلة الذي هو الف من النوق العصافير التي لا توجد الا في العراق . وكما يدخل سيف مملكة الجان وتحل به مآزق وازمات يدخل عنترة العراق ليثير حربا مع النعمان بن المنذر . ويؤسر عنترة بعد ذلك فينتقل القتال الى الدولة البيزنطية حيث النزاع بين العرب والفرس ، ومنها الى الحروب الصليبية حيث القتال بين الاسلام والنصرانية او بين الحرية والاستعمار . وبعكس سيرة سيف التي تمثل الخلاف بين الساميين والحاميين فان سيرة عنترة تمثل الصفاء بين الجنسين ، فهي عرض شيق للقبائل العربية وعاداتها ونزاعاتها وما كانت تسعى اليه لمحو الفوارق الجنسية . اما الهلالية وتدور حوادثها الرئيسية في شمال افريقيا ، فتصور الصراع بين العرب والاسلام من جهة والبربر والوثنية من جهة اخرى . فبعد الحديث عن نسب الهلاليين وذريتهم وظهورهم في الجزيرة العربية تحدثنا القصة عن خروجهم الى شمال افريقيا ، وتسمى هذه الحلقة بالتغريبة ، لتصور لنا حملة تعريب البلاد ونشر الاسلام فيها . وبالرغم من ان قصة الهلاليين اكثر القصص التصاقا بالمغرب فهي على ما نعرف اقلها شيوعا وانتشارا . ولا شك ان هناك اسبابا عملت على هذه الظاهرة نرجو ان تكشف لنا عنها ابحاث اخرى تكون اكثر عمقا وتفصيلا .

واما مجموعة الف ليلة وليلة فاشهر من ان نتحدث عنها . فهي قصة الشعوب الاسلامية بكافة طبقاتها ومختلف الوان حياتها ، بالاضافة الى ما تصوره من علاقات المسلمين بغيرهم من الاجناس وأصحاب الديانات الاخرى . وقد شاعت خرافاتها لدى الكبار والصغار واصبحت مدار السمر في البيوت حيث تتصدى الام او الجدة لحكايتها في كثير من الاغراء والتشويق .

وقد كدنا ننسى نوادر جحا وما تصور من مآزق وازمات تعرض لها في اقامته وتنقلاته ولكنه خرج منها بسلوك ذكي واقوال ساخرة حكيمة هي عصارة تجارب في مختلف البيئات التي حل بها . فهو في هذا البلد او ذاك وهو في السوق والبيت وهو مع والده وزوجته وهو مع الناس وحماره ، مع كل هؤلاء وفي اي مكان ، يبدو جحا شخصية عربية شعبية مثالا للرجل الذي خالط الناس والحياة في كل زمان ومكان . وقد يبدو في بعض حكاياته وكأنه مغفل يلعب به ويسخر منه ، ولكنه في الواقع نوع من السلوك يلجأ اليه سرعان ما يكشف عن خطة حكيمة .

ثم نصل الى **الاشعار** وهي من اغزر انواع التراث الشعبي ان لم تكن اغزره بالفعل ، فنجد انفسنا امام خضم مختلفة اشكاله والوانه ، يحار الباحث في تبويبه ورده لاصوله . ومحاولة منا في هذا المضمار قسمنا الاشعار الى الفنون الآتية :

الملحون

الاغنية

العروبي

الموال

فالملحون – وهو من اللحن سواء بمعناه الغنائي او اللغوي – اهم هذه الانواع واقدمها . ولعله كما سبق ان اشرنا اليه (*) اثر من آثار الموشحات والازجال او هو استمرار لظهورها في المغرب .

فابن خلدون في مقدمته يذهب الى ان اهل الامصار بالمغرب قد استحدثوا فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية وسموه « عروض البلد » وكان أول من استحدثه فيهم رجل من اهل الاندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير . وقد نظم قطعة على طريقة الموشح لم يخرج فيها عن مذاهب الاعراب الا قليلا ، فاستحسنه اهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب الذي ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه اصنافا الى المزدوج والكازي والملعبة والغزل ، واختلفت اسماؤهم باختلاف ازدواجها وملاحظتهم فيها .

يقول ابن عمير في مطلع قصيدته :

أبكاني بشاطىء النهر نوح الحمام

على الغصن في البساتين قريب الصباح

ومن ملعبة الكفيف المكناسي الزرهوني يصف فيها هزيمة ابي الحسن المريني في القيروان .

(*) القسم الثاني من بحث الموشحات – مجلة دعوة الحق – السنة الخامسة – العدد الثالث .

سبحان مالك خواطر الامرا
ونواصيها في كل حين وزمان

ان طغاه عطفهم لنا قسرا
وان عصيناه عاقب بكل هوان

وممن برعوا في هذا اللون من الشعر غير المعرب ابن خبازة والحسن السبتي وغيرهما من الاسماء التي ظلت مجهولة لا ندري عنها شيئا .

كل هذا سبق ان ذكرناه وقلنا ان الملحون الذي لا زال يعيش بيننا حتى الآن ليس غير استمرار لعروض البلد ومرحلة من مراحل تطوره سواء في الشكل او المضمون . والاسف شديد ان ذخيرة هذا العلم الموهوب لم تسجل بعد يحتفظ بها الاشياخ (*) في صدورهم باعتزاز يضنون بها حتى على الدارس والباحث . ومع ذلك فقد حفظت لنا اسماء بعض الشعراء الاعلام كعبد العزيز المغراوي والتهامي المدغري والمصمودي وادريس الحنش وقدور العلمي ، كما حفظت لنا قصائد (*) لا زال الناس يرددون بعضها كالحراز والعرصة والنحلة والتوسل والخادم مع الحرة وغيرها من القصائد التي اصبحت نموذجا ينسج المنشؤون عليه .

وبالرغم من شعبية الملحون فانه لم يكن يعيش مع طبقة العامة من الناس فحسب ، وانما كان يعيش كذلك في بيئات خاصة كبيئة الصوفية الذين كانوا ينشدون قصائده في حلقات الذكر . ومن الامثلة على ذلك قصيدة للحراق يقول في اولها :

جاد علي برضاه

الحبيب اللي حبيت زارني وهم لي بالوصال

حين شرق نور بهاه

شفت حالي من القيت حاط بي وقهرني بالفصال

كلي في الحق فناه

واما الاغنية — ونقصد بها الاغنية الشعبية او ما يطلق عليه الغناية — فتكاد تكون من الملحون لولا ان شكلها اضعف بناء والفاظها اقل تهذيبا . والظاهر ان لها في كل بيئة ما يميزها ، فخصائص الاغنية في مدينة او قرية معينة هي غير خصائصها في مدينة او قرية اخرى بل قد تختلف التسميات وتتشعب الانواع من مكان الى اخر ، ومن طبقة الى اخرى من الناس . ولسنا ندري اذا كانت هذه الاغنية التي تسمعنا الاذاعة اياها ممثلة بحق لالوان هذا الفن الشعبي كما يعيش في مختلف المناطق وعند كل الجماعات .

وكالاغنية نجد العروبي او المزوكي يتخذ اشكالا تختلف باختلاف البيئات المحلية . واهم ما نعرف منه ذلك اللون الذي تنشده نساء المدن حين يطشن . وللطيش موسم خاص هو ايام عيد الاضحى حيث تعلق المطيشة ـ او المرجيحة كما يسمونها في الشرق ـ ويركبها البنات كل بدورها وتتصدى الام او الجدة لتطييشهن مغنية على كل واحدة . فهي تستهل مثلا بهذه المقدمة :

انا نا نا نا والمحبوب اللي هويت
يبقى ديما قدامي

وتاخذ في ذكر اوصاف الطائشة ومحاسنها ثم تختم بذكر اسمها كان تقول مثلا :

هاذك هي « فلانة »
المضوية على قلبي وعياني

وياخذ الجميع اثر ذلك في الولاويل والزغاريد الى ان تركب طائشة ثانية فتستانف المغنية الانشاد .

واما الموال فمن الفنون التي لا يختص بها بلد دون آخر من بلدان الامة العربية . وهو في كل منها يتميز بخصائص تحدد شكله وطابعه وانشاده . فالموال في الشرق عامة يستهل بـ « ياليل ياعين » في حين انه في المغرب كالعروبي يفتح بـ « انا نا نا نا .. » والموال العربي بعد هذا واحد او يكاد ان يكون ، فهو في الغالب بضعة اشطار من الشعر العامي تحكي في ايجاز حالة او قصة لا يلبث المغني ان ينتقل منها الى انشاد قصيدته . وظننا ان الموال لم يكن في اول الامر مقدمة للاغنيات وانما كان فنا مستقلا بذاته ينشد

---

* هذا هو الاسم الذي يطلق على اصحاب الملحون منشئين ومنشدين
* القصائد هو الاسم الذي تعرف به مقطوعات الملحون

وجده ويكتفي بسماعه . والموال بعد هذا قصة تحكي ميلاده ونشأته . ففي كتب الادب والتاريخ ان الرشيد حين حظر الشعراء من رثاء البرامكة اثر النكبة التي نزلت بهم . لجأ الناس الى الشعر العامي يعبرون به عما يكنون نحوهم . وفي هذه الكتب كذلك ان جارية جعفر البرمكي رثته بقصيدة كانت تردد اثر كل بيت منها « واموالياه » وان هذا كان سبب تسمية هذا الفن بالموال وربما بداية ظهوره .

ونصل اخيرا الى **المرددات** وهي تلك المقطوعات القصيرة التي قد لا تتعدى الشطرين والثلاثة والتي تؤلفها الجماهير وترددها في مختلف المناسبات . وقد كنا نود الحاقها بالاشعار لولا انها لم ترق بعد الى مرتبتها شكلا ومضمونا . والمناسبات اكثر من ان تحصى عددا ، ومع ذلك فمن الممكن حصر اهمها كالافراح والمآتم والوطنيات .

ففي الافراح تدخل المواسم والاعياد والاعراس وغيرها من المناسبات الخاصة . ولكل منها لون او الوان من المرددات تتغنى بها الجماعة طربا وحبورا .

وهذه مطالع بعض المرددات الخاصة بالافراح :

موسم شعبانة : اللا منانة

اجي تكوني بنتي
وندير و شعبانة
بالخوخ والرمانة
والساقية تسقيني

شهر رمضان المعظم : عودة اكلت رمضان
بالخوخ والرمان

الاعراس : اداها وداها والله ما خلاها
اداها وداها سيد الرجال

وفي المآتم وخاصة لدى البوادي تجلس النادبات يبكين الفقيد ويعددن محاسنه وما ستصبح عليه الاسرة بدونه . وقد تمثل هذا اللون في الاغنية الحزينة التي انبعث اثر موت المغفور له محمد الخامس والتي اولها :

ما شاء الله أسيدي ابن يوسف الحبيب

اما الوطنيات فتتمثل في تلك العبارات والاهازيج التي كان يرددها الناس في ايام الكفاح وعند اعلان الاستقلال والتي كانت صدى لمعركة التحرير كقولهم تمجيدا للدار البيضاء التي كانت مركز الفداء :

تساريت كل البلدان
بحال كازا ما كان
تم اولاد الوطن
تحضر وبجود الله

او كقولهم تهكما على العميل ابن عرفة :

اللا هنية
جانا الملك بلا نوبة
ما بين الصبح والعشية

وكقولهم فرحا ببزوغ فجر الاستقلال وحثا على العمل لبناء هذا الاستقلال والمحافظة عليه :

ايها الرجال
هذا وقت العمل
استعدوا للنضال
يحيا الاستقلال

كذلك لا نريد ونحن نتحدث في هذا المضمار ان نغفل عن بعض المرددات الخاصة كالانشودات التي تغنيها الامهات وهن يرقصن اطفالهن او يداعبنهم ، وكالاهازيج التي يرددها العمال للتنشيط والترفيه عن انفسهم اثناء العمل ، وكالادعية التي يتسول بها الفقراء وغير هذه من المرددات التي لن نطيل بذكرها .

وبعد فهذه لقطات من ادبنا الشعبي الذي ينعى حظه في زوايا الاهمال والنسيان ، والامل كبير في ان تعيره الدولة اهتمامها وتعمل على تكوين باحثين متخصصين يتصلون بالشعب في المدن والقرى والبيوت والاسواق والمجالس العامة والخاصة يسجلون افكاره وقصصه وامثاله واغانيه وعاداته وعواطفه وطاقاته ومختلف الوان حياته ، ويدرسون في موضوعية ومناهج هذا التراث الذي لا زال حيا على لسان الشعب وفي قلبه وتقاليده ومعتقداته وفنونه معبرا اصدق تعبير عن شخصيته وعبقريته . على اننا لا نريد فقط ان نجمع تراثنا الشعبي لنحميه من الضياع ونحفظ له صفته الفولكلورية لنرى فيه ماضينا المجيد، وانما نريد ان يكون هذا التراث اساسا يطوره الادباء والفنانون ويخلقون منه شيئا جديدا يعني بالفنية وقيمها .

كذلك نريد ان يهتم بالفنان الشعبي لينهض بفنه وياخذ مكانه في ميدان الادب . وما من شك في ان هذا النهوض مرتبط بوجود النقاد الشعبيين الذين يدرسون تراث الشعب مزودين بثقافة شعبية هائلة الى جانب ثقافة فنية وتجربة نقدية . حقا انه مضى وقت لم يكن يهتم فيه بالفنان الشعبي وانما كان يهتم بالنص على انه نتاج مشترك بين عامة الشعب ، ولكننا اليوم لا نريد ان ندرس الآثار الشعبية على اساس انها حصيلة القيم الحضارية والفنية القديمة فقط ، وانما كذلك على اساس فنيتها اي بدراسة النص وصاحبه .

القاهرة : عباس عبد الله الجراري

التعريب مشكلة حضارية

للأستاذ رشيد نجار

لقد مرت على هذه الدول المتخلفة والتي كتب عليها ان ترى الظلمات تتكاثف في سمائها بفضل اولئك الاوربيين الذين كانوا لا يزالون يحملون النور، نور الحضارة والعلم، مر على هذه البلاد المتاخرة عدة تجارب ونحن جعلتها هدفا للمشاكل والمعضلات التي يعسر حلها الا بمرور الزمن وتوافر العزائم والروح البناءة.

والعالم العربي ينتمي للعالم الثالث او البلاد المتخلفة، ذلك انه اصاب حظا وافرا من ظلمات الغرب، واستعمار الاجنبي لقدرات ارضه وسيطرته على امكانياته المادية والروحية لمدة عقود من السنين.

هذا واقع لا مراء فيه.

وهو واقع قد جر الى نتائج معروفة، وهي الآن محل ابحاث وكتابات عديدة ظهرت مؤخرا في لغات عديدة، وعرفت بابحاث « حول العالم المتخلف » او « العالم الثالث » ـ، لكن هذه الابحاث في الغالب تبدو ذات طابع اقتصادي اكثر منها اجتماعي او ثقافي.

ولكن الواقع هو ان الاساس الاول لمشاكلنا يكمن في الثقافة قبل كل شيء، ولا سيما في العالم العربي، ذلك ان هذا العالم الاخير، قد شملته موجة التاخر بعد ان كان مركز حضارة انسانية شامخة، والحضارة ليست في اساسها الا اجتماع وملتقى لمختلف الثقافات تنطبع بطابع ذلك الشعب التي امتزجت بروحه وانصهرت في لغته وتقاليده، فالحضارة الاسلامية كانت حضارة عربية قد سيطرت فيها لغة الضاد على جميع المظاهر الاجتماعية لحياة المسلمين الذين دخلوا هذا الدين من جميع الاجناس في العالم القديم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا.

واذا ما اردنا اليوم ان نبحث في مشكل التعريب، وافضل ان اسميه مشكل انشاء تمدن او حضارة عربية حديثة، فعلينا اولا ان نستعرض التجربة الاولى التي واجهها المسلمون الاولون، في العصر الاموي، ثم مقارنة امكانياتنا بامكانياتهم، واخيرا يجب استعراض العراقيل التي تقف امامنا، ولنختم بتلمس الحل الصحيح والواقعي للمشكل: مشكل التعريب في بلاد العرب.

ولكن قبل ذلك، يجب ان نتساءل عما اذا كان يصح ان نقارن حالنا بحال العرب الاول في هذا الباب؟ وهل تصح المقارنة بالتالي لحالنا بحالهم مع فوارق الزمن الطويل، واختلاف نوع المشاكل، ونوع التقدم واختلاف وسيكولوجية الكائن الحي نفسه؟.

الواقع ان هذه الفوارق موجودة بالفعل: ولعل في هذه الفوارق يكمن الجزء الهام من الجواب على مدى امكانية نجاح حملات التعريب: ذلك ان الفرق الجوهري هو المتعلق بنفسية الجماعات:

فالعرب الاولون كانت بهم حاجة ملحة اكيدة للتعريب: تعريب الادارة اولا، وتعريب العلوم والاقتصاد ثانيا، وتعريب الفلسفات، واخيرا تعريب الاجناس الاخرى التي انهالت، هي الاخرى، على الثقافة العربية والثقافة الاسلامية المعربة تغرف منها ما شاءت، وتعمل على نشرها وتوسيع آفاقها ما استطاعت وهكذا كان التعريب بالنسبة للعرب الاولين، ولا سيما في العهد الاموي ابتداء من عهد عبد الملك بن مروان ثم من بعده من الخلفاء البناة كالوليد بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ثم هشام، كان التعريب بالنسبة لهم حاجة اجتماعية، وكانت لهم الرغبة الصادقة في ذلك، لان المشكلة تتعلق بالكرامة قبل كل شيء: فقد اصبحت الدولة لها كيان عالمي، ولها صبغتها الرسمية، واستقرارها الكافي للتفكير في مثل هذه الشؤون الخطيرة.

فهل نحن الآن نتوفر على هذه الروح الثورية القوية في معالجة شؤوننا القومية الخطيرة كمشكل التعريب ؟ اننا عرب ومسلمون ، ولكننا من مسلمي وعرب القرن الرابع عشر الهجري . والفرق الزمني له دخله الكبير في هذا الموضوع . فالمشكل الحقيقي الآن هو مشكل بناء الدولة الحديثة : فنحن نهدف الى دولة قوية بالعلم والمعرفة ، ولم نعد نهتم بروح العقيدة او الاساس القومي الذي تقوم عليه . فالحركات السياسية عندنا تهدف الى تحقيق ما يكفل فقط تقليد حضارة الغرب . وفي نفس الوقت نتجاهل امرا هاما في قضية التطور بالنسبة للغات . ذلك اننا نطالب اللغة ان تكون دائما في موقف الغازي ، او القوي الذي يتقبل كل شيء بسرعة . لكن الواقع هو ان اللغة ، تعتبر اهم مظهر اجتماعي لدى الشعب الذي يتكلمها . ولذلك فهي تخضع للتطورات الحضارية التي تعتري ذلك الشعب . وعندما واجهت اللغة العربية قديما ، في عهد الامويين ، مشكلة التعريب لم يشعر العرب ابدا بان هذه اللغة ستعجز عن تقبل الجديد ، بل كانت هناك حاجة اجتماعية لتوسيع دائرة هذه اللغة بتلقيحها بالفكر الاجنبي ، واللغات الانسانية كلها مر عليها هذا الطور من التلقيح ، واذا كان بعض هذه اللغات المتحضرة قديما قد عجزت عن مواصلة السير، كاللاتينية مثلا ،فان المشكل بالنسبة لها مشكل انقسامات بشرية تحت ظروف متعددة ادى الى تفتيت فروع منها وتباعدها تباعدا كبيرا ، اما العربية فقد استطاعت ان تقهر جميع محاولات التجزئة او الانفصال على الرغم من تعدد هاته المحاولات في القرن الماضي وفي بداية القرن الحالي ايضا ، عندما ظهرت فكرة الاكتفاء بالعاميات في البلاد العربية ، او فكرة الاخذ بالاحرف اللاتينية نهائيا لان بها حركات عديدة مكتوبة ومحددة للحركات الصوتية ، او غير ذلك من الدعوات التي ظهرت في العالم العربي على لسان المرددين لافكار الغرب من الممسوخين الذين شعروا باليأس والعجز عن التطور .

ان التطور لا يتوقف ، وليس هناك شعب في الارض لا يتوفر على امكانيات خصبة لمواصلة تطوره في طريق مستقيم ، ولكن قصيري النظر من ابناء الشعوب الناهضة كثيرا ما يعرضون حلولا متحرقة او غير ناضجة .

اذا ، فالخلاصة الاولية من هذا الحديث هي ان هناك فوارق بيننا وبين عرب العهد الاموي ، وليست هذه الفوارق في صفاء العرق العربي او عدم صفائه ، فالحضارات الحديثة او القديمة لا تقوم على صفاء العروق وحياة اللغة لا تطول ايضا بصفاء العرق بل انها فقط تخضع في حياتها وتطورها للعوامل الجغرافية وحركات الغزو من الخارج ، انما هذه الفوارق تكمن فيما يلي :

1) اختلاف نفسية العربي ، نفسية الكائن الحي، فنحن الاشخاص المتحركون تلقى علينا مشكلة ومسؤولية انجاز المشاريع الحيوية مثل التعريب ، وقد كانت نفسية العرب الاولين قاهرة شديدة الايمان

2) والذي يعوزنا اليوم هو الايمان الصحيح بجدوى وقوة العربية كلغة ، يجب ان نؤمن بامكانية قيامها في وجه اللغات الاخرى واداتها لواجب التحضر: اي تقبل الفكر الاجنبي وهضمه وانتاج ما يعادله ، ولكن كيف يكون ذلك ؟

مما لا شك فيه ان العربية دخلت عهدا جديدا منذ منتصف القرن الماضي ، ولكن قليلين من مثقفينا هم الذين يعرفون ذلك ، ولا سيما في المغرب العربي، اولائك الذين يطلعون على المكتبة العربية . ولا اريد ان اقول ان هناك اختراعات وافكارا جديدة في الحضارة وجدت في العربية ، وانشاها عرب ، ولكني اقصد ان العربية الآن في طور التلقي من الخارج ، في عهد الترجمة، ومحاولة هضم الحضارة الحديثة ، وهذا الهضم نفسه لا يمكن الا اذا وجد القراء بعد الكتاب والمترجمين ، والمكتبة العربية الآن غنية اذا ما قورنت بغيرها ، لامراء في ذلك .

ومن وجهة بسيكولوجية نجد ان الشخص المتخلف او المسود يتطلع دائما الى ما يقوله السيد ، خطا او صوابا ، ويحتقر كل ما يقوله اخوه ، هذه فكرة بسيطة طبعا نلاحظها في كل ميدان ، ولكنها تبدو بوضوح في هذا الميدان الثقافي اكثر من غيره .

ولذلك فنحن في حاجة الى الايمان بالنفس في كل ميدان . الايمان الثوري الذي يعرف الشخص فيه انه ضعيف ، ولغته ضعيفة ، وامكانياته غير كاملة ، ومع ذلك يجب عليه ان ينهض ، يجب ان يقدم لولده ما عنده ويرشده الى مواضع الضعف ليكسب ذلك الشيء قوة .

والامر الذي ينطبق على الناحية الثقافية بمعناها الواسع ينطبق ايضا على الادارة مثلا ، والمدرسة ، والنادي ، وغيرها من مظاهر حياتنا الاجتماعية ، واني هنا اكتفي بالناحية الادارية من مشكلة التعريب ، ثم اعالج اسبابها العامة بايجاز ، والحل الممكن كما يتطلبه الواقع العملي .

الرباط : رشيد نجار

السياسة الدولية بين سنتي ١٩٠١ و١٩٠٧

ترجمة الأستاذ عبد الحق بنيس

تعتبر هذه الفترة مرحلة حاسمة في تاريخ العالم المعاصر ، واستجابة « لدعوة الحق » وخدمة للثقافة القومية في هذا البلد الامين ، اقدم الى قراء المجلة الافاضل هذا المقال المترجم من كتاب للعلامة بيير رونفن استاذ التاريخ بجامعة السوربون . والكتاب المتحدث عنه يشكل الجزء السادس من سلسلة « تاريخ العلاقات الدولية » ، ويختص بمعالجة هذه العلاقات من سنة 1870 الى غاية 1914 . وقد اعطانا المؤلف موافقته ـ ونحن له بالشكر مدينون ـ على نقل هذا الجزء الى اللغة العربية . ويسرني بهذه المناسبة ان ازف الى قراء لغة الضاد ان الكتاب المترجم هو الآن قيد الطبع وان الجهود ستواصل ان شاء الله ، لتزويد المكتبة بباقي اجزاء هذه السلسلة التاريخية الهامة .

عبد الحق بنيس

تميزت العلاقات بين الدول العظمى في الفترة الواقعة بين 1901 و 1907 بخصائص جديدة : فمن جهة ادى التوسع خارج أوروبا الى قيام حرب بين روسيا واليابان ثم الى التهديد بالحرب بين فرنسا والمانيا ؛ ومن جهة اخرى تحول جهاز الاتفاقات والاحلاف بين الدول الاوروبية الى الاتفاق الفرنسي ـ الايطالي سنة 1902 والاتفاق الفرنسي ـ الانجليزي سنة 1904 . والاتفاق الانجليزي ـ الروسي سنة 1907 . فما هي العلاقة يا ترى بين هذين المظهرين اللذين ميزا الحالة الدولية آنذاك ؟ .

اولا : تضارب المصالح الاستعمارية بعضها مع بعض .

لقد امتدت جهود التوسع ، وما تبع ذلك من مشاحنات بين الدول الاوروبية الى مناطق جديدة من العالم . كان ذلك في الوقت الذي اخذت فيه كل من الولايات المتحدة واليابان في توسيع رقعهما الارضية او مناطق نفوذهما على حساب الاوروبيين .

وقد تضاربت مصالح الدول العظمى الاوروبية في كل من بلاد فارس وآسيا الصغرى واثيوبيا وفي بلاد المغرب الاقصى بوجه خاص .

كانت طهران محط صراع بين بريطانيا العظمى وروسيا منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر ؛ اما في هذه الفترة فقد ازداد هذا التطاحن حدة وخطورة؛ ذلك ان الحكومتين كانتا تستغلان فراغ خزينة الحكومة الفارسية للحصول على امتيازات التنقيب عن المعادن أو مد السكك الحديدية مقابل تقديم القروض . وكانت تكمن وراء هذه المعاملات الاقتصادية والمالية مصالح دفاعية ؛ لان الحكومة الروسية كانت تحلم بمد سكة حديدية تصل حتى الخليج (الفارسي) (*) ؛ الامر الذي من شأنه أن يهدد سلامة الهند . وفي سنة 1906

(*) نابى نحن العرب الا ان نسميه بالخليج العربي . اما المؤلف فقد سماه بالفارسي ولذا وضعت القوسين (المترجم) .

حدثت ازمة داخلية في فارس (ايران) — قامت حركة ثورية بتحريض من اصحاب الافكار « الغربية » للتنديد بالاساليب التعسفية التي تنهجها الحكومة كان من شانها ان ارهقت مالية الدولة ؛ وبالتالي منحت فرصا جديدة للمساعي المتضاربة التي تبذلها الدولتان الاوروبيتان . الا ان هذا التطاحن قد سوى في غشت 1907 بحل وسط الا وهو تقسيم فارس الى منطقتي نفوذ اقتصادي ؛ منطقة روسية في الشمال واخرى انجليزية في الجنوب الشرقي . اما ما بينهما فمنطقة « محايدة » .

وفي آسيا الصغرى اخذت الهيئات المالية الانجليزية والالمانية والفرنسية تسعى منذ سنة 1890 في الحصول على امتيازات مد السكك الحديدية ؛ والحقيقة ان المانيا هي التي حازت قصب السبق في هذا الميدان : فقد حصل المصرف Deutsche Bank بمساندة من حكومة برلين ، على امتياز هام من الحكومة العثمانية وكان ذلك سنة 1903 . وهذا الامتياز عبارة عن شبكة واسعة من السكك الحديدية في الجزء الاكبر من الاناضول وبلاد الرافدين (دجلة والفرات) . وكان شريانها هو الخط الحديدي الرابط بين البوسفور وبغداد ، ومن هذه الى الخليج (الفارسي) . فلقد فسح هذا العقد مجالات واسعة من الناحية الاقتصادية امام المانيا ، وكذا الشأن فيما يرجع للناحية السياسية فهو ينطوي على تهديد للمصالح المالية الفرنسية — حيث ان القسط الاوفر من اسناد الدين العثماني كان في اياد فرنسية — بل وادهى من ذلك مصالح كل من بريطانيا العظمى وروسيا : كانت بريطانيا العظمى تخشى ان تفقد ذلك الموقف المهيمن الذي كان لها من الوجهة الاقتصاديةفيبلاد الرافدين منذ قرنين من الزمان اذ كانت ترى بوجه خاص ان الخط الحديدي سيعرض سلامة الهند للخطر ان هو امتد حتى الخليج (الفارسي) اما روسيا فكانت ترى في هذه الشبكة الحديدية وسيلة من وسائل تعزيز الدولة العثمانية ، اعني ان الشبكة سوف تسهل على هذه الدولة نقل قواتها المسلحة الى جميع اطراف الامبراطورية . الا ان « مسألة خط حديد بغداد » لم تؤد في اي وقت من الاوقات الى نزاع حاد بين الدول العظمى . ولم تبرز مقاومة المشروع الا في الحقل المالي : فقد اقفلت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا اسواقها المالية في وجه القروض التي ارادت ان تجريها الشركة الالمانية ؛ وقد نجحوا حينا من الدهر في تأخير انشاء السكة الحديدية لكنهم لم يتوصلوا قط الى احباط المشروع من اساسه .

وفي افريقيا الشرقية ظلت اثيوبيا (الحبشة) التي حافظت على استقلالها في سنة 1896 عند ما حاولت ايطاليا غزوها ، ظلت خاضعة لضغط المصالح الاجنبية . فقد حصلت فرنسا على امتياز مد سكة حديدية من دجيبوتي الى اديس ابابا تم اخذت تسعى في احتلال مكانة بارزة في الحياة الاقتصادية . وكانت بريطانيا العظمى تراقب هذا العمل وتعاكسه اذ كانت لا تريد على الاقل ان يقع الجزء الشرقي من البلاد ، — منطقة بحيرة تانا والنيل الازرق — في قبضة دولة عظمى اخرى ؛ وقد وقفت نفس الموقف ازاء ايطاليا التي ارادت ان تستانف جهودها في التوسع دون اللجوء الى استعمال وسائل العنف . وفي سنة 1906 توصلت الدول الثلاث الى حل وسط وهو تقسيم اثيوبيا الى مناطق نفوذ اقتصادي .

والمسألة المغربية دون سواها هي التي كادت ان تعرض السلام العالمي للخطر فكيف كان ذلك ؟ لقد كانت مشاريع الاستغلال الاقتصادي من الاهمية بمكان، ولم تظهر هذه الاهمية لكون المغرب الاقصى فحسب يملك موارد معدنية خصوصا في منطقة الريف وانما لكون « تجديد » البلاد سيتيح فرصا امام مشاريع انشاء السكك الحديدية او تجهيز الموانيء . ولم يكن الشواغل الدفاعية — رقابة الطرق البحرية الكبرى — اهمية اقل ما دام للمغرب واجهتان ، احداهما على البحر الابيض المتوسط وثانيهما على المحيط الاطلسي : فالمسألة اذن تتعلق بحرية المرور في مضيق جبل طارق وبحرية الاتجار على طول الطريق البحرية الرابطة بين اوروبا وبين رأس الرجاء الصالح . يضاف الى هذه العوامل شاغل خاص بفرنسا وهو تأمين سلامة الجزائر باحتلال مجموع اقطار المغرب ، فان لم تفعل فقد تأتي دولة عظمى اخرى وتقوم بنفس العمل .

اما وان فرنسا قد اخذت ؛ في التسرب الى المغرب الاقصى ، زمام المبادرة فهذا مالا يدعو الى الاستغراب . حقا ان جول فيري في سنة 1884 كان قد رغب عن اقحام السياسة الفرنسية في مسألة قد تكون اهميتها الدولية من الخطورة بمكان . الا ان الحزب الاستعماري في سنة 1902 اصبح يدعو الى القيام بهذا العمل . ونادى بذلك من على منصة «مجلس النواب » زعيمه اوجين اتيين Eugène Etienne كانت الاساليب التي اتبعت للتغلغل في المغرب الاقصى اساليب اتباعية (كلاسيكية) : كتقديم الموارد المالية التي يحتاجها السلطان لتنظيم ادارة دولته وارسال مدربين عسكريين لجيشه ؛ حيث ان بعض القبائل

المغربية كانت تشق عصا الطاعة . وقد اصطدمت هذه السياسة بيريطانيا العظمى التي لم يغب عنها ما ستجنيه حاضراً ومستقبلا من فوائد تجارية في الدولة المغربية ، سيما وانها كانت تهتم على الخصوص بالمحافظة على الطرق البحرية ؛ وهددت هذه السياسة كذلك مصالح اسبانيا ، فهذه تملك منذ القرن السادس عشر ما نسميه (بالحصون) على الضفة الشمالية المغربية ؛ واثارت هذه السياسة كذلك حنق المانيا التي ارادت ، وقد اتت متأخرة جداً في تقسيم العالم ، ان لا يسوى خارجا عنها مصير « بلاد بكر » لا زالت بعد محتفظة باستقلالها . وقد حصل دبلكاسيه (*) بواسطة اتفاقات 8 ابريل 1904 على تخلي انكلترا عن كل عمل في المغرب مقابل تخلي فرنسا عن كل ادعاء في مصر ؛ ثم تخلى لاسبانيا في اكتوبر 1904 عن جزء بسيط من المغرب ، الا انه كان عازما على اقصاء المانيا من الميدان . وقد صرح بذلك تصريحا لا غبار عليه ، منذ بداية المفاوضات مع انجلترا واسبانيا ؛ قال : حيث ان الامبراطورية الالمانية لا مصالح لها في المغرب الاقصى « فان الحكومة الفرنسية ترغب في اقصائها » .

ولم تبرز السياسة الالمانية في الميدان الا في مارس 1905 . ذلك ان الزيارة التي قام بها غليوم الثاني لطنجة حيث نصب نفسه حاميا لاستقلال المغرب الاقصى ، فسحت المجال لحدوث ازمة دولية ظلت ازيد من سنة مستعرة الاوار . كانت الحكومة الالمانية تتحدث في البدء عن المطالبة بحظها من المغرب ، وما لبثت ان تخلت عن هذا الحل ؛ ثم انها ابعدت كذلك كل الاحتمال للتخلي مقابل عوض . ان البرنامج الذي اخذت به المانيا هو « تدويل » القضية المغربية . قال بولوف Bülow الوزير الاول الالماني : « انني ارى ان لا مندوحة من عقد مؤتمر دولي ؛ فهذا المؤتمر سوف يمنع فرنسا من ان تنفرد ببسط سيطرتها على المغرب الاقصى » . وعلى الرغم من نظرية رئيس اركان الحرب ، فان الحكومة الالمانية لم تكن عازمة على الذهاب الى اعلان الحرب ؛ بيد ان الديبلوماسية الالمانية قد لجأت الى وسائل التهديد والوعيد ، وقصدها من ذلك انما هو ارغام الحكومة الفرنسية على قبول عقد المؤتمر : فقد ضغطت على الراي العام الفرنسي « وزرعت الرعب في قلبه » ، مستغلة الخلافات التي وقعت بين رئيس مجلس الوزراء روفيه Rouvier وبين وزير الشؤون الخارجية ولم يصادف هذا الضغط نجاحا في الراي العام والبرلمان فحسب وانما تعداه الى كبار الموظفين في وزارة الشؤون الخارجية . ففي 6 يونيه 1905 قدم دبلكاسه استقالته بضغط مباشر من المانيا ، فما كان من روفييه الا ان اذعن لفكرة المؤتمر .

الا ان هذا التدويل الذي اصاب القضية المغربية كان بعيداً من ان يحقق للسياسة الالمانية ما كانت تصبو اليه من مطامح . فعند ما التام عقد المؤتمر الدولي في الجزيرة (*) من يناير الى ابريل 1906 كانت وجهة النظر الفرنسية مدعمة من جانب بريطانيا العظمى وروسيا وايطاليا وحتى من قبل الولايات المتحدة . واذا كان عقد الجزيرة قد اعلن ان المغرب الاقصى دولة مستقلة ، الا انه خول لفرنسا الاداة التي ستمكنها من القيام بعملها السياسي ، اي السماح لها ولاسبانيا كذلك بحق تنظيم الشرطة في الموانىء المغربية، غير ان اسبانيا في هذه الآونة – وهذا ما لاحظه بولوف نفسه – كانت تحتل بالطبع مكانة « التابع » . ومع هذا فقد احتفظت السياسة الالمانية برهينة سوف تمكن بواسطتها من التأثير على السياسة الفرنسية كلما كان هنالك خرق للميثاق .

وهكذا ففي الوقت الذي سويت فيه النزاعات بين ايطاليا وفرنسا ، وبين بريطانيا العظمى وفرنسا ، وفي الوقت الذي اتاحت فيه هذه التسوية ، بالنسبة للعلاقات بين الدول وبالنسبة لاوروبا ذاتها ، فرصا جديدة للتفاهم ، في هذا الوقت اتت الامبراطورية الالمانية واكدت بنهجها لهذه السياسة في آسيا الصغرى والمغرب الاقصى ، ارادتها في الحصول بخصوص تقسيم العالم على مكانة تتناسب وطاقتها الاقتصادية وقوتها الحربية .

(يتبع)

مكناس : **عبد الحق بنيس**

---

* وزير الشؤون الخارجية الفرنسية آنذاك (المترجم) .
* تعرف بالجزيرة الخضراء في المؤلفات العربية . وتقع في جنوب اسبانيا (المترجم) .



الله أكبر تم النصر

لمعالي الفقيه العلامة وزير القصور الملكية
محمد معمري الزواوي

القيت هـذه القصيـدة بيـن يـدي صاحب الجلالـة الملك الحسن الثانـي عنـد زيارتـه للقطـر الجـزائـري الشقيـق

« الله اكبر تم النصر والرجـب ... الـلـه اكبـر لا هـم ولا نصـب »
زال التفرق بين القـوم تـم لهـم ... جمع السلامـة لا كسر ولا رهـب
سعيت مـولاي بالحسنى لتجمعنـا ... وجمعتنا خير ما ينضى بـه الكـرب
ابن الجزائـر وابن تونـس وقـدا ... يصافحـان اخـا فـاس ولا عجـب
صوت الاخـوة من ليبيـا يبشرنـا ... عـم الولـام والاستعمـار ينتحـب
اخوة الدين والـدنيـا تحث لكـي ... ينظمـوا مغربا تحيـا بـه العـرب
كـل احـل بركن العـز من وطـن ... وهـل بموطنـه الانسان يغتـرب
ان فرقت جمعهم عناصـر اختلفت ... جنـا ومـدت لشر نزعـة طنـب
في عهد جهل فرى التفريق جمعهـم ... واذعنـوا لعـدا بالفكـر ينسـرب
جاء انبثاق هدى الاسلام يجمعهـم ... خيـر اتحـاد بديـن الـلـه يكتـسـ
اضحى بـه مغرب الاسلام موطن عـ ... ـز للعـلا نسـبة تعلـو بها الرتـب
وانمـا المومنـون اخـوة نـزلـت ... مـن السمـاء هـدى دينهم النسب
وزاد وحدتهـم عـزا جهـادهـم ... صفـا قـويا لنصـر الله يحتسـب
نفتحـوا لهـدى الاسـلام انـدلـسـا ... اضحت بهـم جنـة تمت بها الرتب

فى سبعة من قرون الدهر عزتهم   تزهو ارتقاء ولا تدري لها حجب
سموا بدين وعلم فى هدى خلق   وبالمكارم شادوا كل ما يجب
بهم تخضرت الاقطار اجمعها   فاض الثراء وعم السوقة الذهب
ساد العلائق انصاف ومكرمة   وارغد العيش علق الكسب والنشب
تزينهم لغة تربو محاسنها   عن الجمال الذي تبعثه الشهب
حسن انسجام الى وجازة جمعت   فى رقة كل ما يزهى به الادب
كفى بها لغة القرآن مفخرة   لها الدوام بحفظ الله مكتسب
كما توحد بالاسلام شملكم   زيدوا بها قوة يكمل بها الطلب
تجمعوا امة تبنى لعزتها   قصور مجد وخير سمتها العرب
بنى بدستوره بنود محمدة   تنيرها شمس عدل مالها وقب
اس اعتدالا امور الناس بينهم   شورى لذاك كتاب الله يندب
لا تعجبوا ان تروا منه المفاخر تت   ـرى او تته بفضله النخب
فمن ابيه ابى التحرير من زهرت   وادركت نعمة استقلالها الرحب
محمد الخامس الباني بهمته   عزا تقاصر عنه الجحفل اللجب
تيهي جزائر ابن المصطفى وقد   ضيفا كريما وعم حينا الطرب
احيا القلوب وشمل العرب ملتئم   فى ظله اذ امير المومنين اب
انى يشاهد ما عانيت من محن   بلية من عدو كله عطب
طوال قرن وثلث يعتدي شرسا   لمحو دين عنت لعزه الحقب
محاربا لغة القرآن منتهزا   كل الوسائل فيها المكر واللقب
وناشرا ظلمه جهلا ومسغبة   لم يجده مكره نفعا ولا السغب
حتى ارتئيت الجهاد فى مصابرة   فيها قتال اماتة ومضطرب
محققا بعد سبع من سنى ثورة   الله ينصر والايام تنقلب
بشارة الخير والفتح المبين تجلـ   ـلى نيرا عهده يدنو ويقترب
زيارة الحسن الثاني يؤرخها   الله اكبر تم النصر والرحب (※)

الرباط : محمد معمري الزواوي

※ يشير الشاعر بهذا الشطر الى التاريخ الهجري للزيارة الملكية الى الجزائر وتفصيلها كما يلي الله : 66 ، اكبر : 233 ، تم : 480 ، النصر : 371 ، و : 6 ، الرجب : 236 ، ومعلوم ان مجموع هذه الارقام يوافق 1382 هـ .

يا هابطا أرض الجزائر مرحبا

لشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء

القيت هذه القصيدة بين يدي صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني عند زيارته للقطر الجزائري الشقيق

خطرا معا ، فتراقص البلدان ... وتعانقا ، فتعانق العلمان

وترافقا ، يحدو الجلال خطاهما ... ويقودها فى رقة وحنان

وتناجيا : فاخضل من نجواهما ... غالي المنى ، وتوحد الهدفان

وتعاهدا : ان لا حدود بمغرب ... يسمو بنيل عقيدة ولسان

حسن واحمد : جل من زكاهما ... وتبارك الرجلان والاسمان

والمغربان ... جزائر ومراكش ... شرقا حمى ، وتبارك القدسان

والشعب حول رئيسه وشقيقه ... متواجد كالعاشق الولهان

والموكب المحور يزحف هادرا ... يزجيه حب صادق واماني

فكان هذا الركب فيه رسالة ... وكانما هذا الهتاف معاني

يا هابطا أرض الجزائر ... مرحبا ... ارض الجزائر مهبط الشجعان

الدار دارك ، نحن مثلك صلبنا ... فى العرب من مضر ومن عدنان

فانزل عزيزا فى بلادك مكرما ... لك فى الجزائر حرمة وتهاني

الك فى الجزائر ، وهي قلب نابض ... قلب بحبك دائب الخفقان

فاقبل هتافات الوفود تحية ... وكرامة لشبابك الريان

واسمع لروح محمد صلواتها ... ومحمد من اخلص الاعوان

قد كان اول من اجاب نداءها ... وابيت الا ان تكون (الثاني)

ان الجزائر فى الوفاء نبيلة ... لم تنس ناصرها على الطغيان

لم تنس من كانوا أساة جراحها ... والمخلصين لها بكل مكان

والمسعدين جهادها بسلاحهم ... لا بالصلاة و (سورة الرحمن)

ان العواطف لا ترد قواصفا ... لم تعترف بالمدمع الهتان

ليس الحديث مع الحديد بنافع ... فصل الخطاب : مقالة النيران

يا اخوة في بؤسنا ورخائنا ... وسواعد الميدان والبنيان

رحم توحدنا ، وتربط بيننا ... دمم ، وتجمعنا يد الحدثان

فتفيئوا ظل الجزائر واشهدوا ... شعبا ابيا لم يلن لهوان

من كل طفل هدهدته قنابل ... رضع الحليب بفوهة البركان

وتكفل الدمع الحبيب فطامه ... وتعهدته مذابح القربان

شعب تحداه الزمان فسخر الـ ... ـفلك العنود الدائم الدوران

وحباه طول كفاحه واناته ... علما فصار معلم الانسان

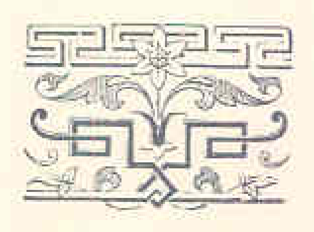
انا شاعر : وبوحيه وبيانه ... اعجاز آياتي ، وسحر بياني

وقعت الحاني على وثباته ... وعزفت بين ضلوعه أوزاني

ان قصدت لغة الكلام فقيضها ... عمد الفؤاد وضاق عنه لساني

فتقبلوها من لدنه تحية ... تهفو بصدق جنانه وجناني

الجزائر : مفدي زكرياء





يا ربيع الزمان اقبلت تختا   ل وتغري قلوبنا بالحياة
وتجليت في مواكبك الفـ   ـر بديع الحلى جميل السمات
ضاحكا تملا الحياة سرورا   وجمالا وتبدع الاغنيات
هذه الارض فى ظلالك سكرى   تتغنى بروائع الاغنيات
خلعت بدلة الكآبة عنها   وبدت فى غلائل النيرات
وتلقتك بالمباهج فيها   من جميل الفنون جمع الشتات
روعة الرسم فى نسيج بديع   وغناء الطيور فى نغمات
وخرير المياه لحن شجي   وزهور تميل فى رقصات
ونسيم يداعب الجو رفقا   وضياء يبدد الكربات
وتراتيل للطبيعة تدعو   خالق الكون اصدق الدعوات
منظر يملا القلوب شعورا   بمعان نبيلة مشرقات
فتهيم القلوب فى كل جو   باهر السحر رائق الجنبات
افق لا ترى به الروح الا   بهجة فى روائع اللمحات
انه موسم الطبيعة والشعـ   ـر وعيد الجمال والفرحات
يغمر الكون نشوة ويوافي   امل العاشقين بالمنعشات
فترى الارض كالبساط الموشى   وترى العاشقين فى وثبات
داعبتهم من الهوى خلجات   فاستعادوا لذائذ الذكريات
فنهار يفيض شوقا وليل   ينقضي فى مراتع السهرات
واهازيج فى الفضاء تحيي   فرحة الكون بالمنى المطربات
فكأن الزمان كله يوم   وجميع الانام فى نزهات
وكأن البقاع ترفل فى نو   ر وتختال فى حلى مذهبات

وكان الحياة حلم جميل ... في قصور مسحورة الغرفات
سال فيه النضار والعطر والخمـ ... ـر وابدى مفاتن الشهوات
فمصابيح كالنجوم لطاف ... وملاح الحسان كالظبيات
والمثاني كانهن قيان ... صادحات باعذب النبرات
وكؤوس من العقيق رقاق ... لاح منها اللهيب في ومضات
ودخان من المباخر يعلو ... كضباب معنبر النفحات
اسكر الحاضرين منه عبير ... فتمادوا في مضحك الحركات
وغصون الرياض اثقلها لؤ ... لؤ طل مبعثر الحصيات
وسواق تسلل البدر فيها ... وسباها باسحر الهمسات
فاستنامت الى مناجاته الحلـ ... ـوة في غمرة من القبلات
والشجيرات ساكنات تشاوى ... كصبايا تعبن من نزوات
يترقبن فجر يوم وضيء ... عاطر الجو ضاحك القسمات

فاقترب يا اخا الهوى وتمتع ... بربيع الزمان قبل الفوات
واهجر البيت فالحياة طروب ... واملا القلب من شذى الربوات
وانظر الغيد كالمها راتعات ... في مروج الغرام والصبوات
يترنحن خفة وشبابا ... كزهور الحدائق العطرات
فترى العين ما تشاء من الحسـ ... ـن وما ترتضي من البسمات
انها متعة الحياة فبادر ... لا تضيع نفائس الطرفات
فصباح الربيع ذو رقصات ... واصيل الربيع ذو غمزات
وجمال الحسان شعر ولحن ... انه الفن في بديع الصفات

يا ربيع الزمان ليتك تبقى ... بك والله استطيب حياتي
انت في دورة الزمان عروس ... تتجلى لأقصر اللحظات

الرباط : المدني الحمراوي



وأشرق النهار

مهداة الى الأديب الجزائري الشهيد مولود فرعون

للشاعر ابن رفعة محمد

مولود لم يزل معي . .
اهزوجة لمطلع النصر الكبير ،
اغرودة بيضاء بين اضلعي
لا تكذبوا علي : مات . . لا ،
مولود كفه « سكايفولا »
شكا اللهيب صبرها الخطير
مضت . . لم تمض - بل . .
. . تحولت عبير . . .
يضوع في روابي « سكايفولا » الكبير

مولود لم يمت
بنصري ، لم يمت مسيح المعركة
بل طار من ايفيان نسر ،
خماسي الاجنحة
وطارت في ركابه اميرة الحمام
ترف للسلام بشرى نصر
وتنذر الخفاش بالنهار

. . وثار في صدر التمساح . . حقد نار
لم يستسغ طعم النهار
فكان لا مناص من . .
من خمسة صفار
لفدية النسر الخماسي الاجنحة
ليهدأ الغليل في صدر الشذوذ
لتفزع الحمامة التي . .

ترف فوق رؤوس الشواذ
لانهم لم يكرهوا شيئا ،
كلون ريشهـا ،
لانه النهار

. . فكان لا مناص من . . .
من خمسة صغار
اذ عجزت تفاهة الشذوذ . .
عن صيد الكبار
كطفلة ،
تمنت لو اتاحت امهالها . . .
ان ترضع الرضيع
وعند يأسها من حلمها الفظيع
من حلمها الوضيع
تجردت من السرير
وجردت جنونها من الازار
وشاع فى احشائها هستيريا نار
فكان لا بد لها من دفين الرضيع
من خمسة صغار . . .

واشرق النهار
وزفه للضياء بشرى خالد جديد
سيحيا بركة من دم
على تراب موطن الشهيد
سيحيا مشعلا ،
يضيء ، بين الف الف مشعل ،
يضيء سبع مركبات نار
سيبقى لطخة من عار
فى وجه جلاد ،
بالف حبل مستعار ،
لم يستطع شنق النهار

ابن دفعة محمد



سئمت اعيني جدارا من الظلمة قد حال بين قومي وبيني
ظلمة لا تضيئها شمس يلبوز فى الجهل ، والطوى ، والتمني ،
وتلاشي شعورهم بالمصير

اعين فى الفراغ يملاها الحرمان ، والجوع والضنا ، والعذاب،
وقلوب يقيم فى جوفها الذعر ، ويعلي دقاتها الارهاب ،
تتلظى كالجمر وسط السعير

والصغار الحفاة كالحيوانات سرت ، لا آباء ، لا امهات
عالم حواليهم مضيء .. وهم فيه قطيع حي من الظلمات
نحن شعب، اذن، بدون ضمير

اتمنى لو كنت شمسا وكانوا انجما فيهمو اشع بنوري
او اكن مزنة من العلم ، والعدل ، فاروي ديارهم بغزيري
والتمني سلوى الفؤاد الاسير

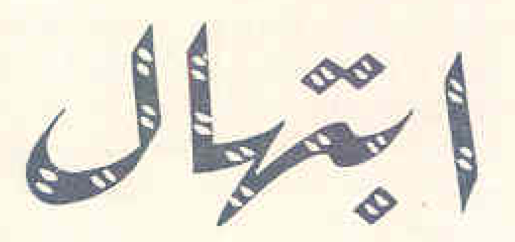
ليتني كنت موجة من سناء الله تملا عقولهم بالضياء
فتفيق الانسان فيهم ، وتحييهم ، وتعلي رؤوسهم للسماء
وتغذي بالخير كل شعور ..

واشنطون : احمد عبد السلام البقالي

الضّليل

الشاعر: محمد حسن الطريبق

فاق طوق المنى رجائي ... ولكن ظل ناظري خيالا بعيدا !
فكأني أرى بفكري ... ولكن أنا كالميت قد بقيت وحيدا
كل شيء راه فكري قريبا كان كالظل حاضرا مفقودا !
كم جديد رسمت ظل جديدا ولكم كنت مبدعا ومجيدا !
خاطري يستعيد ذكرى شبابي والاذى السرمدي أن يستعيدا !
اهو العقم قد أصابه حتى عاد لا يبدع الغداة جديدا ؟
ان يكن في الاوهام يسبح فكري فمدى الوهم لن يظل مديدا!
كنت أحيا بالامس كالام سمحا ولقد عدت كالعصي عنيدا
ويح نفسي ! .. فما وجودي ؟ أبقى اليوم في الحب – دون أجر – شهيدا؟
أنا فيه الضليل ، والنمل الناهي ... ومن كالضليل ينسى الحدودا؟
كنت طفلا الهو بطوقي ، واني اليوم الهو ولم أعد املودا !
لست أدري ، وكيف أدري وقلبي عاد من شدة النوى جلمودا !



لم يعد غير الهوى في شعره لم يدغدغ وترا في غيره
كنشيد همهم اليوم به فرد لا ينتحي عن وكره
أو عيون قد أذابت عاشقا وأزاحت غمة عن صدره
واطل السحر من اهدابها وتملت نغمه من سره
والتقى القلب مع الله كما يلتقي ذوب الندى في زهره !

القصر الكبير : محمد حسن الطريبق

قصة العدد

أرض البرجونثالت

بقلم : الشاعر الإسباني انطونيو ماتشادو
ترجمة : الدكتور محمود علي مكي

تمهيـــــــــد :

انطونيو ماتشادو Antonio Machado واخـوه مانويل Manuel يعتبـران مـن اعظم شعـراء اسبـانيـا في العصر الحديث ، وقد ولد انطونيو في اشبيلية في سنة 1875 ، ولكنه سرعان ما انتقل مع ابويه الى مدريد حيث قضـى الشطـر الاعظم من شبابه

وقد كان ادباء عصره يتجهون بابصارهم الـى فرنسا وثقافتها وادبها ، وهكذا نرى ماتشادو يرحل الى باريـس في سنة 1899 لاول مرة ، وهناك يتصل بالاوساط الادبية الفرنسية والاجنبية فيتعرف على اناتول فرانس وعلى القصصي الانجليزي الكبيـر اوسكار وايلد ، وفي رحلة أخرى له الى باريس يتعـرف على الاديب الامريكـي روبين داريو Ruben Dario شاعر نيكاراجوا بل شاعر العالم الاسباني كله في اوائل القرن العشرين (1867 ــ 1816) ولعله ابرز شعراء الاسبانية ممن ينتمون الى ذلك الجيل المعروف باسم جيل 1898 والذي كان ثمرة لما اصاب اسبانيا في تلك السنة من كوارث سياسية واجتماعية كان لها اثـر بالغ في خلق اتجـاه ادبـي ثوري هو المعروف باسم « الاتجاه التجديدي » .

وفي سنة 1907 يستقـر ماتشادو في مدينة سريـة Soria في (منطقة قشتالة) حيث يتولى منصب استاذ للغة الفرنسية بعض معاهدها ، وبها يتزوج ويخلد الـى حياة عائلية نحوا مـن خمس سنـوات وقد تعلق انطونيو ما تشادوا بمنطقـة قشتالـة هـذه وكرس لها جانبا كبيرا من انتاجه ، واعتبرها وطنـه الاول كما يقول في بعض قصائده ، وكثيرا ما كان يجوب انحاء هذا الاقليم الجبلي الوعر ويطالع قراه التـي تكاد تخفيها اشجار الحور والصنوبر) على حد قـوله ، ويكثر التطواف في منطقة منابع نهر الدويـــره El Duero التي كانت فيما مضى من الزمان ميـدان ذلك الصراع العنيف بين الاسلام والمسيحية على عهد عبد الرحمن الناصر والمنصوريـن ابي عامر ، والتي ولدت على صخورها الجرداء الصلبة امارة قشتالـة مهـد الدولـة الاسبانيـة المسيحيـة .

وقد كان لطبيعة قشتالة وبيئتها وعادات اهلها اعظم الاثر على انتاج انطونيو ماتشادو الادبـي ، بـل اننا نجده يخصص لها ديوانا مفردا هو «ريف قشتالة» الذي نشره سنـة 1912 واودعه تجاربه النفسية ومشاهداته في هذا الاقليـم الـذي يمكن ان يعتبر اما لاسبانيا ومهدا للغتها وثقافتها .

وقد امتدت حياة ماتشادو حتى ادرك الحرب الاهلية الاسبانية (1936 ــ 1939) وتوفي في نهايتها بعد ان رأى بعينيه كيف تتحول اسبانيـا كلها الى « ارض البرجونثالث » : يقتل الابن فيها ابـاه والاخ اخاه ، كما يصور لنا في هذه القصة التي صاغها شعرا ونثرا ، والتي نقدم في الصفحات التالية ترجمة عربية لها لاول مـرة .

كانت صبيحة يوم من طليعة شهر اكتوبر ، وكنت قد عزمت على زيارة منابع نهر الدويرة الذي يشق شبه الجزيرة حتى تنتهي امواهه غربا الى المحيط ، فانتظمت في سلك المسافرين بالعربة التي تقطع الطريق من سرية الى برغش متوجها الى قرية تيدونس في منتصف الطريق بين البلدين ، واتخذت مقعدي قريبا من السائق بين رفيقين احدهما مهاجر عاد من المكسيك الى قريته الصغيرة التي تكاد تخفيها اشجار الصنوبر ، والآخر مزارع كهل كان عائدا من برشلونة بعد ان ودع ابنين له كانا قد استقلا المركب الى الارجنتين ، والواقع ان الراحل عبر هذه السهوب المترامية في اعالي قشتالة لا يكاد يمضي في طريقه حتى يلتقي بمن يحدثه قليلا او كثيرا عن بلاد المهجر فيما وراء البحار .

ومضت العربة بنا في طريق برغش الواسع تاركين الى يسارنا الطريق الموصل الى اوسما (وخشمة) ، وقد حفت بجانبيه اشجار الحور الاسود التي بدأت اوراقها تضرب الى الصفرة المذهبة تحت اشعة شمس الخريف ، وخلفنا وراء ظهورنا سرية بين روابيها الرمادية وصخورها الصلعاء ، سرية المتصوفة المتقاتلة التي ظلت قرونا طويلة محرسا من محارس قشتالة ، وبابا تنطلق منه الجيوش النصرانية لقتال ممالك الاسلام في الاندلس ، ومعبرا نفذ منه السيد القمبيطور الى بلاد المسلمين حينما توجه الى منفاه .. وتقدمنا نحن متجهين الى النهر ، نهر الدويره الذي يحيط بسرية كأنه قوس احكم الرامي تصويبه .

وكان المهاجر العائد من المكسيك يحدثني عن مدينة فيراكروث ، غير ان سمعي كان يتتبع حديث المزارع الكهل مع سائق العربة ، وكان يدور حول جريمة لم يمض على وقوعها الا القليل ، جريمة ذهبت ضحيتها فتاة راعية عثروا على جثتها يوما بين شجر الصنوبر ممزقة بطعنات خنجر ، وكان قاتلها لم يكتف بما ارتكب حتى انتهك حرمة الجسد الميت ، وكان المزارع في حديثه يردد الاتهام الموجه الى تاجر غني من تجار الماشية في قرية مجاورة كانت الشرطة قد قبضت عليه واودعته سجن سرية متهما بارتكاب تلك الجريمة البشعة ، غير ان المزارع الكهل كان يبدي شكوكه في قدرة العدالة على الاقتصاص منه اذ ان الضحية لم تكن الا فتاة فقيرة ، اقبلت استمع ذلك الحوار الدائر بين الرجلين ، والناس في العادة لا حديث لهم في المدن الصغيرة الا عن العاب التسلية والسياسة ، اما في المدن الكبيرة فان حديثهم لا يتجاوز الكلام عن الفن والادب المكشوف ، واما في القرى والبوادي فالناس لا يهمهم الا اعمالهم اليومية او الكلام عن الجرائم .. اليومية ايضا .. واتصل الحديث بيني وبين رفيقي المزارع الكهل :

— أمبعد انت في سفرك ؟

— الى كوفالدا يا سيدي ، وانت ؟

— هذا هو طريقي ايضا ، فانا اريد الصعود الى اوربيون ، ثم اسير محاذيا وادي الدويره ، اما في طريق العودة فانني ساهبط الى مفترق الطرق في سانتاينيس ، ومنها الى بتوبسا .

— اعانك الله على رحلتك حين تصعد الى اوربيون ، فالجو في هذه الجبال ينذر الآن بعاصفة .

ووصلنا اخيرا الى تيدونس ، فهبط المزارع من العربة وهبطت معه ، وودعنا المهاجر القادم من المكسيك ، وكان عازما على مواصلة السفر بالعربة الى سان ايونردو ، اما نحن فقد اتخذنا طريق بتوبسا على سهوب جواديس .

وانا اذكر انه لم تسمح لي فرصة الحديث مع المزارعين الا توجه تفكيري الى مدى ما تحيط به حكمة هؤلاء الرجال وعلمهم مما نجهله نحن ، ثم في قلة اهتمامهم بما نعلمه نحن مما يجهلون .

وكان الكهل يتقدمني في السير واجما صامتا ، فاهل هذه البقاع يتميزون بالجد والصرامة ، لا يتحدث الرجل منهم الا مجيبا على سؤال ، فاذا فعل فان اجابته تتسم بالاجمال والاقتضاب ، واذا لم يرقه السؤال فانه لا يكاد يولي محدثه شرف الرد عليه ، وهو لا يفيض الا اذا سئل عما يحسن معرفته او اذا تحدث عن الارض وفلاحتها وما تتطلبه من اعمال .

وعدت ارجع بصري في القرية التي مررنا عليها وخلفناها من ورائنا ، وكان ابرز ما فيها صومعة كنيستها العالية التي اتخذت طيور الحجل من قمتها مستقرا لاعشاشها ، وهي منتصبة تطل على عدة بيوت مبنية من الطين ، وعلى الطريق الرئيسي الذي يشق القرية بيت ريفي حديث بناه أحد المهاجرين العائدين من بلاد المهجر ، وعليه مسحة من الترف والنعمة تبدو في السور الحديدي الذي يحيط به والحديقة الصغيرة التي تحف جنباته ، فاذا خرجت من القرية بدت لك سلسلة من الصخور الجرداء الرمادية اللون تتخللها شقوق كبيرة تضرب الى الحمرة .

ومضينا فى السير نحو ساعتين ، حتى وصلنا الى قرية مويدرا التي تقع فى منتصف الطريق بين تيدوتس وبتوسا ، ولم نغادر القرية بخطوات حتى اجتزنا قنطرة خشبية صغيرة تعترض مجرى الدويره.

واشار رفيقي المزارع الى اليمين وقال :

— هذا الطريق الجانبي يوصل الى ارض البرجونثالث : حقول فسيحة كانت فيما مضى اجود ما فى هذه البقعة واخصبها ، اما الآن فقد حلت عليها اللعنة ..

فتساءلت فى فضول :

— البرجونثالث هو اسم صاحب هذه الارض ، اليس كذلك ؟

— البرجونثالث كان من اغنى زراع هذه الناحية، اما الآن فلم يعد هنا احد من عشيرته يحمل هذا الاسم ، لم يبق ما يذكر بالبرجونثالث ، الا اسمه يطلق على القرية التي كان يقيم فيها وعلى الحقول المحيطة بها ، ولو انك اخترقت مروج هذه القرية لوصلت الى بتوسا قبل ان تفعل فيما لو اتبعت الطريق الاهل المسلوك ، غير أنها فى الشتاء غير مأمونة ؛ وذلك ان البرد والجوع يحملان الذئاب على الخروج من الغابات المجاورة باحثة عن صيد لها فى هذه النواحي ، وما اكثر ما يسمع عواؤها المسعور اذا ما اقتربت من حقول البرجونثالث التي كانت فيما مضى كثيرة الزرع واصبحت اليوم قفرا خرابا .. واما حديث البرجونثالث فقد قصه علي منذ صغري احد الرعاة هنا ، وانا أعرف أن بعضهم قد سطره على الورق ، وان الشعراء العمي كثيرا ما يتغنون به فى أرض برلانجا .

ورجوت المزارع الكهل ان يقص علي ذلك الحديث، فلبى الرجل رغبتي ومضى يقول :

— 2 —

حينما توفى والد البرجونثالث كان لا يزال صبيا بعد ، ولكنه ورث عنه ارضا طيبة ومالا ليس بالقليل ؛ فقد كانت له دار كبيرة تحف بها مزرعة وبروج نحل ، ومرجان واسعان جيدا المرعى ، وحقول للقمح والذرة ، وعدد وافر من اشجار البلوط غير بعيد عن القرية ، وعدة بغال للحرث ، ومائة شاة ، وعدد من الكلاب الاصلية التي تستخدم فى الصيد او حراسة الماشية .

وتعلق الفتى بصبية جميلة من قرية غير بعيدة من ارض برلانجا ، ولم يمض عام واحد حتى اتخذها زوجا له ، وكانت بولونيا — وهذا هو اسم الصبية — واحدة من اخوات ثلاث ، بنات مزارع من عائلة يدعونها « بيري ايبانييت » وكانت كبرى اخواتها واجملهن ، اما اسرتها فقد كانت واسعة الثروة فيما مضى ، ولكنها فى ذلك الوقت كانت متوسطة الحال ، لا الى فقر ولا الى ثراء .

وما زال الناس هنا حتى الآن يتحدثون عن الفخامة التي احتفل بها فى زفاف البرجونثالث فى قرية عروسه اولا ثم فى القرية التي كانت تحمل اسمه ، كان هناك عازفون على القيثارة وضاربون للاعواد وهازجون بالنايات وقارعون للطبول وراقصة على طريقة اهل ارغون ومطلقون الصواريخ على ما جرت به عادة اهل هذه البقاع الممتدة من اوربيون حيث يولد نهر الدويره حتى يختفي مجراه هناك على مقربة من برغس ؛ ما زالوا يذكرون الولائم المقامة بمناسبة زواج البرجونثالث ، وما زالوا يشيدون بروعتها وبهائها ، فالشعب هنا لا ينسى ابدا ما يرى له بريق وما يسمع له دوي مهما تطاول به الزمن .

وعاش البرجونثالث سعيدا بين زوجة محبة مخلصة وبسطة من المال عليه مغدقة ، وانجبت له امراته ثلاثة ابناء ، فوكل الى اكبرهم العناية بالمزارع وبابراج النحل ؛ وعهد للاوسط بامر الماشية ، واما الاصغر فانه وجه به أوسما (وخشمة) لكي يقبل على العلم ، وذلك انه كان قد نذره لخدمة الكنيسة .

ما اكثر ما يجري فى عروق المزارعين من دم قابيل قاتل اخيه ، وما اسرع ما تشتعل جذوة الحسد بين الاخوة بعضهم والبعض على عرض من أعراض الدنيا الزائلة ؛ ولم تكن دار البرجونثالث فى ذلك بدعا ، فقد تسللت اليها افاعي الحسد منذ أن تزوج ولداه من امرأتين حملتا معهما الى دار الرجل الطيب نوازع الشر والشقاق ؛ لا ما كان يؤمله من امتلاء الدار وكثرة الولد ؛ لم يكن للخبيثتين هم الا الارث الذي سيقدر لهما بعد موت البرجونثالث ، وكانتا لانرتهما وبطرهما لا تكادان تحسان بما هما فيه من نعمة ويسار ؛ بل نغص الطمع عليهما لذة الحياة وحرمهما من كل شعور بالمتعة والطمأنينة .

واما اصغر الاخوة فان المصير الذي كان يريده له أبوه بين جدران الدير لم يكن يروق له ، فقد كان يؤثر العيون النجل على ترديد الصلوات ومعاناة

لغة اللاتين ، فما لبث في يوم من الايام ان خلع عنه مسوح الرهبنة، وقد صح عزمه على الا يعود اليها بعد، وانطلق من الدير عائدا الى دار ابويه معلنا اليهما انه راغب في ركوب البحر الى بلاد المجر . اذ انه كان دائما يحلم بجوب الارضين وخوض البحار والتملي بمطالعة آفاق جديدة غريبة .

وما اكثر ما بكت امه ، اما ابوه ـ وقد عجز عن ان يثنيه عن عزمه ـ فانه باع قطعة جزلة من جيد ارضه ، واعطاه من المال ما قدر ان يكون نصيبه من تركته لو حلت به المنية ، وقال له وهو يودعه :

ـ خذ هذا المال يا بني فهو حقك ، واذهب الى حيث تريد ، كان الله معك اينما توجهت ، واعلم ان لك على اية حال نصيبا في كسرة خبز وسقف يؤويك في هذه الدار طالما كان ابوك حيا ، اما اذا مت فان كل هذا سيصبح من نصيب اخويك .

الشيب قد وخط سوالف البرجونتالث واسبغ عليها لون الفضة ، والزمن كتب على جبينه سطور التجاعيد ولو ان اكتافه ظلت قوية مفتولة ، وراسه ما زال منتصبا شامخا .

وفي صباح يوم من ايام الخريف يخرج البرجونتالث من داره وحيدا ، لم يصطحب معه كلاب صيده ، ولم يعلق على ظهره بندقيته ، ولم يتزود بما اعتاد الصيادون ان يتزودوا به حينما يخرجون الى مثل ذلك من امرهم ، مضى البرجونتالث في طريقه طويلا تظلله اشجار الجوز المصفرة التي تحف بشاطىء النهر ، وادركه التعب بعد ان بلغ عينا تسح بالماء في وسط خميلة كثيفة ، وتوقف الكهل هناك ليجفف العرق المتصبب من جبينه ويبلل حنجرته برشفات من ماء العين ، ثم توسد ذراعه واستلقى على العشب الاخضر ..

ونظر البرجونتالث الى السماء العريضة في وحدته وكانه يخاطب الله قائلا :

« حمدا لك يا رب ، لقد باركت في هذه الارض التي تشقها وترويها يداي ، فلم يخل منها بفضلك خبز على مائدتي ، ولا امراة طيبة في فراشي ، ولا بنون اقوياء انحدروا من صلبي ، بنعمتك يا رب اصبحت ارضي تفص ببيض الشياه ، وامتلات مناحلي بطيب الشهد ، فاللهم اوزعني ان اشكر نعمتك ، فانا اعرف مدى ما غمرتني به من فضلك ، وحمدا لك قبل ان تقضي ارادتك بان تزيل عني النعمة ، وترفع الرحمة » .

واقبل الرجل على صلواته وابتهاله حتى اخذته سنة من النوم ، فقد كانت ظلال الاغصان المتماوجة وخرير الماء المنبعث من جوف الصخر كانما تهيب به : « نم ايها الرجل الطيب .. نم واخلد الى السكون » .

واستغرق البرجونتالث في النوم ، ولكن نومه لم يكن على ما كان يشتهي من سكينة ودعة ، فقد تتابعت على ذهنه صور متلاحقة مما يرى النائمون في احلامهم .

ورای البرجونتالث كان صوتا بعيدا عميقا يخاطبه، ولمحت عيناه مرقاة من نور نازلة من السماء الى حيث اضطجع جثماه ، وكانها تلك التي تراءت ليعقوب عليه السلام في نومه ، ولعل الامر لم يكن يخرج عن بعض اشعة شمس الاصيل ، وهي تتخلل اوراق الخميلة التي كانت تظلله .

وليس من السهل على احد ان يؤول ما يراه النائمون من تلك الرؤى التي تقتحم مخادع افكارنا ومشاعرنا ، فتفرق بين مجموعها وتدس بينها ذكريات مندثرة ومخاوف واوهاما مستقبلة ، هناك كثيرون ممن يزعمون لانفسهم القدرة على تاويل الاحلام ، ولكنهم كثيرا ما يخطئون وقليلا ما يصيبون ، ولا سيما اذا تعلق الامر بهذه الاحلام المزعجة التي تجثم على فؤاد النائم وتقض مضجعه ، اذ ان الغالب عليها هو انها صور منعكسة من ذكريات ماضية تتناولها بالتشكيل والصياغة يد خرقاء مرتعشة .. يد تلك الشخصية التي لا نراها وان كانت تربض في اعماق نفوسنا جميعا : الخوف .

وكان البرجونتالث يحس كما لو انه عاد الى ايام طفولته ، وكانه بالموقد الذي تنبعث منه السنة اللهيب والسعادة ، وحول النار انتظم ابواه واخوته ، ويد ابيه المنقضة تداعب الحطب المتوهج الاشقر بينما اقبلت امه على دعائها وبين اصابعها مسبحة سوداء ، وعلى الحائط الذي سوده الدخان قد اتخذت مكانها تلك الفاس المتالقة التي كان العجوز يستخدمها في تكسير اعقاب الشجر .

ومضى البرجونثالث يطوي على صهوة احلامه طريق الزمن : ها هوذا الآن فى نضارة الشباب فى اصيل يوم من ايام الصيف ، والمروج الاخضر يمتد بين عينيه ، واشعة الشمس المنحدرة الى المغيب تصبغ بلونها البرتقالي قمم اشجار القسطل ، والبرجونثالث فى ظل الشجر يرفع قنينته الجلدية الى فيه ، فينصب منها النبيذ الاحمر الى حنجرته اليابسة ، ومن حوله اسرة بيري ابابنيت : الابوان والفتيات الثلاث ، وحفيف الريح بين الاغصان وعلى العشب الضارب الى الصفرة يعزف لحنا فى صفرة الذهب وصفاء البلور ، كما لو أن النجوم وهي ما زالت في اكنانها الخفية اقبلت تهدي الارض اغنية سماوية قبل أن تطلع من مشارقها على المروج الخضر .

- 4 -

وفجاة سادت الظلال صورة الحلم ، كما لو ان الساحرات اللاتي يغزلن خيوط الاحلام قد وقعت اليهن لفافة من الخيوط السود . فاذا بالبرجونثالث يرى الفراغ وقد ساده الظلام ، وان كان بصيص من النور الشاحب ما زال هناك فى قاع الصورة ، وبدا البيت مهجورا ، والموقد مطفا خامد الجمرات ، ولكن الفاس اللامعة المتوهجة ما زالت فى مكانها على الحائط .

ثم تلونت الصورة مرة اخرى فى بطء وتثاقل ، فالنور يتسلل مرة اخرى فيملا الفراغ المظلم ، وها هو ذا يرى ثلاثة اطفال يلعبون على باب الدار ، وامهم تراقبهم عن كثب وفى يدها ثوب تخيطه ، وعلى فمها ابتسامة تشرق بين حين وآخر ، واصغر الاطفال يبتعد قليلا ، بينما يظل اخواه منصرفين لبعض شانهما ، ثم لا يلبث ان يحط بينهما غراب اسود لامع الريش نافذ النظرات .

وتسائلهم امهم :

ـ ماذا تفعلون يا بني ؟

وينظر الاطفال بعضهم الى بعض ولا يحيرون جوابا

وتعود الام للكلام :

ـ اصعدوا الى الجبل ، والتوني بحزمة من الحطب .

وتنطلق الاطفال ، ولكن اصغرهم يظل فى مكانه لم يلتفت بوجهه الى امه ، وهي تناديه فيعود الى حيث كانت جالسة ، بينما ينطلق اخواه الى الجبل .

ومرة اخرى يبدو البيت .. البيت المهجور ، والموقد الخامد الجمرات ، وعلى الحائط ما زالت الفاس اللامعة المتوهجة .

ويعود الصبيان من الجبل ، وعلى ظهرهما حزم الحطب والتبن ، والبرجونثالث يحد النظر اليهما فيتبين فيهما ابنيه الكبيرين ، وها هو ذا يرى الام تشعل القنديل ، والولد الاكبر يلقي فى الموقد بالحطب واخشاب الجذوع ، وينفخ فى النار ، ويسمع للخشب صرير ، ولكن النار لا تكاد تشتعل حتى تخمد وتنطفىء ، وتظل دار البرجونثالث باردة لا يسري اليها الدفء ، وفى ضوء القنديل الخافت تلمع صفحة الفاس المتوهجة وهي متدلية على الحائط ، ولكنها تبدو الآن كما لو كانت تقطر دما .

ـ ابتاه ، ان النار لا تشتعل فى الموقد ، فالحطب ما زال مبللا بالماء .

وياتي الابن الاوسط ، وينفخ فى الحطب معالجا اشعال النار بدوره ، ولكن الموقد يظل باردا خامد الجمرات .

ثم يتقدم الاصغر ، فيلقي على النار بحفنة من التبن ، ولا ينفخ فيها حتى تنطلق السنة اللهيب الاحمر تشع الدفء فى المكان ، وتبتسم الام فى غبطة ، وياخذ الاب ابنه بين ذراعيه ، ويجلسه على ركبته الى يمين الموقد :

ـ بارك الله فيك يا بني ، فانت اول ولدي واقربهم الى قلبي وان كنت آخرهم ميلادا واصغرهم عمرا ، لتكونن والله خير من انحدر من صلب ابيك ، فقد ساق الله الدفء الى هذه الدار على يديك .

واكفهر وجه الاخوين ، وعلتهما وجمة وشحوب كشحوب الموت ، ورآهما البرجونثالث فى حلمه وهما ينزويان الى ركن من اركان البيت ، والفاس فى يد اكبرهما تشع لمعانا هائلا رهيبا ..

ويمضي البرجونثالث في حلمه الطويل المتثاقل، وهو مضطجع بين يدي العين التي ينبجس منها الماء ؛ وكانت الشمس قد غابت وطواها الافق ؛ وبدا المرج وقد حفته زرقة قاتمة ، ولكن الظلام المتراكب لا يلبث ان تنفذ فيه اشعة هادئة ، ويطل من اقصى الافق قمر هائل ناصع البياض .

البرجونثالث ما زال مخلدا الى غفوته ، وماء العين تتحدر من الصخر الاصم ، وله خرير رتيب متتابع كأنه يعيد على المسامع قصة حزينة قديمة : قصة الجريمة في الحقل .. جريمة كل يوم .

– 5 –

ولدا البرجونثالث يتخذان طريقهما الى حيث كان ابوهما راقدا بجوار العين التي يتفجر منها الماء وهما يسيران في صمت ؛ وظلهما يسبقهما في ضوء القمر الباهت مستطيلا ممتدا على المرج كأنه شبح اسود ، وعلى جبين البرجونثالث سحابة مظلمة تضطرب بين حاجبيه كأنها اثر خلفته فاس ماشية اعملها ضاربها في جذع شجرة .

ويحس الرجل وهو ماض في حلمه الطويل كان ابنيه يتقدمان لقتله ، ويفيق من نومه في تثاقل ليرى كيف يتحول الحلم الى حقيقة ..

ميتة بشعة تلك التي اوقعها ابنا السوء بابيهما الكهل وهو الى جوار العين التي يعول منها الماء ، ميتة بشعة كفلتها لهما ضربة فاس مزقت عنق الرجل واربع طعنات بالسكين في صدره ، الفاس التي اورثها البرجونثالث ولديه والتي طالما كسر بها حطب موقده واستعان بها على بث الدفء في بيته هي عينها التي اجتز بها ابناءعنقه الغليظ الممتلىء، والسكين التي طالما اعملها الاب البر في قسمة الخبز على بنيه والمجتمعين على مائدته هي ذاتها التي غاصت في ذلك القلب النبيل ، لقد كان البرجونثالث ابا عطوفا على بنيه وجارا كريما يعم بالبر كل من نزل به او اعتفى معروفه ، وحق له أن يبكيه كل من الم به من طارق وابن سبيل .

ويتلبث ولدا البرجونثالث قليلا لا يعرفان ما يفعلان بجسد ابيهما الميت ، واخيرا يجرانه الى مستنقع هناك ، ثم يمضيان به الى واد مظلم تحف به الحشائش المتكاثفة واشجار الصنوبر المتراكبة ، ثم يحملانه الى البحيرة السوداء .. بحيرة ليس لها قاع يحيط بها سور عال من الصخور الرمادية الضاربة الى الخضرة ، وعلى قمم تلك الصخور مرابض للصقور والعقبان ، ولم يكن احد من اهل هذه الجهات ليجرؤ على الاقتراب من تلك البحيرة المظلمة الموحشة حتى في اشد ايام العام اشراقا وصفاء ..

ويربط فتيا السوء الى قدمي ابيهما حجرا ثقيلا ثم يرسلان به يتحدر على جنبات الصخور الى قاع البحيرة .. البحيرة التي ليس لها قاع ..

ويعود ابنا البرجونثالث عبر الوادي المظلم الى حيث المستنقع آخذين سبيلهما بين الحشائش المتكاثفة؛ واشجار الصنوبر المتراكبة ، وكان لماء المستنقع هدير واصطخاب ، ولكنهما يمضيان في صمت ، وفي آذانهما وقر من هدير الماء واصطخابه .

ويحس بهما في الغابة ذئبان جائعان كانا يبحثان عن صيد ، فلا يكاد الذئبان يطلعان عليهما حتى يمتلئا منهما رعبا ويوليا فرارا .. ويمضي الفتيان في طريقهما ويهمان بعبور النهر ، فاذا بمجرى النهر ينحسر عنه الماء ويتخذ له مسربا آخر ، ويخترقان الغابة ، فاذا بالشجر والحشائش والصخور تنحاز عن طريقهما وتفسح لهما كأنما تتجنب ان تحتك بهما ثياب القاتلين الراهبين .. قاتلي ابيهما .

ودنا الفتيان من العين التي كان ابوهما مضطجعا الى جوارها ، وكان الماء المتبثق منها ما زال يرجع تلك القصة الحزينة القديمة ، ولكنها لم تكد تسمع وطء اقدامهما حتى كف الماء عن الخرير ، وانقطع الحديث الحزين ، وما زالت العين صامتة ساكنة حتى ابتعد عنها الفتيان وطواهما الظلام ، وهناك عاد الماء الى الخرير ، ووصل ما كان قطعه من الحديث الحزين المعاد .

– 6 –

وهكذا ورث ولدا السوء عن ابيهما ما خلف من ثروة ومال في ذلك اليوم من ايام الخريف ، وورثا الكهل الصريع الذي خرج في صباح ذلك اليوم ولم يعد .

وفي اليوم التالي عثر بعض اهل القرية على آثار البرجونثالث الى جوار العين ، وعلى خيط من الدماء متوجه الى المستنقع ، غير انه لم يجرؤ احد

على توجيه الاتهام الى ابني الرجل بقتله ، فالفلاحون في العادة يخشون بأس القوي ، ولم يحاول احد ان يتحرى الامر منقبا عن اثر القتيل في جوف البحيرة، فما كان مثل ذلك البحث ليعود بأي طائل ، اذ ان البحيرة السوداء لا تعيد الى سطح الماء ما تبتلع مياهها ، بل ان احد اولئك الباعة المتجولين الذين يهيمون في تلك الجهات خاض في ذلك الامر وجهر بما كان الناس يتسارون به من قتل الفتيين لابيهما الكهل، فكان نصيب البائع ان زجا به في السجن بعد ان لفقا له تهمة مصطنعة جمعا لها عددا من شهود الزور المأجورين ، وانتهى الامر الى ان حكم عليه بالاعدام ، فشنق في سجن سرية .

ان نزعات الشر في نفوس الناس متأصلة عميقة ، هي اشبه ما تكون بمياه البحيرة السوداء .. ليس لها قاع ..

وماتت ام الفتيان الثلاثة بعد ذلك بشهور ، ويقول الذين رأوها مسجاة على سرير الموت انها كانت تغطي وجهها بيديها ، وقد تصلبت اصابعها الباردة كأنها كانت تخشى النظر الى مشهد هائل فظيع .

— 7 —

شمس الربيع الدافئة تشرق على الحقول الخضر ، والطيور تخرج فراخها الصغار من اوكارها في اعالي الشجر تعلمها الطيران في سماء شهر مايو الصافية ، والحجل تتوثب مرحة بين سنابل القمح الفضة ، وشجر الحور المصطف على جانبي الطريق وعلى ضفاف النهر قد ضرب لونه الى الخضرة ، واشجار البرقوق قد انتشرت فيها الازهار البيضاء.

وارض البرجونتالت كأنها تبتسم لصاحبيها الجديدين اللذين ورثاها عن ابيهما الصريع ، فالشجر والنبات يبشر فيها بمحصول وافر وخير كثير .

واقبل الصيف ، وكان عاما مخصبا فاض خيره على الشقيين ، والهتهما النعمة الجديدة عن ذكر جريمتهما ، فالخطايا لا تثقل ضمير مرتكبها الا اذا خشي عقاب الله و الناس ، فاذا كان من ذلك بمأمن واذا ابتسم له الحظ فانه يأكل خبزه في رضا كأنما هو خبز أودعه الله كل بركته .

ولكن الشره اذا كان له في العادة مخالب تعرف كيف تسطو وتنهش ، فان يده عاجزة خرقاء لا تعمل ، وقد مضى العام الاول بخيره ونعمته ، فتمتع به ابنا البرجونتالت ما وسعهما المتاع ، ولكن الصيف التالي لم يكد يقبل حتى تبدلت الحال ، وبدت الارض كما لو عادت عابسة مقطبة في وجهي صاحبيها ، فحقول القمح كان بها من الزنابق البيض والاعشاب اكثر مما كانا يؤملان ان يريا فيها من السنابل الشقر ، اما الفاكهة فقد قتلها الصقيع وهي بعد غضة لينة ، وعشرات الماشية ورؤوس الغنم كانت تتناثر جثثها الميتة بين يوم وآخر دون ان يعرف احد لذلك سببا الا ما كان يتردد على السنة الناس من ان ساحرة نفثت فيها رقية او القت عليها دعوة مستجابة .

ومضى ذلك العام، واتى الذي يليه ، فكان اسوا وانكد : لقد اصابت اللعنة تلك الحقول ، وكلما تضاءلت ثروة ابني البرجونتالت تزايد الشقاق بين امرأتيهما حتى كانتا لا تكفان عن النزاع والخصام ، وولدت كل منهما ولدين ، ولكن الحياة لم تقدر لهذه الذرية ، فقد سممت الكراهية لبن اميهما ، فقضي على الاطفال بالموت ، وهم بعد في سن الرضاع ..

— 8 —

كانت ليلة من ليالي الشتاء الباردة ، وابنا البرجونتالت وامرأتاهما ملتفون حول الموقد الذي كانت جمراته الخامدة تلفظ آخر انفاسها ، ولم يكن لديهم حطب يشعلونه ولا كان بوسعهم في تلك الساعة ان يخرجوا لاقتطاعه ، وكانت الريح القارسة تتسلل من خلال ثقوب الابواب والشرع وتصب سياطها الباردة على جلود الحاضرين ، وكانت مسامعهم تمتلئ بحفيف الريح في داخل المدخنة وبتهاوي الثلج الذي تتقاذفه اعاصير الجليد في الخارج ، وكانوا ينظرون في انكسار وصمت الى جمرات الموقد المحتضرة .

وبينما هم كذلك اذ تعالت طرقات على باب الدار .. ويصيب الحاضرين ذعر مفاجيء ، ويتوجه الاكبر الى اخيه فيقول :

— ترى من الطارق علينا في مثل هذه الساعة ؟ قم فانظر من ذا يكون ؟

ولكن الجميع يظلون مشدودين الى مقاعدهم دون ان يجرا احدهم على فتح باب الدار . وتتردد الطرقات على الباب :

— افتحوا ، أنا اخوكم ..

ويهتف الجميع فى صوت واحـد :

— انه ميجيـل ، لنفتـح له .

وما فتحوا الباب حتى بدا لهم شخص ميجيـل اصغر ابناء البرجونتالث وقـد التف فى عباءة ثقيلـة قد غطتـه طبقة سميكـة من ذرات الثلج البيضاء .

وعانق ميجيل اخويـه ثم جلس امام الموقد ، وسادت فترة صمت طويلة ، وكانت الدموع تترقـرق فى عيني ميجيل ، واخوه يتجنبان التقاء نظره بنظرهما لقد غادر ميجيل هذه الدار وهـو ما زال صبيا بعد ، وهو يعود الان اليها من بلاد المهجر بعد أن اصـاب ثروة واسعـة ، وكان قد بلغه خبر موت ابيه وامه ، الا انه ما كان ليتطرق اليه الشك فى اخويـه .

وعلى الضوء الهزيل الخافت الذي كان ينبعث من جمرات الموقد الميتة بدت صـورة ميجيل ومعالـم وجهه .. كانت بشرتـه السمراء قد ازدادت سمـرة بما لوحتها شمس امريكا المحرقة ، وقسمات وجهـه النحيفـة الصلبة قد ايبسها العمل المتواصل : سمـة تطبعها ارض المهجر دائما على وجوه من يستقرون فيها باذلين من الجهد ما يكتسبون به مالا وثروة ، ولكـن عينيه الكبيرتين كان يلمع فيهما بريق الشباب ، وقـد تهدلت على جبينه العريض المشـدود خصل رقيقـة من شعره القسطلي ، كان ميجيل اجمل اخوته مظهـرا واكثرهم وسامة ، فقد كان يعيب وجه الاكبر حاجبان غليظان يرسمان خطا كثيفا من الشعر يخترق جبينـه فوق عينيـه ، واما الاوسط فقد زادته دمامة عينـاه الصغيرتان اللتان تلتمعان ببريق قلق ينم عن الجبن والمكر والقسـوة .

وظل ميجيل صامتا ساهما بينما كان اخـواه يحـدان النظر الى صدره الذي توهجت عليه سلسلة غليظـة من خالص الذهب .. وقطع الاكبر حبل الصمت العميـق :

— اتنـوي الحيـاة معنـا هنـا ؟

واجاب ميجيـل :

— ذلك اذا شئتم .. سيصل متاعي غـدا .

وتمتم الاخ الاوسط فى لهجة لا تخلو من الحقـد

— هذا هو شان الدنيا ، يبتسم الحظ لقـوم فيمضـون صعدا الى الجاه والثروة ، ويعبس لاخرين فينحدرون الى حضيض الفقر والحاجة ، ولـك فى امرنا عبـرة : تعود انت مثقلا بالذهب ، ونحـن كما ترى لا نملك حتى قليـلا من الحطب نستدفيء به .

و كانت الريح فى الخارج تكاد تقتلع الابـواب والنوافذ ، وصفيرها يدوي فى المدخنة كانه رعـد تقطـع من الذئاب ، وكان البرد ينفـذ الى العظـام فتسري اليها رعـدة قاتلـة .

وكان ميجيل يهم بالكـلام حينما قطعت عليـه الحديث طرقات متتابعة على الباب ، ونظر الفتى الـى اخويه كانه يسالهم عمن يمكن أن يكون فى مثل تلـك الساعة المتاخـرة ، امـا هذان فقـد كانا يتبـادلان النظـر وقد استولى عليهما الذعر والفزع .

وتكررت الطرقات على البـاب ، فقام ميجيل وفتح

ولم يكن هناك احد .. لم ير الفتى الا فـراغ الليلة المظلم ، وسكت وجهه موجة من الهـواء البـارد القت على وجهه رذاذا متناثرا من الثلج .. لم يـر ميجيل احدا ، ولكن بدا له كان شبحا يختفي بعيـدا فى الظلام تحت ذرات الثلج البيضاء المتسـاقطة .

وهم ميجيل باغلاق الباب والعودة الـى حيث كان ، ولكنه لم يكد يفعل حتى لمحت عيناه فجـأة على عتبة الباب كومة من الحطب بين قدميه ، وفى هـذه اللحظة اشتعلت فى دار البرجونتالث نار متوهجة لـم تشتعل قبل ذلك ابدا فى الموقـد الخامد الجمرات .

— 9 —

كان ميجيل قد عـاد من بلاد المهجر ذا وفـر وثروة ، وان لم تكن بقدر ما صـور لاخويه شرههمـا وشهوتهما الى المال ، وعـزم الفتى على ان يستقـر فى تلك القرية حيث رأت عيناه النور لاول مرة ، ولكنه كان يعلم ان الارض التي كانت لابيه قد ءالت كلهـا الى اخويه ، وهكذا عرض على هذين ان يشتري قطعة من ارضهما ناقدا اياهمـا ثمنا لم تكـن تساويـه ، وقبل الاخوان ، وتمت المبايعة ، وبدا ميجيل فى فلاحة الارض التي حلت عليهـا اللعنـة .

واعاد الذهب البهجة والفرح الى قلبي الاخوين بعد ظلام وانقباض ، ولكن عودة المال الى ايديهما صرفتهما عن العناية بالارض ، واخذا ينفقان فى سرف على ملاهيهما ولذاتهما ، حتى اضاعا الجاه والاكبر مما غنماه من صفقتهما الرابحة ، ولم يمض العام حتى رأيا الا مفر من ان يعودا الى فلاحة ارضهما والعمل فيها كما يفعل الناس .

اما ميجيل فقد كان يشتغل بارضه من مطلع الشمس حتى مغيبها ، كان لا يألوا جهدا فى حرث تلك الارض التي طالما اضر بها الاهمال . وكان يجتهد فى تنظيفها من وحشي الاعشاب ، وفى ريها بعد ان يبسها الجدب وقلة العناية ، وهكذا عاد الى تلك الارض رواؤها وخصبها ، وحفلت مرة اخرى بسنابل القمح الممتلئة الشقراء ، بينما ظلت ارض اخويه كما كانت مقفرة قاحلة ؛ وكان اخواه ينظران الى تلك الحياة الجديدة التى دبت فى ارض ميجيل وملء قلبيهما الغل والحسد وملء عيونهما الرغبة فى المزيد من المال ؛ وعاد ميجيل الى شراء ما بقي من ارضهما ونقدهما الثمن مضاعفا كما فعل من قبل .

عادت ارض البرجونتالث الى ابنه الاصغر ميجيل ، وعادت معه الى الحقول الملعونة ما كان المزارع العجوز قد افاض عليها من الخير والخصب ؛ اما الاخوان الكبيران فانهما لم يريا ايديهما مملوءة بالمال حتى عادا الى ما كانا فيه من الانفاق عن يمين وعن شمال ؛ وما زالا حتى ادت بهما الخمر والمقامرة والملذات مرة اخرى الى الفقر والافلاس .

- 10 -

كان اخوا ميجيل قد قضيا يومهما فى قرية مجاورة كانت تحتفل بموسمها السنوي ، وكانا قد اسرفا فى الطعام والشراب ، طيلة ذلك اليوم . فلما اقبل المساء اتخذا طريقهما عائدين الى قريتهما ، وكان الاكبر مقطب الوجه ، وقد تقارب ما بين حاجبيه القلبطتين ، وتحت جبينه الضيق تختمر فكرة هائلة رهيبة .

وتوجه بالحديث الى اخيه :

— كيف تفسر اقبال الحظ على ميجيل ؟ فها انت ذا ترى الارض تغمره بالخير والثروة بينما تضن علينا نحن بكسرة خبز .

وتمتم الاصغر فى صوت لا يكاد يبين :

— ضرب من ضروب السحر ، وفنون من رقى الشياطين .

ومضى الاخوان فى طريقهما صامتين حتى اقتربا من حقول اخيهما الاصغر ، فخطر لهما ان يطلعا عليها من أعلى السور ، وبدا الحقل وقد اكتظت اشجاره بالثمار ، وهناك بين احواض الورد تبينا شخص رجل منحن على الارض منصرف الى معالجتها .. وقال الاكبر :

— انظر اليه ، ها هو ذا هناك لا يكف عن العمل فى ظلام الليل . ثم اقبلا يصيحان باخيهما :

— ميجيل .. ميجيل ..

ولكن الرجل الذي كان يباشر عمله فى الارض لم يلتفت اليهما وكانه لم يسمع نداءهما ، وبقى منكبا على الارض يشذب هذه الاغصان او يقتلع تلك الحشائش ، وانعم الاخوان النظر ، فهالتهما رؤية شيء غريب : هالة من النور تحيط بشخص ذلك الرجل الذي ظل مقبلا على عمله ، ولكنهما نسبا ذلك الى اسرافهما فى الشراب اذ لم يكن من الغريب ان تضطرب الصور وتختلط فى نظر الثمل . ولبث الفتيان يتاملان ، وما كانت لحظة حتى انتصب ذلك الرجل واقفا ، واتجهت خطواته الى حيث كانا واقفين دون أن يبدو عليه انه رءاهما ، وكانه كان متجها الى ركن ءاخر من اركان الحقل يواصل العمل فيه ، ودنا ذلك الشخص منهما ، فشخصا بابصارهما اليه ، لم يكن ميجيل ، وانما هما يتبينان فيه صورة ابيهما : البرجونتالث نفسه يعمل فى ارض ابنه ميجيل بعد ان لفظته مياه البحيرة السوداء .. البحيرة التي ليس لها قاع ..

واستيقظ الاخوان فى اليوم التالى ، ولم يذكرا من حديث الامس الا انهما اكثرا من النبيذ ، فتراءت لهما ما اعتاد السكارى ان يروه من تهاويل غريبة وصور مزعجة ، ولم يلقيا بالا الى ذلك ، واقبلا على شانهما من الاسراف فى المتعة وانفاق المال عن يمين وعن شمال ، بينما مضى اخوهما الاصغر فى فلاحة ارضه والعناية بها ، والله يزيده من الخير ويضاعف له من الثمرات .

ومن جديد يشعر الاخوان بدم قابيل يسري في عروقهما ، وكانت ذكرى جريمتهما الاولى تحثهما وتدفعهما دفعا الى ارتكاب جريمة ثانية .

واستقر عزمهما في النهاية على قتل اخيهما ، ولم يترددا في انفاذ ما عقدا عليه النية ، فاقتحما عليه ناعورة الماء ذات يوم وخنقاه فيها ، ولم تمض على ذلك أيام حتى بدت جيفته طافية على ظهر الماء .

وبكى الشقيان اخاهما بدموع زائفة حتى يبعدا عنهما شكوك اهل القرية الذين لم يكن احد منهم يكن لهما اي شعور بالود او الصداقة ، ومع ذلك لم يخل الامر من تهامس بعض الناس هناك باتهامهما بتلك الجريمة ، غير انه لم يستطع احد ان يقدم على ذلك الاتهام دليلا او قرينة .

ومرة اخرى عادت ارض البرجوثالث الى الاخوين المجرمين .

وفي صيف تلك السنة امتلا بيتهما بالرخاء والنعمة ، فقد حصدا من تلك الارض ما كان اودعها اخوهما ميجيل من الجهد والعمل ، ولكن الارض الملعونة عادت عليهما في السنة التالية بما عودتهما من الشح والتقتير ، ورجعت الى سنتها من القحط والجفاف .

ها هو ذا الاخ الاكبر منحن على محراثه يشق الارض في اعياء ونصب ، وهو يتوقف ليسترد انفاسه ويجفف العرق المتصبب من جبينه ، ويرجع النظر فيما شق من الارض ، فيهوله أن يرى الارض تنطبق عليه من جديد ، وتنسد الشقوق كان لم تكن .

والاخ الاوسط قائم في الحديقة التي كانت اشجارها مثقلة بالفاكهة والثمر لم يعد فيها الآن الا وحشي الاعشاب ، وهو يعالج اجراء الماء في جداولها بفاسه ، ولكنه يرى والفزع يغشى عينيه ان الارض لا يتفجر منها الماء ، وانما ينبثق منها جدول من الدم ، ويقف الفتى متهالكا على الفاس ويردد بصره في ذلك المشهد الهائل الفريب ، ويتصبب العرق البارد على جبينه المحموم .

وفي اليوم التالي يجتمع الاخوان كانهما على موعد ويتخذان طريقهما في صمت الى البحيرة السوداء مخترقين مروج الحشائش وخمائل الصنوبر .

ويدنو على صوت مسيرهما ذئبان كانا هناك ، فلا يكادان ينظران اليهما حتى يمتلئا منهما رعبا ، ويوليا فرارا .

ويطلع الفتيان على صفحة البحيرة ، ويعلو صياحهما :

— ابتاه ...

ويتردد الصدى من اغوار الصخور التي تحف البحيرة :

— ابتاه .. ابتاه .. ابتاه ..

ولا تكاد الصخور تصمت عن ترديد النداء حتى تكون قد التقتهما مياه البحيرة السوداء .. البحيرة التي ليس لها قاع ..

مدريد : دكتور محمود علي مكي
مدير معهد الدراسات الاسلامية بمدريد



الرسّام محمد بناني في معرضه الأخير

للأستاذ : محمد السرغيني

ان الحديث عن اي رسام مغربي ، يدفع حتما الى الحديث عن الرسم فى المغرب ، لان الرسامين مع حركة الرسم فى هذا البلد ، يكونون وحدة متناسقة لانهم ناشئون اولا ؛ ولان رسمنا وليد ثانيا .

هناك رسم فى المغرب ، ولكنه ضائع يبحث نهائيا عن الاتجاه من وراء الالوان التي يريد منها أن تعطيه حياة متحركة . ان تجعله معبرا عن الرعشات الحضارية التي تعيش ثوانيها . وتعاني مخاض ولادتها ؛ ولكن رسامينا على اختلاف نهجهم ، ليسوا بقادرين على ان يسبروا غور اللون من اجل ان يكون فى مستوى ما نعانيه : ان اللون بكل خفقاته لا يصل عندهم الى هذا الحد . انه باستثناء الطراوة التي تبلل غضونه لا يمكن ان يفصح عن حركة مجتمعنا . يضاف الى ذلك تلك الرؤيا الشعرية التي لابد منها لكل رسم ورسام ؛ تلك الرؤيا التي نبحث عنها من وراء الظلال ، ومن وراء الخطوط ، حيث يجد الرسام المجال الاوسع لاثبات شخصيته . اذ من هنا يتنبأ بالحظ فى قيمه التعبيرية، اي انه ابتداء منهما ينبع كل تطور محتمل فى تاريخ حياة كل رسام .

نحن اذن ، بصدد ايجاد بعث فني تجهد الفستنا فى ان يكون متالقا معبرا ، موسوما بشخصيتنا ولكن اللحظات الحضارية القارة التي نعيشها ، ليست قادرة على ان تزودنا بذلك الزلزال الداخلي الذي يدفعنا الى ابداع من مستوى عالمي . اننا نعيش انماطا من الحياة رتيبة او متغيرة ، ولكنها فى مجموعها نبضات غير حية، لا يمكن بحال ان تترعرع فى ظلال سمو عام لانسانية الانسان هنا ، ومن اجل هذا ، لا نخلق الا معادا ، ولا نبتكر ابداعا ، اذ اننا ننفعل بزيف من خلال تاثراتنا العارمة لما نراه فى مدارس الرسم فى فرنسا على الخصوص . وهكذا ، فنحن نعيش تجربة الآخرين بغير حرارة ولا شوق ، بل نعيشها ابدا بمحاولة تكرار وتلفيق .

وهذا لا ينبغي أننا نفتقد العنصر الوجداني ، ذلك العنصر الذي يحاول وبصفة تامة ان ينخرط في مآسينا ، ويعيش تجربتنا البسيطة بالقدر الذي لا ينزع منها شاعريتها ورواءها ، هذا العنصر الوجداني، نجده ظاهرة غريبة عند بعض الذين تغذوا بلبان شعارات تقليدية منذ نعومة اظفارهم من فنانينا . هؤلاء الرسامون هم بحق وارثون للرؤيا الصوفية التي نراها جلية فى مناحي الحضارة بالمغرب : كالمعمار والادب والرسم والنحت .

واذا كنا نستطيع ان نصنف كل رسامينا فى مدارس معروفة فى تاريخ الرسم المعاصر ، لان كل واحد منهم حر فى ان يختار الطريق لنفسه ؛ ولان كل واحد منهم لا زال يتمسك بالتأثر الاول ، فهو اسير تقليد يبعده عن ان يصل يوما الى أسلوب شخصي ، فان هذا التضارب ان كان كفيلا بان يخصب حقل الرسم فى هذا البلد ويفرقه فى شتى التيارات والاتجاهات ، فهو أيضا كفيل بان يبعده عندنا عن وحدته الهيولانية ؛ عن طابعه الذي نحب له ان يكون منا ، ساذجا مفتعلا (※) يعبر عن مشاكلنا ويفهمنا فهما جذريا ، ومن ثم ينقلنا عبر خطوطه والوانه وظلاله الى الناس والتاريخ .

وهناك عشرات الاسماء : كالغرباوي ، واليعقوبي والادريسي ، وبناني كريم ، وابن الكاهية ، وابن علال ، الى غير ذلك ، هذه وجوه متعددة ، وربما متناقضة

لرسمنا ، ولكنها تتحد جميعا في ظماها الى الاكتشاف . في اخلاصها الى اكتشاف (الانا) من خلال كل تلك التهويمات اللونية على قماش اللوحات ، واذا كانت هذه الاسماء كلها على مثل هذا التضارب في الاتجاه ، فالى اي حد استطاعت ان تعكس مظاهرنا على اعمالها ؟ اعتقد ان اول ما نواجه به في هذا الصدد هو تلك الهروبية المتبرئة من كل ما هو منا ، صحيح ان هؤلاء يفرون منا ومنهم ، لانهم يبحثون على الخصوبة . يبحثون عن الشفافية . عن النغم الاخرس الذي يشع من خلال كل لوحة رسمية . ولكن كل هذه الحركات لا يمكن بحال – كما يعتقدون – ان توجد في بلادنا ، لهذا فهم يجرون خلفها ، فيما وراءنا ، فيما وراء البحار التي تفصلنا عن مواطن الخصوبة والثراء . وحينما اقيم ذلك المعرض الذي يجمع بين الرسامين المعاصرين في(※) باريس ، وبين الرسامين المغاربة ، يكاد الانسان يجد فيه نفس الاسلوب ونفس الرشاقة في اختيار اللون ، ونفس البناء في الخطوات الدراسية للوحة ، ونفس الايقاع والرجة اللذين يحدثهما الظل ، واخيرا نفس النفس الشاعري ، او الثائري او التجريدي عند كل من هؤلاء الرسامين الذين يجمعهم المعرض (※) وان كانت الشكلية التعبيرية ، والقدرة الخلاقة ، والاستيعاب الرائع لشاعرية الموضوع ، واخيرا ، عراقة الايماء وثراء الصور ، تنعكس جميعا على اعمال الآخرين ، في حين نحس اضطراب الناشيء امام رسوخ قدم المجرب ظاهرة على اعمال رسامينا .

هذه المقدمة ضرورية من اجل الحديث عن رسام مغربي ، هو الاخر يقوم بمحاولات جديرة بأن تدخل في حيز التاريخ ، تاريخ الرسم المعاصر في بلدنا ، وضرورتها تاتي من حيث ان بناني مغربي هو الآخر وقع تحت تاثير روافد الغرب ، انه اختار لنفسه طريقا ليس من الطرق التي يجب ان نسير فيها صعدا .

ان هذا الرسام لا زال في ريعان شبابه فهو في الخامسة والعشرين من عمره ، ولكن الطريف في حياته انه درس بالقرويين بعد دراسته بكتاب حيه . ويظهر انه بدأ في هذه المرحلة من حياته في اكتشاف عالم عبثي لا مفهوم : فعصى الفقيه واللوحة المبيضة بالصلصال ، وترنيمات التلاوة القرآنية اللامنسجمة ، وربما كان من الممكن ان تكون عناصر اولى في تكييف شخصيته الفنية فيما بعد ، فهو قد بدا برسم دوائر ومربعات واشكالا غامضة على جدران منزله ، ولكن سنة 1954 – 55 كانت حاسمة في دفعه بصفة نهائية الى الاختيار ، وفي سني دراسته بالقرويين ، كانت اعماله تتسم بسذاجة الناشيء وتصحيحه ، ولكنها في نفس الوقت تفصح عن كبير تعلق بتقاليد ثقافة وطنية عتيقة ، ظهر ذلك جليا في تمسكه بتلك الصوفية الشفافة ، وبعد هذا ، اتى الحريق المهول القاشم لقيسارية العطارين بفاس ، فتعلم الناس ان يصرخوا صرخات لا تقل عنفا عن امواج البنزين التي ذهبت بالثروات الصغيرة القابعة في جوف الدكاكين الضيقة في هذا السوق ، وبالطبع فقد ابو الرسام ثروته الصغيرة ، وكان هذا منفذا جبارا تسلل منه الحزن الى قلب الرسام ، وكان أن عثر هذا الحزن على طاقات تعبيرية خصبة كامنة في لا شعوره . ولم يكن من الممكن ان يعبر بناني عن هذه الصرخات بغير الريشة ، اذ انه كان قد اكتشف الالوان والموهبة واللوحة ومفعولها السحري في كل اعماقه ، ولعل الرسام كان يتخيل فاسا تحت اللهب الحاقد ، ولكنه حتى في هذه الرؤيا ، لم يكن حالما ، اذ ان عدساته كانت تمور حياة متعقلنة ، حيث التحمت الوان لم يكن من المنتظر التحامها .

وهكذا فكل لوحة من لوحاته ، هي فكرة ، هي انفعال يبحث عن فكرة يحاول ذهنه ان يبلورها ، لانها دائمة الحضور فيه ، ابدية الانطباع والوعي ، ومن هنا يتاح لها المجال لان تنمو وتنضج بتلقائية ، لتتحول فيما بعد الى لون محسوس مجسم ، ثم ان اللون بالنسبة اليه وعي لشيء ، انه يكتسح بنوع من الجدل ، فيلتقي بصورة حاسمة بفضاء اللوحة .

اننا نشعر من خلال النظر الى اعمال بناني ، بالمغامرة الاسيرة مع العدم واللانهائي في القماش الابيض ، هذه المغامرة تنعكس على عجلته في رسم اكثر ما يمكن من الاشياء ... فهي مبدأ لعمل مجنون يدفع بناني محمد الى نضال ضد اناه ، كما لو كان خائفا ان يفقد خيوط الهاماته .

※ انظر الكتيبات الثلاثة التي اعدتها البعثة الثقافية الفرنسية عن اليعقوبي ، والغرباوي ، والادريسي ، بقلم : Gaston Diehl, Tanjaoui Mohamed, Pierre Gassi.

※ انظر الكتيب الذي صدر بمناسبة هذا المعرض باشراف الحكومتين المغربية والفرنسية تحت عنوان : « Peintres Marocains de l'Ecole de Paris et peintres marocains présentés au Maroc en avril et mai 1962.

وبناني ايضا ، يخيل الي انه لن ينهي اية لوحة من لوحاته ، لانه لا يوقعها ، وربما كان يرى أن لوحة واحدة لا يمكن بحال ان تكون لها نهاية ؛ وفي نظره ، ان دور الرسام اذا انتهى ، فيجب عليه أن يعيش حياته كالآخرين ، فهو ليس كعرائس لا ترقص الا بحركة خيط انه يريد أن يلقي الينا بالامه المستمرة عبر أعماله .

هذا هو الرسام في مسار تطوره ، ولكنه حتى في تعاقب الاتجاهات الجمالية في الرسم واختلاط المفاهيم التأثرية في أعماله ، نحس له شخصية ساذجة احيانا ، وقوية احيانا اخرى ، خفيفة الوقع تارة ، وشديدة الترنيم تارة أخرى ، فهو على الاقل ، مخلص في أن يرسم بلون وبظل وبخط وبفكرة من خالص وحيه .

واذا كان « كاندينسكي » في كل من روسيا والمانيا قد لعب في تجريدياته دور الرسم الطلائعي ، حتى مع قيام الثورة البلشفية فان بناني بتجريدياته ايضا لم يكن ليكون طلائعيا ؛ اذ أن الحركات التقدمية في نقد الرسم ، قد حكمت ــ وخصوصا في روسيا وفرنسا مؤخرا ــ على ان التجريد تعبير داخلي عن حالات فردية ؛ ليس في استطاعتها ان تعكس الحالات الشاملة بين كل افراد الشعب الواحد .

ورغم كل ذلك ، فان التعبير الداخلي للرسام لم يكن ليستعين حتى بالاشكال المشعة لتراثنا ، من اجل ان يكون شيئا منا .

اننا نلاحظ فيه شيئا من صوفية (بول كلي) في المانيا ، وحتى نفس الفهم للتجريد الذي نجد عند (كاندنسكي) .

يقول (ميشيل سوفور) في كتاب : « مغامرة الفن التجريدي » لـ (ميشيل راكون) : « ان الفن التجريدي عندي ، هو ما كان خاليا من اي تذكير او حضور ، يمكن ان يشير الى الواقع المحسوس الملاحظ ، وسواء لدي أكان هذا الواقع منطلق الرسام ام لا ! » كذلك بناني : انه أبعد الانسان عن لوحاته ، واعطى لنفسه كامل الحرية في ان يبذر في فضائها الابيض كل خصوباته الفكرية ؛ وهكذا ، فالانسان غائب عن أعماله، لا نحس له وجودا . ولكن الرسام نفسه يحاول أن يبرر هذا الغياب بأنه لا يحمل اي عداء للانسان ، بل هو على العكس يقدسه : ان الانسان يختفي من أعماله كتمثيل تشخيصي ، لا كقيمة انسانية ، من اجل اعطاء (الشيء) انسانيته الكاملة فهو قد عوض عن غيابه بتجزئة الاشكال المرئية واخضاعها لعدسة كثافة تظهر الفكرة اظهارا ما ورائيا . انه يقول في تحليل لاعماله كتبه عن نفسه : « فالتحفة الفنية الموفقة هي في الواقع محاولة من اجل الوصول الى التعبير عن كلية الانسان ، ومن ثم الى فهم كلي للعالم » . « واري ان ما ضاع بغياب الانسان من أعمالي ، قد ربحته في الجانب الآخر بحضور (الشيء) » . (Objet)

والرسام يرى بعد ان اقتنع بالتجريد كمذهب ، انه هو الوحيد الذي يمكنه من فهم مهمته : « اذ مهمة الفنان لن تكون شيئا آخر غير مساعدتنا على الحصول على رؤيا واسعة وعميقة للاشياء ، والشعور بوحدتها ، وهكذا ، فبسبب هذه الرؤيا ، وقف الرسام مبهوتا امام اللون البني الحائل لروث حمار ، فاكتشف ان الكويرات الروثية الصغيرة ، اخذت تغلفها قشرة رهيفة بخارية شفافة اكسبتها صفاء جعله يخترق كثافتها الهشة ويتخيل المساحة البنية الندية التي ترتاح عليها القطعة الشعرية العجيبة . وكانت هاته الكويرات تتزحلق تحت ارجل السابلة ، فتتفتت ، وهكذا تكتسب ابعادا عديدة ، وحينما تفتت نهائيا ، اكتسبت شكلا ارضيا جامدا . »

واعتقد أن اقتناع الرسام بالتجريد هو اقتناع داخلي ، أساسه ميراث صوفي انحدر اليه عن طريق سلالي ؛ يؤكد هذا تلك الخطرات الحالمة ، وذلك الارتفاع السامي الذي ينعكس على لوحاته التي عرضها بمعرض باب الرواح ، من فاتح فبراير الى متمه .

اننا نشعر بعزوح نحو الاعلى في أعمال الرسام ، بل بدعوة حارة الى نبذ الارضية ، وهذا ما يجعل هذا الرسام يسير في اتجاه عدائي للارض لانه لا يراها الا من خلال السماء ، من خلال اشكال ميتافيزيقية ، تكاد ان تنعكس على كل الحزن الذي يطغى عمليا على ملامحه بل على خطوات ريشته .

واخيرا . اننا نتمنى لهذا الرسام ان يستطيع عكس الطراوة التي تبلور الفكرة بشفافيتها ، وتسهل مهمة انسجام الالوان ، لتنفذ منها الى تذوق اعماله ، فيبعث طابعه الشخصي امامنا واضحا كما اننا نتمنى له ايضا الا يوغل في الماورئيات حيث تتكثف افكاره ، وتتشعب ، فتضيع في متاهات اللون وابعاده ، ملطخة لا تجري في عروقها حياة . وهكذا نستطيع ان نحكم على صدق عاطفته ، وعلى مدى عيشه لواقع فنه .

محمد السرغيني

التلفزيون
كأداة اتصال بالجماهير

ترجمة الأستاذ : محمد العربي المساري

« ان التلفزيون ليس فنا مستقلا بنفسه ، ولكنه مجرد وسيلة لنشر الفنون »
مارسيل بانيول

خلال شهري يناير وفبراير نشرت جريدة « الاكسبريس » نص تقرير هام عن شؤون التلفزيون اعده اندريه ديلجان ، وهو نائب برلماني فرنسي طالما عني بمشاكل الراديو والتلفزيون . والتقرير مقسم الى خمسة اقسام هي :

- التلفزيون في العالم
- ما ذا يرى الناس في التلفزيون ؟
- التلفزيون الفرنسي
- القناة الثانية والتلفزيون الملون
- التلفزيون وحرية الاخبار

والحقيقة ان اهم جزء في هذا التقرير هو الجزء المتعلق بآراء الكاتب حول الدور السياسي الذي يلعبه التلفزيون في المجتمعات . وقد اورد الكاتب انه يوجد على سطح الارض اكثر من 2 000 محطة ارسال تلفزيونية وحوالي 120 مليون جهاز استقبال ، وهذا العدد يتزايد باستمرار ، كما ان معدل ساعات الارسال آخذ في النمو وفي الولايات المتحدة يمضي المتفرج العادي حوالي 5 ساعات في اليوم امام الشاشة الصغيرة . وفي فرنسا يبلغ معدل الساعات التي يقضيها المتفرج العادي امام شاشة التلفزيون حوالى 16 ساعة في الاسبوع ..

« التلفزيون ووسائل الاتصال الاخرى »

وقد اثار ظهور التلفزيون ردود فعل عديدة في مختلف المجالات ، سواء في الحياة العامة او بالنسبة لوسائل الاتصال الاخرى . وفيما يتعلق بالسينما وهي اوثق الوسائل السمعية البصرية علاقة بالتلفزيون ، اثبت احد البحوث التي اجريت بفرنسا في سنة 1959 حول تأثير التلفزيون على السينما والمسرح ، على ان ظهور التلفزيون احدث تغييرا ملموسا ، وقد طرح على الجمهور هذا السؤال :

- منذ امتلاكك لجهاز استقبال تلفزيون هل تذهب الى السينما اكثر مما قبل او اقل .

وكان الجواب :

0 ٪ اكثر 81 ٪ اقل 12 ٪ بمقدار ..
وبالنسبة للمسرح : 2 ٪ اكثر 63 ٪ اقل 35 ٪ بمقدار .

هذا في فرنسا ، اما في الولايات المتحدة فان عدد قاصدي القاعات السينمائية انخفض من 82 مليون (سنة 1940) الى 46 مليون في سنة 1955 بالرغم من تزايد عدد السكان ..

وبالنسبة للصحافة كان تأثير ظهور التلفزيون واضحا جدا ، اذ اخذ كثير من زبناء الصحافة يخصصون جزءا كبيرا من وقتهم لتتبع اشرطة الانباء التي تعرض على الشاشة الصغيرة . ففي انجلترا انخفض عدد النسخ المطبوعة من الصحف ، في عام 1958 فقط ، 800 000 نسخة . وفي الولايات المتحدة ادى الامر الى اختفاء عدد من المجلات .

وفى فرنسة انخفض شراء الصحف الباريسية بمقدار 100 000 نسخة ، وكما هو الحال فى انجلترا وامريكا كانت الصحف المسائية والمجلات المصورة اول الضحايا . .

« ثقافة الغد »

والسيد ديلجان يستنتج من كل هذا ان ثقافة الغد ستكون اقل اعتمادا على الكتب مما سبق . ويقول: « ان ظهور الطباعة ساعد كثيرا على نشر الادب المكتوب، اما الآن بعد الاهتداء الى التلفزيون ، فان كثيرا من الاساليب التربوية سيدخل عليها تحوير جوهري » ، وماسرو يقول : « نستطيع بواسطة التعليم ان نحترم كورني وفيكتور هيجو ، ولكن هذا ليس كافيا اذ يجب ان تشهد اعمال كورني وهيجو لكي نحبهما . . »

والذي يحدث فى التلفزيون ان تبليغ الافكار لا يكون باستخدام اللغة وحدها بل تمتزج الكلمة والصورة ، والصورة لها نفوذ قوي ، لانها تمثل التشخيص ، وهذا بدوره يعني قدرا اكبر من التقرب الى نفسية وحواس « من » يتلقون الافكار بواسطة التلفزيون ، ونظرا لقوة نفوذ التلفزيون من هذا الجانب نجد الحكومات تعتني عناية شديدة بهذه الاداة الخطيرة للاتصال بالجماهير . وقد تعالت الاصوات بالدعوة الى جعل هذه الاداة الخطيرة فى متناول المجتمع كله . للتعبير الحر الصادق الموضوعي عن رغبات كل قطاعات هذا المجتمع . ولهذا قال جوهينو : « ان التلفزيون السيء هو الذي يصنع مواطنين يسهل القيادهم » ومعنى هذا ان التلفزيون الناجح هو الذي ينمي فى جمهوره الرغبة فى المعرفة والاطلاع ويوقظ قلق وفضول هذا الجمهور .

« من يشرف على التلفزيون »

وهنا يطرح سؤال : كيف يجب ان يوجه التلفزيون ؟

والجواب دائما واحد وهو ان التلفزيون يجب ان يوجه لخدمة جمهوره ، وفى كل بلد من البلدان التي يوجد فيها تلفزيون وطني ، يعطي التوجيه اللائق الذي يناسب طبيعة نظام الحكم القائم . ففي الولايات المتحدة بلد التنافس الحر لا يخضع التلفزيون لاي سلطة او رقابة سوى سلطة ورقابة اصحاب الاعلانات . وتجدر الاشارة الى ان البرامج الاخبارية فى الولايات المتحدة — مع هذا الوضع — من اكمل وادق ما يوجد فى تلفزيونات العالم ، اما فى العالم لاشتراكي وفى الاتحاد السوفياتي على الخصوص فان السلطة التي يخضع لها التلفزيون هي سلطة الحزب ، وفى مقابل الاشهار التجاري — فى امريكا — يلزم التلفزيون السوفياتي بخدمة الاغراض الدعائية .

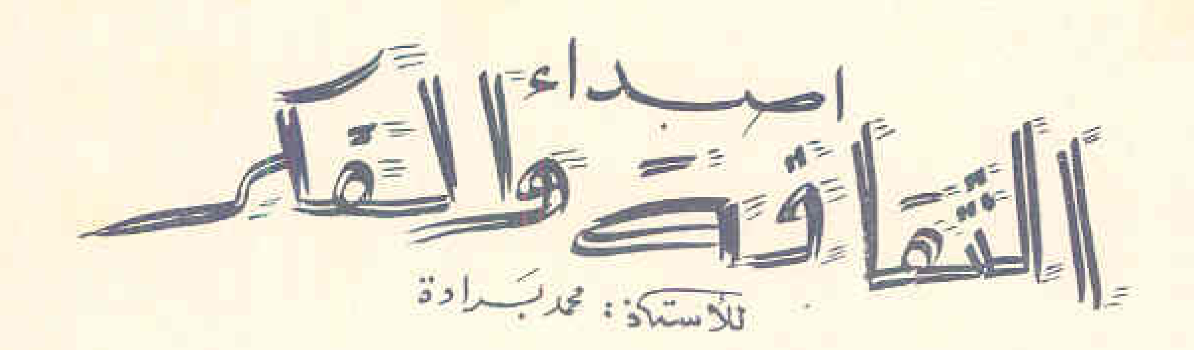
« رئيس البرامج ليوتنان كولونيل »

وهذا ما يتذرع به القادة الحكوميون فى اكثر دول العالم التي يوجد فيها تلفزيون لكي يجعلوا من التلفزيون « اداة لتربية الجماهير » ففي المانيا الشرقية 63 ٪ من البرامج التي اذيعت فى سنة 1959 كانت تخصص « لمشاكل بناء الاشتراكية فى الجمهورية الديمقراطية الالمانية » وفى التايلاند توجد قناتان تلفزيونيتان ، قناة تسيرها الحكومة ، واخرى يسيرها الجيش ، وهذه الاخيرة يديرها ضابط برتبة كولونيل ، ويرأس قسم البرامج فيها ليوتنان كولونيل ، ومنتجوها برتبة كابتن وليوتنان ، ويقوم بمهمة التذييع فيها مذيعة برتبة سرجان شاف . .

ولعل هذا التقابل بين ما هو موجود فى بلدان التنافس الحر وبلدان التلفزيون الموجه ، هو ما يعنيه ويفيرو بقوله « ان خطر التلفزيون الذي يخضع خضوعا تاما لاستبداد السلطة يكمن فى انه يكون « لتكييف » الرعايا ، وان خطر تلفزيون يخضع للمصالح الخاصة يكمن فى انه يكون آلة لتكييف الزبائن .

وخير تجسيم لهذه الاخطار ما قاله ديجول فى جامعة اكسفورد سنة 1941 : « عند ما يصبح كل الناس يقرأون فى وقت واحد شيئا واحدا فى صحيفة واحدة ويشاهدون فى جميع انحاء العالم مرور نفس الاقلام امام اعينهم ، ويسمعون جميعا نفس الاخبار والمقترحات ، ونفس الموسيقى المذاعة ، فان الشخصية الخاصة بكل فرد وحرية الاختيار لن يعثر لهما على اثر بعد ذلك . . ويحدث ان تتكون نوع من الميكانيكية العامة لا يستطيع الفرد داخلها ان يحمي نفسه من الايحاء الا بجهد جهيد . . . »

الرباط : العربي المساري



نجيب محفوظ يحتفل بعيده الذهبي .. او احتفال الرواية العربية بخروجها من الاطار الاقليمي

فى الشهر الماضي ، احتفل الروائي الكبير نجيب محفوظ – ومعه ادباء العربية – بعيده الذهبي .. وقد نشرت معظم المجلات دراسات ومقالات عن فن نجيب محفوظ ، واضافاته للتراث الروائي العربي المعاصر وكان بودي – لو اسعفني الوقت – ان اكتب بحثا عن الخط التطوري الذي سار عليه هذا العملاق المبدع . واكتفي فى هذا المجال بايراد بعض النقط التي ترسم اطار الرحلة الابداعية التي قطعها نجيب محفوظ ، معتمدا على قراءتي لرواياته ، وعلى الدراسات والابحاث الآنفة الذكر . (※)

ينتمي نجيب محفوظ الى الجيل الروائي الثاني اذا ما اعتبرنا جيلا اولا كلا من : هيكل ، ويحي حقي ، ومحمود تيمور ، والمازني ، وطاهر لاشين ، والحكيم وطه حسين .. ومعنى ذلك ان سبيل الفن الروائي لم يعد بكرا ، وان محاولات لا بأس بها كانت قد مهدت الظروف امام امكانيات التطور والسير نحو الكمال . وقد ساعدته دراسته للفلسفة بجامعة القاهرة ، على اكتساب اطار فكري عميق ، اتاح له فيما بعد ان يرسم ابعادا متينة لرواياته ، ولكن صلته بالفلسفة ما لبثت ان تعرضت لاغراء الادب والخلق ؛ فغير الاتجاه ، وانكب على مطالعة روائع الادب العالمي شرقا وغربا . وظل فترة طويلة يكتب وهو فى منطقة الظل ، الى ان تخلى عن الاتجاه الرومانسي التاريخي ، وبدأ مرحلة الروايات الواقعية : خان الخليلي ، القاهرة الجديدة ، زقاق المدق ..

وفى اعتقادي ان العنصر الاساسي الكامن وراء نجاح نجيب محفوظ هو أصالته ودفعا للالتباس ، يجب الا نفهم الاصالة بانها ابتكار وتجديد مطلقان .. ولكنني اقصد ان نجيب محفوظ لم يضعف أمام بريق المذاهب والاتجاهات الفنية التي كانت اضواؤها تسطع فى سماوات اوربا ما بعد الحربين . كان يتتبع تلك المعارك والمخاضات ، ويقرأ الكبار الروائيين فى فرنسا والجلترا وامريكا وروسيا ، ولكنه ظل يبحث عن طريقه مستوحيا امكانياته الخاصة وبيئته وتطوراتها . يوضح لنا هذا الاتجاه موقفه التالي ...

سئل مرة عن اسلوبه فى المرحلة الاولى ، فاجاب :

« عند ما بدات الكتابة كنت اعلم انني اكتب باسلوب اقرا نعيه بقلم فرجينيا وولف ، ولكن التجربة التي اقدمها كانت فى حاجة الى هذا الاسلوب . لقد اخترت الاسلوب الواقعي فى هذا الوقت الذي كانت فرجينيا وولف تهاجم فيه الاسلوب الواقعي وتدعو للاسلوب النفسي .. » (※)

※ انظر المجلة – يناير 1963 – « عالم نجيب محفوظ » بقلم : ادوارد الخراط وكذلك عدد الكاتب يناير 1963 .

※ المجلة – يناير 1963 ص 26

وهو يشير هنا الى المقال النقدي الرائع الذي كتبته فرجينيا وولف سنة 1919 مهاجمة روايات ولز، وبينيت وجالسورثي، الذين كانوا يمثلون آنذاك، المذهب الواقعي. وكانت فرجينيا وولف، وجويس يتزعمان اتجاها روائيا جديدا يعتمد على «تيار الشعور» والاهتمام بالزوايا النفسية الخبيئة. كتبت فرجينيا وولف تعلق على روايات اصحاب المذهب الواقعي قائلة:

«... فاذا كنا قد الصقنا بكل هذه الروايات صفة واحدة هي المادية، فاننا نعني بذلك ان هؤلاء الادباء قد كتبوا اشياء لا اهمية لها، وانهم انفقوا موهبة وجهدا عظيمين لاضفاء مظهر الحقيقة والديمومة على ما هو مبتذل ومرحلي» (*)

اذن، فقد كانت الحملة على المذهب الواقعي في أوجها، وكان نفوذها يتقلص بسرعة ليفسح المجال للمذهب الواقعي الانتقادي، والمذهب النفساني التحليلي، وغيرهما من الاشكال التعبيرية الجديدة.. ولم تكن هذه العملية قاصرة على انجلترا، بل شملت اوربا جميعها باستثناء الاتحاد السوفياتي الذي ساده تيار الواقعية الاشتراكية..

رغم كل ذلك، فان نجيب محفوظ لم ينسق لهذا الاغراء، وبدأ رحلته الابداعية من المنطلق الذي يلائم امكانياته ومجتمعه.. وليس معنى ذلك انه تخلف عن الاستفادة من تطورات الرواية العالمية.. لسبب بسيط، هو انه تجاوب مع هذه الاصداء التطورية الجديدة متدرجا، واعيا، لا مقلدا. ويجمع النقاد - ويوافقهم نجيب ايضا - على انه مر بثلاث مراحل:

1) مرحلة الرومانسية التاريخية: وقد استوحى موضوعاته فى هذه المرحلة من التاريخ الفرعوني القديم، فكتب ثلاث روايات هي: «عبث الاقدار» و «رادوبيس» وكفاح طيبة وكان ينوي ان يكتب 37 رواية تاريخية اخرى.. لولا انه انتقل الى المرحلة الثانية..

2) مرحلة الواقعية وهي التي كشفت عن موهبته واصالته.. وخلالها قدم روائع هامة: خان الخليلي، فضيحة فى القاهرة، زقاق المدق، بداية ونهاية، ثلاثية بين القصرين..

وعندما انهى الثلاثية سنة 1952، وتوقف عن الكتابة، وظل يعيش فترة «التأقلم» مع الشكل الجديد لمجتمعه بعد قيام الثورة. وفى سنة 1957 كتب رواية «أولاد حارتنا» بعد صمت دام خمس سنين.. وهذه الرواية لم تنشر بعد فى كتاب، لانها اثارت ضجة كبيرة عندما ظهرت متسلسلة فى صحيفة الاهرام.. ويقال بان علماء الازهر حالوا دون نشرها لان نجيب محفوظ لجا فيها الى الرمز، ليشخص الانبياء، ويمزج بين الجوانب الروحية والارضية فى الانسان.

3) مرحلة الواقعية الجديدة: وفيها خروج نجيب عن التصوير الدقيق، والوصف البطيء الصبور المتتبع لجميع التفاصيل.. فى هذه المرحلة جعل يجمع بين الوصف والتحليل النفسي، والاهتمام بالافكار. وتمثل هذه المرحلة رواياته:

«اولاد حارتنا» و «السمان والخريف» «واللص والكلاب» ان هذا الخط التصاعدي الذي سار فيه نجيب محفوظ يظهر لنا بوضوح مدى اصالته ونضجه. واذا كانت رواياته الواقعية الممتازة قد اعطتنا شرائح وصفية زاخرة بالنماذج والمواقف البشرية، واعطتنا شهادة حية على فترات خصبة من حياة المجتمع العربي، فان روايات نجيب محفوظ الاخيرة قد ارتفعت الى اجواء ارحب، وتخطت النطاق الاقليمي لتخاطب الفكر الانساني فى العالم اجمع. وهو نصر ندين به لنجيب محفوظ الذي لا اظن ان احدا من القراء الواعين يتخلف عن تقدير جهوده، والتطلع الى مكنونات موهبته المعطاءة، الحافلة بكل جديد..

جمعية نبراس الفكر فى مؤتمرها الثالث

عودتنا جمعية نبراس الفكر منذ سنتين، ان تستدعي الشباب المثقف ورجالات الادب والفكر ببلادنا للاجتماع وتبادل الراي حول موضوع معين، فقد كان موضوع التجمع الاول هو «فلاسفة الغرب الاسلامي» شارك فيه اساتذة مرموقون، ونشرت ابحاثهم فى كتاب ملأ حيزا من فراغ مكتبتنا..

والمؤتمر الثاني حاول معالجة احد موضوعات الساعة وهو «المغرب بين التيارات العقائدية» الا ان الشخصيات السياسية التي استدعيت للمشاركة لم

(*) Virginia Woolf - L'art du roman - Ed. Seuil 1963

تلب الدعــوة ، فلم تسفر المناظرة عما كان ينتظر منهــا لانها لم تسهم فى توضيح الاختلافات داخل اطار فكري منســـــــــق ..

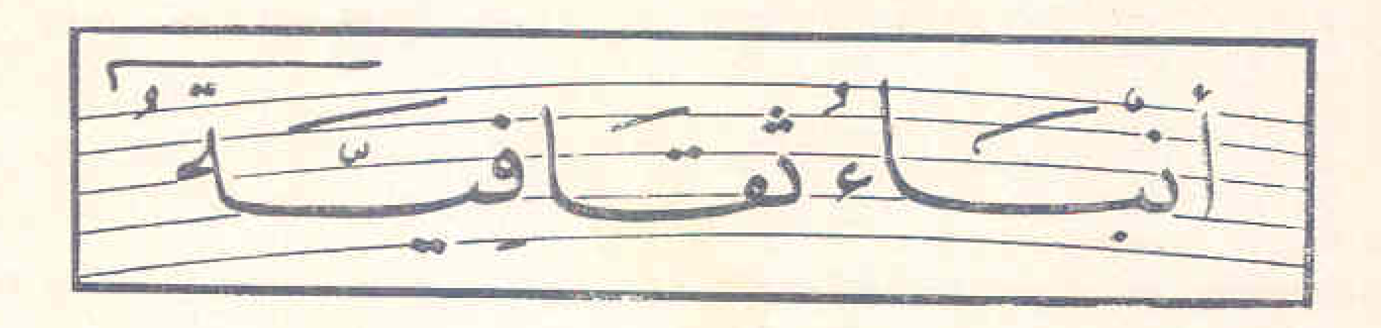
اما المؤتمر الثالث فقــد اختير لــه موضــــوع « المغرب بين الذاتية والاندماج » ورغم انني لم اطالــع بعد نصوص المحاضرات التي القاها الاســاتذة المدعوون، فان لي ملاحظة جوهرية على الموضوع المختار . ذالـك ان التحدث عن المغرب بين الذاتيــة والاندمــاج يقــود حتما الى الحديث عن اختيار طريق عقائدي .. ومعنى ذلك ان موضوع هذه الســنة هو نفس موضوع الســنة الفارطة ، لاننا اذا شرحنا المقصود من الذاتية والاندماج وجدنا ان الامــر يتعلــق بمفاضلــة بين الليبراليــــة والاشتراكية .. بين الفردانيــة والجماعيــة .. اذن فالصيغ متباينة والمضمون واحد . وانا اعتبر هـــذا التشابه فى اختيار الموضوعين تكرارا لا طائل من ورائه ، سيما وان الشخصيات المشاركة هذه الســنة ، هـــي تقريبا نفس شخصيات الســنة الماضيــة .

اني لا اقصــد التقليل من قيمة المشروع ، ولكنني فقط اريد ان اؤكد ان تنظيم مهرجان ثقافي يتطلـــب جهدا وامكانيات ضخمة .. ويعلق عليه المثقفون آمالا عريضـة . لذلك يجب على منظميه ان يفهموا جيدا المهمة الملقاة على عاتقهم والا يتغافلوا عما يمكن جنيه من مثل هــذه المهرجــانــات .

وكم كان بودى ـ ما دام المشــرفــون والمنظمــون لهذا المهرجان من الطلبة الشبان ان يخالفوا التقليــــد المتبع ، فيفسحوا المجال امام الشــباب ليــسمع صوتــه لاساتذته وشيوخه .. بــدلا من ن يكتفــي بالانصــات اليهــم ومناقشتهــم ...

الرباط ــ م . برادة





* احتفل في مختلف المدن المغربية بالذكرى الاربعينية لوفاة بطل الريف الامير عبد الكريم الخطابي.

* صدر عن اتحاد كتاب المغرب العربي العدد الاول من مجلة « آفاق » شارك في تحريره نخبة ممتازة من رجال الفكر والادب بالمغرب .

* « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

تتوج هذه الآية الكريمة اللوحة الفنية الرائعة التي صنعتها ايادي مغربية وقدمها المغرب هدية للامم المتحدة . وقد نصبت هذه اللوحة في مركز هام في قاعة الوفود ، وقد دشنت رسميا عند زيارة جلالة الملك للامم المتحدة .

* عقد مؤخرا الاستاذ محمد الفاسي عميد الجامعة المغربية ندوة اعلن فيها عن ضرورة القيام بحملة في العالم العربي لتعريب لغة المحادثة وتحرير لغة تخاطبنا مما علق بها من الفاظ دخيلة ، وقد اصدرت الشعبة الوطنية التابعة للمكتب الدائم للتعريب دفترا خاصا بالالفاظ التي يجب ان نحاربها في نطقنا في حملة التعريب في اطار العالم العربي .

* اصدرت وزارة الاوقاف المكلفة بالشؤون الاسلامية كتاب « اربعون حديثا في اصطناع المعروف » الذي جمعه ابو محمد عبد القوي المنذري وشرحه ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المتوفى سنة 875 هـ وقام بالتعليق عليه وتقديمه الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، ويقع الكتاب في حوالي 94 صفحة .

* احتفل في ورزازات بعيد الزهور الذي يحتفل به في كل سنة بهذه المدينة ، ومعلوم ان ناحية ورزازات توجد فيها اكبر مزارع للزهور بالمغرب .

* صرح نائب عميد جامعة اكرا الدكتور كروز كوندو ان ست جامعات وافقت على الاشتراك في برامج تبادل الطلبة بين الجامعات الافريقية ومن بينها المغرب .

* وضعت الحكومة التشيكوسلوفاكية رهن اشارة المغرب خمسة منح دراسية لمدة خمس سنوات اعتبارا من السنة الدراسية القادمة وذلك لدراسة طبيعة الذرة وتطبيقها وعلم الحياة والكيمياء النووية.

* « سلسلة آفاق » تصدر عنها قريبا مجموعة كتب منها " ديوان المرحوم عبد الكريم بن ثابت وديوان مصطفى المعداوي مع دراسة للاستاذين محمد احمد الجمل واحمد المجاطي وكتاب « ابن الخطيب » للاستاذ احمد مختار العبادي .

* سيصدر بتطوان للسيد احمد المكناسي كتابان الاول بعنوان « اهم مصادر التاريخ والترجمة في المغرب » ، والثاني بعنوان « معجم الكلمات الاسبانية المقتبسة من العربية » مشتملا على دراسة علمية لغوية بالعربية والاسبانية والفرنسية كما يوجد للمؤلف تحت الطبع القسم الثاني من السلسلة الاولى « وثائق دراسة تاريخ المغرب الخاص بمراسلات وزراء مولاي الحسن » .

* اوصى المؤتمر الدولي للدراسات الافريقية الذي عقد اخيرا في اكرا باعادة كتابة التاريخ الافريقي من وجهة نظر الافريقيين بعد ان ظل يدرس حتى الآن من وجهة نظر اروبا ، وتقضي هذه التوصية

بأن يعتمد في كتابة هذا التاريخ على وثائق افريقية وان يمتد الى فترة ما قبل الاستعمار الاوربي .

* صدرت عن دار الكشاف ببيروت الطبعة الثالثة لكتاب « ظلال الاسود » لمحمد الصباغ ، وقد صدرت الطبعة الاولى منه بتطوان ، والثانية بتونس.

* سيعقد في الجزائر مؤتمر اتحاد الاطباء العرب بتاريخ 3 الى 7 ماي المقبل .

* صدرت في الجزائر جريدة يوميةاخبارية بعنوان « الجمهورية » .

* وافقت السلطات التونسية على تحويل المنزل الذي ولد فيه ابن خلدون بحي نهج الباشي بتونس الى متحف وتحويل المدرسة التي تلقى فيها علومه الاولية الى قاعة البحث .

* عقد في فاتح ابريل بالعاصمة التونسية مؤتمرها تحت اشراف هيئة اليونيسكو يضم ممثلين عن مختلف وكالات الانباء للقارة الافريقية ؛ وتتلخص اعمال المؤتمر في دراسة امكانية انشاء جمعية لوكالات الانباء الافريقية ، والنظر في تنمية وتعزيز الوكالات الافريقية من الناحية الفنية والادارية والمهنية .

* ستعقد في تونس تحت اشراف جامعة الدول العربية الدورة الرابعة لمؤتمر الآثار من الثامن عشر حتى الثاني والعشرين من شهر مايو القادم وستتناول هذه الدورة اطلاع الدول المشتركة على الابحاث الاثرية التي قامت بها الدول العربية ، كما سيبحث القوانين والانظمة الاثرية المعمول بها في مختلف الاقطار العربية .

* « اعلام المغرب العربي » سلسلة ثقافية يصدرها في تونس ابو القاسم محمد كرو ؛ اول كتاب ظهر في السلسلة عن شاعر الفاطميين « ابن هانيء » الذي لقبه النقاد بمتنبيء المغرب .

* بمناسبة الاحتفال بذكرى المؤرخ العربي ابن خلدون ينظم معهد ليسي الحرية بالاشتراك مع مجلس الآداب بالقاهرة مسابقة لاختيار احسن بحث عن حياة وآثار العلامة العربي المذكور .

* صدر في القاهرة كتابان عن نجيب محفوظ الكتاب الاول من تاليف الدكتورة فاطمة موسى والكتاب الثاني من تاليف غالي شكري .

* « منهج الامام محمد عبده في تفسير القرءان الكريم » كتاب صدر على نفقة المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب ضمن مشروع طبع الرسائل الجامعية .

* انتهت الدكتورة نوال السعداوي من ترجمة رواية « شجرة تنمو في بركلين » للكاتبة الامريكية بيتي سميث .

* جلال العشري اتم ترجمة كتاب « البير كامي وادب الثورة » للناقد الانجليزي المعاصر جون كروكشانك والكتاب يعتبر من اهم الدراسات التي صدرت عن حياة كامي وادبه وموقفه الفلسفي .

* مبلغ عدد الكتب التي صدرت في القاهرة عام 1962 : 1707 كتاب بين مؤلف ومترجم بزيادة قدرها حوالي 500 كتاب عن العام الماضي .

* صدر في القاهرة السجل الثقافي لعام 1960

* صدر في القاهرة المجلد الثاني من كتاب « فتوح مصر والمغرب » لابن عبد الحكيم حققه الاستاذ عبد المنعم عامر .

* اصدرت دار المعارف بالقاهرة كتاب « مشكلة الامية » للدكتور محمود رشدي خاطر .

* سيترجم مجلس الفنون والآداب في القاهرة الى الانجليزية كتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » تاليف الادريسي و « مسالك الاقاليم » تاليف الاصطخري و « المسالك والممالك » تاليف البكري ، وهذه الكتب كلها في الجغرافية .

* الشاعرة ملك عبد العزيز اعدت للطبع ديوانها الجديد « انشودة النجوم » .

* تعيد الدار القديمة للنشر بالقاهرة طبع قصة « قلوب خالية » لعبد الرحمن الشرقاوي .

※ صدر عن الدار القومية بالقاهرة « دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث » لمؤلفه الكاتب الجزائري عبد الله الركيبي وتقديم صالح جودت .

※ زار القاهرة الموسيقي العالمي خاتشادوريان وقدم في دار الاوبرا سيمفونيته الثالثة .

※ انهى الدكتور ابراهيم رفعت من ترجمة اوبرا عايدة ، وستقدم في الموسم المقبل للمرة الاولى بالعربية في القاهرة .

※ « شموع في الظلام » كتاب جديد صدر عن حسن حافظ وتقديم صالح جودت .

※ « الطريق » اسم الرواية الجديدة التي يكتبها نجيب محفوظ .

※ « العراق كما رايته » كتاب يعده للطبع الاستاذ احمد حسن الزيات .

※ أصدر القاص ثروت اباظة مجموعة قصصية بعنوان « ذكريات بعيدة » .

※ صدرت في القاهرة رواية جديدة للدكتور رشدي رشدي عنوانها « رحلة خارج السور » .

※ اعد للطبع الشاعر احمد حمودي السامرائي كتاب « العقل واسماؤه عند العرب » كما اعد مجموعة شعرية عنوانها « نداء العودة » .

※ مجلس جامعة اكسفورد يبحث عن اعادة كرسي اللغة العربية لتدريسها بالجامعة كان هذا النظام معمولا به منذ ثلاثين سنة ، وكان يتولى كرسي الاستاذية هناك المرحوم جاد المولى المفتش بالتربية والتعليم بالقاهرة .

※ يواصل انور الجندي تقديم اجزاء موسوعته عن معالم الادب العربي المعاصر فقد صدر كتابه السادس « الشعر العربي المعاصر — تطوره واعلامه من 1850 الى 1940 » .

※ صدر في القاهرة ديوان « اسماعيل صبري » المعروف بابي اميمة بتحقيق الدكتور معهد القصاص ، وعامر بحيري ، والدكتور احمد كمال زكي .

※ صدرت في القاهرة الطبعة الثانية لكتاب « قصة الادب في مصر » من تاليف محمد عبد المنعم خفاجي في جزئين كبيرين .

※ قام الاستاذ حسن الصيرفي بتحقيق ديوان «البحتري» وصدر في هذا الاسبوع في القاهرة .

※ تعيد مؤسسة التاليف والنشر بالقاهرة طبع كتاب « الاغاني » لابي الفرج الاصفهاني نقلا عن طبعة دار الكتب المصرية ، وصدر الجزء الاول منه في مطلع هذا الشهر .

※ اعد للطبع بالقاهرة الدكتور ابراهيم انيس كتابه الجديد « اصوات اللغة عند ابن سينا — دراسة وتحقيق » .

※ فجعت المحافل الادبية العربية بوفاة احد رواد الفكر العربي الدكتور بشر فارس الذي يعد دعامة من دعامات الادب العربي المعاصر ، ترك المرحوم وراءه مؤلفات عديدة في مختلف الوان المعرفة، وبرز بنوع خاص في الشعر الرمزي

※ ستقوم وزارة الثقافة بسوريا بطبع مخطوطة « تاريخ المعرة » التي كتبها الفقيد سليم الجندي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق .

※ وصل المستشرق الامريكي جيمس افرارد الى حلب لانجاز كتابه « حلب خلال اربعين سنة قبل الفتح العثماني » .

※ محمد سعيد العامودي يعكف منذ ثلاث سنوات على تاليف موسوعة تاريخية تضم تراجم كبار الشخصيات المكية منذ فجر الاسلام حتى اليوم وسيكون هذا الكتاب الاول من نوعه وقد اوشك المؤلف ان ينتهي منه .

※ صدر كتاب «نهاية السنة» لابن تيمية بتحقيق د. رشاد سالم .

※ يصدر قريبا عن دار منشورات عويدات ببيروت كتاب « دعوة الى السفر » للدكتور عبد السلام العجيلي .

* صدر في لبنان كتاب « روسيا واميركا ، امكانيات وتحذير » تاليف هنري روبرتس وترجمة شكري علاوي .

* في ساحة الملوك كتاب بعده فؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية ببيروت يتناول فيه بالنقد والتحليل لبعض الادباء والشعراء المعاصرين .

* مثل لبنان في المهرجان الذي اقيم بحلب تكريما لذكرى نسيب عريضة المفكر اللبناني ميخائيل نعيمة .

* صدر الجزء الاول من القاموس الوسيط الذي وضعه الشيخ عبد الله العلايلي ويقع في 1150 صفحة يبدأ بحرف الالف وينتهي بالجيم ويضم 800 صورة فنية ، والجزء الثاني سيصدر بعد شهر ويبدأ من الحاء وينتهي بالعين ، ويصدر الجزء الثالث بعده اربعة اشهر ويبدأ بالغين وينتهي بالياء .

* اعد للطبع الشيخ خليل تقي الدين قصة طويلة بعنوان « العنوان » .

* صدر في بيروت العدد الاول من مجلة « السياحة » في لبنان والعالم وهي مجلة اسبوعية تصدر مؤقتا كل شهر ، صاحبها ورئيس تحريرها اديب مروة ، ومديرها احمد عويدات .

* تدرس جامعة آل زيادة موضوع نقل رفات مي زيادة من القاهرة الى لبنان ، كما الفت لجنة من اعضائها للنظر في مؤلفات مي واعادة طبعها تباعا خلال ثلاث سنوات .

* قرر مجلس بلدية بيروت تزيين الساحات العامة بتماثيل المشاهير من رجال الادب والفكر اللبنانيين .

* وقع الاختيار على قطعة ارض بالقرب من مطار بيروت الدولي لتؤسس فيها المدينة الجامعية التي ستضم الجامعة اللبنانية بمختلف كلياتها وفروعها .

* صدرت في بيروت طبعة جديدةللكاتبة اللبنانية سلمى صائغ باسم « النسمات » وكان الكتاب قد جمعه وقدمه الفقيد جرجي نقولا باز .

* « التخلف المدرسي » كتاب جديد تقوم بترجمته ن الفرنسية الى العربية بعض الاعضاء الاساتذة في دار المعلمات بحلب بتكليف من منشورات عويدات .

* صدر عن دار عويدات ببيروت كتاب « الادب الفرنسي الجديد » تاليف غايتان بيكون وترجمة بيبه صقر والاب انطون الشمال .

* اصدر الدكتور باقر سماكة ديوانا بعنوان « اسرار » .

* صدرت في كربلاء مجلة بعنوان « الاصيل » وهي ادبية ثقافية .

* صدر في سلسلة الثقافة الشعبية للاستاذ طه باقر مدير الآثار العام بالعراق « ملحمة كلكامش » .

* اعلن الاستاذ محمد علي مصطفى رئيس البعثة الاركيولوجية العراقية في الحضر ان البعثة تمكنت اخيرا من اكتشاف تمثالين احدهما يمثل هرقل والآخر يمثل اللات ، وقال ان البعثة استطاعت ايضا اكتشاف كتابات تشير الى نصوص دينية واسماء اشخاص في الحضر ، واعلن ان البعثة الاثرية الامريكية التي تقوم بالتحريات في مدينة نفر بالقرب من عفك قد اكتشفت عدة الواح سومرية ترجع الى الالف الثالث . ق . م .

* يطبع الآن في احدى مطابع بغداد كتاب جديد للعلامة الشيخ محمد الخال عضو المجمع العلمي العراقي وعنوان الكتاب « معروف النودهي » من علماء وادباء العراق في القرن الثامن عشر .

* تأسس في جامعة بغداد مركز للوثائق الرسمية مقره في المكتبة المركزية العائدة للجامعة .

* وافقت منظمة اليونسكو على اقامة مهرجان للموسيقى العربية في بغداد يستغرق ثلاثة شهور ، ويهدف المهرجان الذي سيستدعي اليه اعلام الموسيقى العربية والشرقية للمساهمة فيه الى تسجيل تطور الموسيقى العربية من اقدم العصور حتى اليوم ، والتعرف الى العوامل التي اثرت فيها .

※ تقوم في هذه الايام السيدة خيرية محمد محفوظ الموجودة حاليا في سويسرا بتحقيق ديوان الشاعر المشهور « كشاجم » ويتولى الاشراف على عملها المستشرق الفرنسي بلاشير .

※ صدر في بغداد كتاب « لمحات عن الانسان العربي عبر التاريخ ورواية « ولادة الشاعرة وابن زيدون » وهما من تاليف السيد حسين الكافلي .

※ قام الدكتور اكرم فاضل بترجمة كتاب « اللهجة البغدادية » للمستشرق الفرنسي ماسينيون الى اللغة العربية .

※ صدر في الموصل كتاب « تاريخ علماء الموصل » وهو من تاليف احمد محمد مختار .

※ سيقدم للطبع الاستاذ رشيد الصفار كتاب « نسخة السحر في ذكر من تشيع وشعر » للشريف يوسف بن يحيى اليماني الذي توفي في سنة 1121 هجرية .

※ صرح حسين عرب وزير الحج والاوقاف في السعودية بان الوزارة تسعى الآن للبحث عن شخصيات اسلامية على مستوى عال من الثقافة لبعثهم الى الاقطار الاسلامية لارشاد المسلمين ووعظهم ، وسيراعى هذا التعيين موضوع اللغة الاجنبية وضرورة توفرها لدى المرشحين بالنسبة لكل بلد .

※ سيقام في سنغافورة مهرجان للفنون في اول يوليوز القادم ستشترك في هذا المهرجان الدول المتحررة حديثا ودول عدم الانحياز .

※ صدر كتاب جديد عن الاسلام في موسكو طبعت الترجمة الصينية لديوانه « اباريق مهشمة » في بكين وقد اشرف على ترجمته محمد مكين استاذ العربية في جامعة بيكين ، وهو من كبار المستعربين في الصين الشعبية وخريج الازهر ودار المعلمين بالقاهرة .

※ صدر كتاب جديد عن الاسلام في موسكو طبعت منه اكاديمية العلوم السوفييتية 20 000 نسخة، ومؤلف الكتاب هو البروفسور . ل.ى. كليموفيتش من كبار الخبراء السوفييت في الاسلام .

※ مختارات من بحوث المستعرب الروسي كراتشكوفيسكي في الادب العربي ترجمها الى العربية لفيف من المستشرقين الروس ، ويقوم بطبعها معهد الشعوب الاسيوية في روسيا .

※ اصدر معهد الشعوب الاسلامية في لينينغراد كتاب « عمر الخيام » وهي رسائل باللغة العربية والفارسية قام بترجمته والتعليق عليه المستشرق الروسي بوريس روزنفيلد وطبع في موسكو .

※ تنظم الجمعية الدولية للاعلام في ستوكهولم في 27 و 29 ماي المقبل مؤتمرا عالميا يشترك فيه 1500 مندوب من مختلف انحاء العالم ، ويعتبر هذا المؤتمر اول مؤتمر من نوعه يعقد في أوروبا .

※ سيقام في قرطبة مهرجان ادبي كبير بمناسبة الذكرى الالفية لانشاء قرطبة عاصمة الخلافة الاسلامية في الاندلس وكذلك الاحتفال بالذكرى الالفية لابن حزم الاندلسي .

※ سيقام مهرجان « كان » السينمائي العالمي من يوم 10 الى 23 ماي المقبل .

※ توفي في باريس في حادثة اصطدام الكاتب الفرنسي جان بريس .

※ كتاب جديد ظهر في لندن عن الفريد نوبيل مخترع الديناميت وصاحب جائزة نوبيل الشهيرة من تاليف اريك بيرجنجرن ، وهذا الكتاب يكشف عن حقائق جديدة في حياة نوبل التي اختلطت فيها الحقائق بالاساطير لكثرة الذين كتبوا وتحدثوا عنه .

※ « لمحات من تاريخ العالم » للكاتب والرئيس جواهر لال نهرو صدر في طبعة جديدة في الف صفحة في لندن مع مجموعة من الرسوم للفنان هوارين .

※ توفي في لندن العالم الانجليزي تشارلس داروين عن 76 سنة ، وهو حفيد العالم الطبيعي داروين مؤلف كتاب « اصل الانسان » الذي يضم نظريته في النشوء والارتقاء .

❊ صدرت مؤخرا في لندن المجموعة الكاملة لمسرحيات اليوت في كتاب ، وهذه هي المرة الاولى التي تصدر فيها مسرحيات اليوت كلها في كتاب واحد مع دراسة عنها ، وتعتبر المرجع في كل ما كتبه للمسرح وعن المسرح .

❊ انجز الاستاذ المحامي عباس العزاوي ترجمة كتاب « الفيلسوف العربي الكندي » لمؤلفه التركي اسماعيل حقي الازميري استاذ الفلسفة والالهيات بجامعة استانبول .

❊ صدر كتاب اسمه «فينوس الهائمة» للكاتب العالمي لورانس داريل .

❊ احرز الشاعر الامريكي روبرت فروست على جائزة بوليتجين للشعر التي تمنحها جامعة يال والتي تمنح لاحسن شاعر في العالم .

❊ تضمنت الموسوعة العالمية للفنون الجميلة التي تنشر الآن باللغة الايطالية في روما بحثا عن علم الجمال في الثقافة العربية ، تناول هذا البحث آراء الغزالي وابي حيان التوحيدي وابي بكر الرازي ، واما بالنسبة للعصر الحديث استعرض البحث آراء الدكتور بشر فارس في كتابه « سر الزخرفة العربية » .

❊ اسفرت الحفائر التي اجريت بالقرب من مدينة كاستيللو في شمال ايطاليا على العثور على بقايا فيل صغير يرجع الى عصر ما قبل التاريخ ، ويعرف هذا الفيل علميا باسم « ايليفياس ميرديونايس » وهو يشبه عينات عثر عليها وتنتمي الى العصر الجليدي.

❊ احتفلت ايطاليا بالذكرى المائوية لميلاد الشاعر الايطالي كابريل دانونزيو تحت اشراف رئيس الجمهورية الايطالية .

❊ البرلمان الايطالي قرر اقامة نصب تذكاري تكريما للشاعر الايطالي الكبير دانونزيو بمناسبة الاحتفال بالذكرى المائوية لميلاد الشاعر الايطالي ، وسيقام النصب في مدينة بيكارا مسقط رأسه .



فهرس العدد السادس ــ السنة السادسة

الصفحة

دراسات اسلامية :

ابحاث ومقالات :

ديوان دعوة الحق :

قصة العدد :

افاق فنية :